



عادل حمودة

حكومات غرف النوم

المرأة بين لعبة المتعة ولعبة السلطة

حكومات غرف النوم

المرأة بين لعبة المتعة ولعبة السلطة

حكومات غرف النوم

المرأة بين لعبة المتعة ولعبة السلطة

طبعة الفرسان للنشر : يولية ٢٠٠١

الطبعة الثانية : يناير ٢٠٠٣

رقم الإيداع: ٩٩٧٦ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى: 977/5930/16/2

الغلاف بريشة الفنان : مصطفى حسين

الإخراج الفنى : شاهر وهبة

الجمع التصويرى: جى. سى. سنتر

الطباعة : إنتر برس

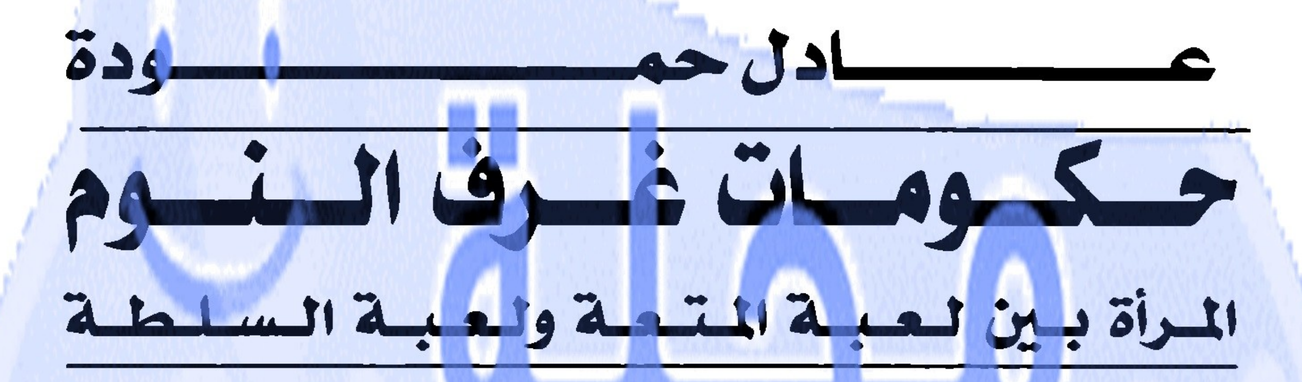


٦٧ شارع العروبة - هليوبوليس ١١٣٦١ - القاهرة.

تليفون وفاكس: ٤١٧٢٠٢٨(٢٠٢) - ٤١٧٢٠٢١(٢٠٢)

إدارة التسويق: ٣ شارع محمد انيس - الزمالك

القاهرة ت: ٧٣٨٣٨٨٧ - ٠١٢/٢١٥٧٤٦١



عادل حمودة

حكومات غرف النوم

المرأة بين لعبة المتعة ولعبة السلطة



دار الفرسان للنشر

الإهـــــداء

إلى صلاح حافظ .. الذى علمنى مليون حرفاً ..

فلم أصر له عبداً .. وإنما صرت له صديقاً ..

عادل حمودة

قبل أن تقرأ

لــوســــــــى والمــشــــــيــر

صــراع عــلــى امــرأة أصــبــح عــلــى ســلــطــة

فى الحب والحرب كل شىء مباح ..

وفى الجنس والسياسة أيضاً .

■ ■ ■ ■

فى يناير ١٩٨٣ ، رحت أمد جسور التفاهم والحوار بينى وبين «النجم الساطع» فى سماء العسكرية المصرية المشير «محمد عبد الحليم أبو غزالة» .. حاولت تخطى السواتر، وعبور الخنادق، وتجاوز الأسلاك الشائكة فى الشرعية .. وتوقفت لألتقط تصرفاته الصغيرة، وانفعالاته العابرة، الشاردة .. إنها إشارات تكشف أعماق الشخصية مهما غطت نفسها من الخارج بطبقات سميكة من الصمت والشمع.

ولاحظت أنه هادىء الملامح والصوت .. مقنع .. لا ينفعل .. لا يحرك يديه عندما يتكلم .. لا يتململ فى جلسته .. لا يدخن .. ويتقبل الهجوم دون أن يتغير .. ثم .. كضابط مدفعية - أو طوبجى - قديم محترف يرد بكمية الكلام - أو كمية النيران - اللازمة للإسكات.

إنه قادر على المواجهة .. طموح .. يتطلع إلى السلطة .. قوى .. قابض .. مسيطر .. مستقر .. يعرف كيف ينفذ برامجه .. وكيف يحقق أهدافه.

وهو ابن بلد .. يتذوق النكتة بابتسامة خفيفة .. ويهوى القراءة والسهر .. ويمارس بعض التمارين الرياضية .. ويشاهد التليفزيون أحياناً .. ولا ينام أكثر من ٤ ساعات يومياً .. من الثانية إلى السادسة صباحاً.

وهو ريفى الأصل، والطبع .. محافظ مع أسرته .. ولم يغيره السفر إلى أهم عواصم

العالم .. باريس .. لندن .. واشنطن .. موسكو .. وبكين .. وقد قال لى إن زوجتى حين تولى رئاسة أركان سلاح المدفعية لم تكن تعرف أنا باشتغل إيه؟ .. ودعم ما قال أن زوجته لا تظهر فى المناسبات العامة إلا نادراً .. وهى تغطى رأسها .. وتظل صامتة فى مقعدها .. وهذا ما جعل زوجها يكتسب صورة «المتدين» .. وجعله يتمتع بالشعبية داخل العديد من الدوائر الدينية.

لكن هذا الفصل هو نوع من التناقض والإزدواجية فى شخصية رجل مثل أبو غزالة .. درس فى مدرسة «المدفعية» فى فرنسا سنة ١٩٥٥، وكان عمره ٢٥ سنة .. ودرس فى أكاديمية «القوات المدرعة» لمدة ٣ سنوات و٧شهور فى الاتحاد السوفيتى .. وسافر ليشغل منصب ملحق مصر العسكرى فى الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد أن أصبح وزيراً للدفاع طاف العديد من دول العالم .. إن خبرات السفر والبشر أفادته فى حياته العامة .. لكنها .. لم تؤثر على ما يبدو فى حياته الخاصة .. ولم تغير على ما يبدو أيضاً فى رأيه فى المرأة.

ويغطى هذا التناقض ويخفيه ويكتمه صفة بارزة فى شخصية أبو غزالة وهى الحرص الشديد .. فى حياته .. وفى تصرفاته .. وقد حصلت على رواية من أحد الضباط الأحرار فى سلاح المدفعية تؤكد صفة الحرص فى شخصية أبو غزالة .. كان فى باريس .. وقرر السهر هو وأحد الأصدقاء فى ملهى شهير فى حى «بيجال» اسمه «سفنكس» .. إن هذا الملهى سبق أن سهرت فيه الملكة نازلى وأحمد حسنين باشا فى أول رحلة للملك فاروق إلى أوروبا بعد وفاة أبيه الملك فؤاد .. ويصف محمد التابعى هذا الملهى بأنه مثير يقدم استعراضات لنساء، بلا ثياب، إلا من ورقة التوت أو ورقة البوستة.

وقد فوجىء أبو غزالة وصديقه وهما فى الملهى بوجود الملك حسين .. ومع أنهما كانا بالملابس المدنية فقد هبا ليدفعا الحساب، وغادرا المكان .. إن العلاقات لم تكن طيبة بين جمال عبد الناصر والملك حسين، فوجدا أن من الأفضل أن يتركا السهرة منعاً لأية شبهة ترصدها المخابرات المصرية فى مثل هذه الظروف.

ويبدو أن الملك حسين عرف أنه أفسد السهرة على ضابطين مصريين فكلف الملحق العسكرى الأردنى فى باريس أبو نوار بأن يتصل بالملحق العسكرى المصرى ثروت عكاشة ومساعده عيسى سراج الدين لدعوتهما على الغداء فى مطعم «الأوريه دوروا» الفاخر فى إحدى غابات باريس تعويضاً عن إفساد السهرة على أبو غزالة ـ الذى لم يكن يعرفه وزميله.

بعد ١٠ سنوات .. فى بداية ١٩٩٣ خرج أبو غزالة من فصل السلطة إلى فصل الغياب .. بفضيحة شهيرة عُرفت باسم «لوسى آرتين» وهو اسم سيدة أرمينية تنتمى لعائلة نيللى ولبلبة الفنية .. وقد كانت حديث الناس .. ودخلت التاريخ من أبوابه الخلفية.

لقد شملت الفضيحة ـ إلى جانب أبو غزالة وكان يشغل منصب مساعد رئيس الجمهورية ـ مدير الأمن العام اللواء حلمى الفقى، ومفتش المباحث فى وزارة الداخلية اللواء فادى الحبشى .. وأسماء شخصيات أخرى تناولها مجلس الشعب فى الاستجواب الذى قدمه النائب المستقل كمال خالد فى ٨ مارس ١٩٩٣ إلى رئيس الحكومة د. عاطف صدقى عن النساء والرشوة واستغلال النفوذ وانعدام الرقابة الحكومية الجادة.

كانت الفضيحة صارخة أجبرت أبو غزالة على الاستقالة .. والاختفاء .. لقد شنقوه على أعمدة الصحف .. وعلقوه فى قبة البرلمان .. وتسلى الناس بحكايته .. مع الفستق واللب وقمر الدين ـ فى ليالى رمضان الممتدة حتى مطلع الفجر .. نهشوا سمعته .. ذبحوه .. مزقوه .. مضغوه .. ثم قام كل منهم ليتوضأ، ويصلى، وينوى الصيام.

أما هو .. فكان وحيداً تأكله الأحزان .. يبلع سيفاً من نار .. يهدده الإعصار .. يخنقه الغبار والحصار .. لا مفر أمامه إما أن يأكل الزجاج أو يمشى عليه .. إما أن ينتحر بالكلام أو بالصمت .. لا مفر .. فأبواب النجاة مغلقة، ومختومة بالشمع الأحمر.

انكسرت الصورة الملونة التى كان عليها أبو غزالة ـ ورأيتها بنفسى ـ قبل ١٠ سنوات اختفت الملامح والظلال .. وبدت التفاصيل باهتة .. غارقة فى الأسى .. لم يبق من ألوان قوس قزح سوى اللون الرمادى .. لون الغيوم والخريف والدموع التى راح الرجل يشربها فى صمت.

نفذت كمية الوقود فى العروق .. تحول الصاروخ المندفع إلى فضاء المجد، ومدار السلطة إلى دابة .. اكتشف الرجل أنه دفع مهراً غالياً مقابل امرأة من ورق .. ولم يبق فى حياته سوى المشى فى الجنازات .. وقد رأيته فى مأتم شقيق مسئول كبير .. كان شاحباً .. ساكناً .. يتساقط الملح من كلماته العابرة .. فهل كان يعزى أم يتلقى التعزية؟.

وقد تساءلت بينى وبين نفسى .. هل توقع أبو غزالة هذه النهاية؟ .. كيف يحتمل الفضيحة؟ .. كيف ينام؟ .. ثم .. والأهم أين الحقيقة فى زمن الخيانات والعمولات والنفايات؟ .. أين هى فى زمن الإعلام الكاذب والحمل الكاذب؟.

إن أبو غزالة كان أقوى المرشحين لمنصب نائب الرئيس .. وقد سألته منذ سنوات

عن ذلك فقال: «إن من الصعب شغل هذا المنصب الشاغر إلا بعد عمر طويل .. ومرت ١٠ سنوات على هذه الإجابة ـ التى طلب منى الاحتفاظ بها إلى الوقت المناسب ـ دون أن يُعين نائباً للرئيس .. على أن إجابة أبو غزالة كانت توحى بالثقة فى أن هذا المنصب لن يكون من نصيب أى شخص غيره .. ولو بعد حين .. لكن هذه الثقة دخلت غرفة الإنعاش بمجرد أن ترك أبو غزالة وزارة الدفاع .. ثم تبخرت تماماً بعد فضيحة «لوسى آرتين» واستبعاده من منصب مساعد رئيس الجمهورية .. وهو منصب شرفى لا يحظى بقيمة .. وليس له قسم يحلفونه .. وكان أشهر من تولاه ممدوح سالم، وسيد مرعى فى عصر الرئيس الراحل أنور السادات .. ولعل أخطر مهام هذا المنصب .. تصدر جنازات الشخصيات المهمة.

وُصفت «لوسى آرتين» فى استجواب مجلس الشعب بحسناء بيانكى، وهى شاطىء شهير فى منطقة البيطاش بالعجمى، تقضى فيه «لوسى آرتين» الصيف هى وأسرتها.

وقد أفرطت الصحافة فى وصف محاسن «لوسى آرتين»، وقدراتها الخارقة الساحرة .. وأغلب الظن أن الصحافة كانت تنظر إلى نيللى أو لبلبة .. ثم تصفها .. كما أن الصور التى نُشرت لها بالمايوه اضفت عليها المزيد من الخيال والأساطير .. وقد أتاحت لى الصدفة أن أراها عن قرب .. كنت فى الصف الأول لحفل افتتاح مسرحية نيللى الأخيرة «سوق الحلاوة» .. وجاءت أسرة نيللى لتحضر العرض، وكانت بينهم «لوسى آرتين» .. إنها ليست بالصورة المثيرة التى وُصفت بها .. فهى نحيفة .. يمتلىء وجهها بآثار حب الشباب .. متوسطة الجمال .. كل ما يميزها شعرها الناعم الذى يقترب من منتصف ظهرها.

ومن جانبها ترفض «لوسى آرتين» أن تصبح أسطورة .. وترفض كل صورها المثيرة التى خرجت من رحم الإثارة .. وتصر على أنها بريئة .. وانها ضحية .. ضحية الزوج وأسرته والصحافة والبرلمان والكبار .. وهى تفضل أن تقدم نفسها بصورة رسمية .. أى حسب الأوراق الرسمية:

الاسم : لوسى آرتين أفيدسان.

السن : ٣٠ سنة.

المهنة : ربة بيت.

إثبات الشخصية : بطاقة رقم ٨٥٣٧٧ ـ مدنى مصر الجديدة.

محل الإقامة : ٧ شارع الشهيد محمد كمال الدين حسنين ـ ميدان الإسماعيلية ـ مصر الجديدة.

الحالة الإجتماعية : متزوجة من برنانت هواجيم آرتين سرمحجيان، وهو خارج البلاد، وتعيش فى بيت الطاعة مع طفلتيها ناتالى وميلانى، وهو عبارة عن شقة فى الدور الأرضى مكونة من ٤ غرف وصالة .. غرفة لنومها .. وغرفة لنوم طفلتيها .. وغرفة صالون .. وغرفة سفرة .. وعلى باب الشقة يافطة نحاس محفور عليها اسم زوجها وهى مثبتة على الضفة اليسرى.

وقد درست فى مدرسة «نوبريان» .. إحدى مدارس الأرمن فى مصر الجديدة .. لكنها لم تدخل الجامعة .. وإن كانت تجيد الإنجليزية والعربية والأرمينة .. وقد تربت فى بيت أسرتها وهو شقة فى شارع «الأهرام» بمصر الجديدة .. تقيم فيها أمها وجدتها .. والأم قوية الشخصية .. مسيطرة ومتحررة فى آن واحد .. وهى أقل جمالاً وأكثر مرحاً .. تزوجت بالحساب .. وزوجها من ذلك النوع الذى يُوصف بأنه «رجل طيب» وهو فى حاله .. وفضل أن يترك قيادة البيت لزوجته .. وغالباً مالا يتدخل فيما يجرى حوله .. وقد عمل فى الشئون المالية والإدارية فى إحدى شركات الإسكان التى تبنى المساكن لضباط الجيش .. ومن هنا تعرف على المشير أبو غزالة .. وامتدت هذه المعرفة إلى ابنته .. وأغلب الظن أن ذلك كان فى سنة ١٩٨٣.

وبالرغم من الهدوء الظاهر على الأب فإن قلبه لم يتحمل الضغوط، وسقط متعرضاً لأزمة حادة كادت تودى بحياته لولا تدخل طبيب القلب المشهور ـ د. إسماعيل سلام، وكان تدخله العاجل بعد مكالمة من أبو غزالة.

وعندما خرج الأب إلى الحياة مرة أخرى .. من غرفة الرعاية الفائقة .. إزداد إحساسه باللامبالاة .. ووجد أن من الأفضل البقاء خارج البيت وتناول الطعام فى المطاعم.

ويُجمع الجيران على أن لوسى تبهر من يراها، وقد دللتها أمها، حتى أنها ركبت سيارة ملاكى وهى لاتزال طالبة فى الثانوى .. وهى تركب الآن سيارة فاخرة .. ومنذ أن كانت طفلة وأمها حريصة على اناقتها وتحررها .. والمقصود انها تأثرت كثيراً بأمها .. ومشت فى معظم الأحيان وراءها .. وقد سمعت من سيدة أرمنية معروفة فى مجتمع مصر الجديدة أن لوسى أحبت شاباً اسمه بلاتيان .. يملك أبوه محلاً صغيراً للذهب .. لكن الأم رفضت أن تزوجه ابنتها .. وفضلت عليه يرفانت لأنه أكثر ثراء .. واستجابت لوسى .. وبدأ مسلسل من المتاعب انتهى بالفضيحة.

آرتين اسم شائع عند الأرمن مثل شيوع اسم محمد عند المسلمين، ومعنى آرتين حارس العقيدة وقيل أن السيد المسيح نطق به بعد أن هبطت مائدة السماء التى طلبها من الرب .. وهو اسم الأب للوسى واسم الجد لزوجها، أما اسم الأب للزوج فهو هواجيم، وقد وُلد فى تركيا وعندما قامت الحرب الأولى كان عمره ٣ سنوات .. وعندما كبر وبعد أن تعرض الأرمن للاضطهاد سافر إلى اليونان ثم جاء إلى مصر.

وفى مصر عمل كاتب حسابات، ثم فتح دكاناً صغيراً لبيع السجائر والدخان .. حوله بعد ذلك إلى مصنع فى شبرا .. كان ابنه يرفانت شريكه فيه بنسبة ٣٣٪ .. لكن هذه الشركة انفضت بعد أن بدأت المشاكل بين الابن وزوجته .. وخرج يرفانت رسمياً .. حتى لا تؤدى القضايا إلى الحجز على الشركة.

وتقول الأم آراكس طوروس إن المشاكل بين ابنها ولوسى بدأت أثناء فترة الخطوبة .. وقد قلنا له مراراً إنها لا تنفعك .. لكنه لم يسمع الكلام كما أنها سعت بكل الطرق لاستغلال مشاعره ناحيتها، حتى كان الزواج فى ديسمبر ١٩٨٤ .. وقد حضر حفل الزفاف لبلبة، ونيللى، وحسين فهمى، وبدر الدين جمجموم .. وفى ذلك اليوم قالت لوسى: إن شخصية مجيدة ستحضر الفرح وكانت تقصد المشير أبو غزالة لكنه لم يحضر.

ويعترف الأب هواجيم بأن لوسى .. «واصلة» .. وقبل أن تشتعل المشاكل، جعلته يقابل ٤ وزراء بسهولة .. وقد استقبلوه على حد قوله استقبال الملوك .. لكن .. الأمور اختلفت بعد المشاكل .. وقوة الحكومة التى كانت معه انقلبت عليه .. وقيل له: اسمع الكلام .. «الحكومة فى جيبها» .. لكنه قال: ربنا معنا.

أنجب يرفانت ولوسى إبنتهما الأولى ناتالى فى عام ١٩٨٥ .. لكن الطفلة على غير العادة لم تحل المشاكل .. بل ربما زادتها .. وهى فى الغالب مشاكل مادية .. وأحياناً مشاكل عائلية تتعلق برفض لوسى السيطرة أو المحاسبة أو كشف برنامجها لزوجها .. إنها فعلت مع ما تفعله أمها .. لكن موديل الزوج كان هذه المرة مختلفاً .. وعندما جاءت الابنة الثانية ميلانى فى عام ١٩٨٧ .. كانت الخلافات قد وصلت إلى طريق مسدود .. وانحرفت إلى طريق الشرطة والقانون .. وبدأ مسلسل المحاضر والقضايا.

كان أول محضر ضد الزوج وهى لاتزال حامل فى ابنتها ميلانى .. وقد ادعت أنه هجم عليها بسكين يريد أن يقتل الجنين فى بطنها .. وكان رد الزوج: إن الحقيقة عكس ذلك تماماً .. فزوجته كانت تريد إسقاط الجنين .. وطلبت من الطبيب أن يجهضها .. لكن

الطبيب اتصل بزوجها فعرف منه الحقيقة فأبقى على الجنين.

ثم .. كانت هناك محاضر أخرى اتهمت فيها زوجها وأسرته بمحاولات قتلها .. وبضربها والاعتداء عليها .. وفى كل مرة كانت المحاضر تنتهى إلى لاشىء .. وإن أصابت أسرة الزوج بالانزعاج والقلق لأن كل محضر كان يؤدى إلى بقائهم فى قسم الشرطة إلى ما بعد منتصف الليل.

ومن تحرياتى الخاصة عرفت أنها اتصلت بشخصية مهمة فى رئاسة الجمهورية فى ديسمبر ١٩٩١ ، وقدمت نفسها باسم مستعار، ثم كشفت عن اسمها الحقيقى، وقالت أنها مصرية وليست أجنبية، وأنها تعرف المشير معرفة عائلية، وأنه فى مقام عمها، واستطردت: أن والد زوجها ثرى جداً، وهو متهرب من ضرائب استهلاك فى حدود ٣٥ مليون جنيه، وأضافت: «هم دول اللى واكلين خيرات البلد» .. ولم تنس أن تذكر صلاتها بنيللى ولبلبة.

ولم تستطع أن تثبت تهرب حماها من ضرائب الاستهلاك لكنها استطاعت إحياء قضية قديمة خاصة بقوانين سلعة الدخان التى يتعامل فيها وكان قد مر عليها ٣ سنوات .. وقد خسر الإستئناف .. ونفذ حكم السجن .. وظل فى السجن ٣ سنوات حتى حكمت محكمة النقض بالبراءة.

وفى صباح أحد الأيام فوجىء يرفانت بأن سيارته قد تحطمت تماماً وفوجئت شقيقته الصغرى بأن سيارتها قد تحطمت تماماً .. وبنفس الأسلوب .. ففتشا عن لوسى.

والأغرب من ذلك .. أن لوسى سافرت إلى فرنسا بجواز سفر «آنسة» حتى لا تأخذ موافقة الزوج .. وكان معها نيللى ولبلبة .. وتأكدت أسرة الزوج من ذلك .. وطلبت من الداخلية شهادة .. وحصلت عليها .. وحصلت على رقم جواز السفر وهو مستخرج من حدائق القبة .. ولا يمكن التلاعب فى جوازات السفر على هذا النحو إلا بواسطة يد قوية فى أجهزة الأمن .. وقد قدمت أسرة الزوج شكوى إلى وزارة الداخلية، ارفقت بها كافة المستندات .. لكن لا أحد فى الداخلية فحص الشكوى .. وأغلب الظن أن الشكوى وصلت إلى من ساعد على هذا التجاوز!

وفيما بعد فى ١٢ أبريل ١٩٩٣ ، فى المحضر الإدارى رقم ٢٦٤٧ لسنة ١٩٩٣ بقسم مصر الجديدة، اعتبرت لوسى ما قاله لها زوجها فى إنذار أخير بأنها سافرت للخارج وأقامت ستة أشهر هو من قبيل السب والقذف.

س : ما هى الألفاظ التى وُجهت إليك من قبيل السب والقذف؟

جـ : قوله فى الإنذار أننى سافرت إلى سويسرا وأقمت بالخارج مدة تزيد على ستة أشهر .. وهذا كذب ويوحى بأننى امرأة مستهترة، أترك بيتى وأولادى طوال هذه المدة مع أن السفرة التى سافرتها كان يصحبنى فيها ابنتاى ولم تزد عن خمسة أيام.[1]

ولم يسألها النقيب أيمن سمير الذى قام بالمحضر .. وهل أخذت موافقة زوجك على السفر إلى سويسرا لمدة خمسة أيام؟.

ومن الواضح أنها لم تأخذ موافقته.

إنها امرأة قوية.

وهناك دليل آخر على قوتها .. أنها لم تنفذ ـ فى أول الأمر ـ حكم الطاعة الذى كسبه زوجها .. لكنها قبل أن يثبتوا عليها عدم الطاعة .. كسرت باب الشقة ـ حسب رواية آليس هواجيم ـ وأثبتت من خلال شهود ـ حصلت عليهم بمعرفتها ـ أنها كانت موجودة فى بيت الطاعة ولم تخرج.

وهناك دليل ثالث يقول الأب هواجيم وهو يروى قصة لقائه باللواء فادى الحبشى:

ـ فى يوم من الأيام جاء إلى البيت بعض عساكر البوليس وأخذونى إلى مكتب فادى الحبشى .. ووجدت هناك لوسى وأمها وابنى يرفانت والطفلتان وسألنى فادى الحبشى:

س : أنت عاوز تخرب بيت ابنك ليه؟

جـ : أنا طول عمرى بابنى بيوت ولا أخربها.

وطلبت من لوسى أن «تبوس يدى» وتعتذر .. لكنها رفضت ثم راحت تمطرنى بوابل من الشتائم .. فأرسلنا فادى الحبشى إلى سكرتيره الخاص الذى أخذ أقوالنا وحرر لنا محضراً ورجعنا إلى البيت الساعة ثانية صباحاً.[2]

ولم يمر أسبوع حتى كان هناك من يتحرض بيرفانت، ويضربه بشدة، وعاد إلى منزل والده غارقاً فى دمه، يكاد يغمى عليه.

فى تلك الليلة لعن الصدفة التى قادته ذات مساء لنادى الأرمن وقابل هناك لوسى

---

(١) ص ٣ من المحضر .

(٢) المعلومات الخاصة بأسرة هواجيم مصدرها زميلى الصحفى النشط وائل الإبراشى ـ روزاليوسف عدد ٢٩ مارس ١٩٩٣ ـ ص ٦٩ وكان عنوان تقريره الصحفى: «عائلة زوج لوسى آرتين تتحدث».

وأحبها من أول نظرة .. أنه وسيم وأنيق وجذاب وقد أفقده حبها هذه الصفات .. وأصبح غارقاً فى التوتر والقلق والبهدلة .. مطارداً من قوى مجهولة لا يعرف مصدرها .. ويشعر أن زوجته الشابة التى تصغره بحوالى ٩ سنوات تتصرف بجرأة لا تناسب سنها .. وتتعامل بقوة لا يعرف سرها .. إنها ليست الفتاة الرقيقة التى كان عمرها ٢١ سنة عندما تزوجها .. فما الذى جرى؟.

■ ■ ■ ■

فى سنة ١٩٨٧ رفعت لوسى قضية نفقة لها ولطفلتيها ـ الدعوة رقم ٢٨٨ لسنة ٨٧ على مصر الجديدة ـ وحكم لها بنفقة شهرية ٦٠٠ جنيه، ولطفلتيها ٥٠٠ جنيه، وتأييد الحكم فى الاستئناف .. وأصبح على الزوج أن يدفع ١١٠٠ جنيه شهرياً، لكن الحكم لم يعجب لوسى، وكانت ترفض استلام المبلغ، وترده ثانية، وقامت برفع قضية جديدة .. وبواسطة نفوذها فى الداخلية استخرجت أوراقاً من المباحث وضرائب الاستهلاك، وأجرت تحريات أشارت إلى أن زوجها يكسب ٣٦ الف جنيه شهرياً .. وضمت هذه الأوراق إلى ملف القضية رقم ٩١/٨٩/٩ ـ على مصر الجديدة .. وحكمت المحكمة برفع النفقة إلى ٩١٠٠ جنيه شهرياً .. وبأثر رجعى من تاريخ رفع الدعوى الأولى .. وكان على الزوج إما الدفع أو الحبس .. لكنه إختار السفر إلى الخارج .. وكان أمامه إما السفر إلى استراليا حيث تعيش شقيقته «أرمينية» .. أو السفر إلى كندا حيث تعيش شقيقته «أناهيت» .. واختار استراليا.

وفى الأوراق الرسمية تصف لوسى زوجها بأنه هارب ويقيم فى استراليا بلد جنسيته الثانية، ممتنعاً عن تنفيذ حكم النفقة.

وقد سُئلت فى أحد المحاضر والتى تمت بناء على طلبها:

س : هل بينك وبين المذكور سابق خلافات سابقة وما هى طبيعتها؟

جـ : نعم توجد منازعات قضائية عديدة بيننا ويدير هذه المنازعات باسم زوجى الهارب المختفى والده المتجبر ولو كانت عند واحد منهما ذرة من المروءة لما تصرفا معى مثل هذه التصرفات وأنا لم أفعل أى شىء سوى المطالبة بحقى وحقوق ابنتى والمطالبة بالحياة الزوجية الآمنة المستقرة.[٣]

بلغ متجمد النفقة ٤٧٠ ألف جنيه .. فالزوج الهارب .. لا يدفع .. فكان أن قررت لوسى

(٣) ص ٣ من المحضر الإدارى ٢٦٤٧ ـ مصر الجديدة .

رفع دعوى رقم ١٠٩ لسنة ١٩٩٢ على والده ليحل محله فى دفع النفقة وفى ١٦ فبراير ١٩٩٢ حكمت المحكمة لصالحها .. ولأن الحكم كان غيابياً، فقد عارضه الزوج فى شهر مايو واستأنف تحت رقم ٩٢/١٣٢٣ على شمال القاهرة.

قبل أن تحكم المحكمة «الدائرة الثالثة ـ أحوال شخصية ـ شمال القاهرة» بأن يكفل هواجيم ابنه، أرادت لوسى أن تستولى على عقار لزوجها فى مصر الجديدة، مقابل متجمد النفقة .. وسعت بواسطة واحد من محاميها إلى نزع ملكية العقار .. لكنها فوجئت بشقيقة زوجها آليس قد سبقتها بطلب إلى الشهر العقارى لنقل ملكية العقار باسمها بعد أن قدمت عقداً إبتدائياً بالبيع موقع من شقيقها بتاريخ سابق على حكم النفقة.

العقار مكون من ٧ طوابق، وقد سعت بطرق ملتوية، وبمساعدة موظفة فى الشهر العقارى اسمها «فاتن» إلى إسقاط طلب شقيقة زوجها .. وساعدها أيضاً بعض الموظفين فى مكتب البريد الذين عبثوا بإخطارات الشهر العقارى المرسلة إلى آليس هواجيم، حتى تضيع عليها المدة القانونية ولا تستكمل الإجراءات.

لكن .. من سوء حظ لوسى أن موظفة الشهر العقارى قد ظهرت عليها أعراض الثراء المفاجىء، وحامت حولها الشبهات وراحت الرقابة الإدارية تتحرىٰ عنها وتراقب تصرفاتها، ووضعت تليفوناتها تحت المراقبة .. وكان ذلك فى شهر نوفمبر الماضى .. وقد كشفت التحريات والمكالمات عن علاقاتها بإمرأة شابة حسناء تتردد على مكتبها ومنزلها هى لوسى آرتين.

وهكذا .. كان خيط البداية.

وفى حمى التسجيلات كان واضحاً أن الصيد الثمين فى مصيدة التليفونات ليست فاتن .. وإنما لوسى .. ومن ثم أصبح تليفونها تحت المراقبة .. وراحت أجهزة التنصت تصطاد كل يوم شخصية كبيرة .. وهو الأمر الذى لابد أنه أصاب رجال الرقابة الإدارية بالذهول.

كان على رأس هذه الشخصيات المشير أبو غزالة .. وكان قد ترك موقعه الحساس فى وزارة الدفاع، فى ١٦ أبريل ١٩٨٩ .. وأصبح مساعداً لرئيس الجمهورية .. ولا جدال أن سقوط نجم أبو غزالة كوزير قوى للدفاع هو الذى شجع على مواصلة التسجيلات هذه المرة .. إن أجهزة أخرى متنوعة عرفت من قبل العلاقة بين لوسى وأبو غزالة، لكن قوته وسطوته منعتها من مواصلة التحريات .. لكن .. هذه المرة أصبح الأسد عجوزاً، فلا مانع أن تعبث فى أسنانه الثعالب.

لقد جرى الحوار التالى بين لوسى وبينه:[٤]

ـ أنت تعرف المشكلة بينى وبين زوجى .. وقد حصلت على حكم يلزم أباه بدفع النفقة .. لكنه استأنف الحكم .. وهو راجل واصل بفلوسه.

ـ هى قضيتك قدام مين من القضاة؟

ـ أمام قاضى الأحوال الشخصية.

ـ والقاضى ده بلده إيه؟

ـ السويس.

ـ طيب .. عموماً أنا أعرف اللواء تحسين شنن اللى كان محافظ السويس .. وحاكلمه يمكن يعرف حد على معرفة بالقاضى يكلمه ويطلب أن يراعى الله فى قضيتك.

وبعد أيام جرى اتصال آخر بينهما.

وقال أبو غزالة :

ـ أنا كلمت صديقى تحسين المحافظ السابق وقال لى إنه يعرف واحد اسمه مصطفى موظف كبير فى محافظة السويس وبالمصادفة يسكن فى بيته وممكن تروحى تقابليه وتكلميه عشان يكلم القاضى.

وقابلت لوسى الموظف الكبير، الذى قابلها بالقاضى .. الذى قال لها:

ـ اسمعى .. أنا راجل مش مرتشى ولا أجامل أحداً .. لكن تأكدى لو كان ليكى حق فى هذه القضية حتاخديه مهما كان نفوذ خصمك.[٧]

وبعد ثلاثة أيام زارت لوسى القاضى فى المحكمة .. وكان واضحاً أن معرفتهما قد تعمقت .. وأبلغها بأنه أرسل القضية إلى النيابة لإبداء الرأى .. وفى حين أنه من غير المفروض إقامة علاقة بين القاضى وأطراف الدعوى المطروحة أمامه فإن صلة القاضى بلوسى توثقت وتعرفت أسرتها على زوجته .. وفى لقاء بينه وبين لوسى أمام المحكمة شاهد فى يدها سلسلة مفاتيح ذهبية .. فقال لها: السلسلة دى جميلة أوى .. فقالت: شركة الدعاية التى أديرها مع أخى عملت مجموعة من هذه السلاسل لنوزعها كهدايا فى العام الجديد .. اتفضل .. وتركت له السلسلة وركبت سيارتها .. لكن القاضى قذف لها

---

(٤) جريدة «الأهالى» ـ ١٧ مارس ١٩٩٣ ـ ص ٥.

(٧) المصدر السابق .

بالسلسلة قبل أن تتحرك السيارة قائلاً: «شكراً».[٨]

وقدم رئيس النيابة ـ وهو بدرجة قاضى ـ مذكرة فى قضية كفالة الأب .. من خمس صفحات .. جاء فيها أن الحكم بإلزام والد الزوج بدفع النفقة باطل ومخالف للقانون .. كما أن الأب لم يكن ممثلاً فى الدعوى الأصلية وبالتالى لا يجوز إلزامه بالكفالة .. وانتهت المذكرة بقبول الإستئناف وإلغاء الحكم .. لكن .. التدخلات غير المشروعة ادت إلى سحب المذكرة من ملف القضية .. وإخفائها بعيداً عن سير الدعوى .. وقُدمت مذكرة أخرى .. وكذلك كانت هناك حيلة أخرى .. لكن صورة المذكرة الأولى وصلت إلى والد الزوج الذى استخدمها من جانبه للتدليل على اختراق الدائرة القضائية.

■ ■ ■ ■

كان لقب أبو غزالة فى التسجيلات هو «الباشا» .. ولم يكن الوحيد الذى كشفت التسجيلات عن علاقته بلوسى .. كان هناك أيضاً اللواء حلمى الفقى .. واللواء فادى الحبشى .. وتناولت التسجيلات ـ التى تزيد عن ٩ ساعات ـ كذلك اسماء شخصيات أخرى هامة جاءت على لسان لوسى .. وعن طريقهم قدمت خدمات لمعارفها.

أما المفاجأة التى لم تكن متوقعة فهى أن الأوامر كانت قد صدرت ـ بعد أن قام والد الزوج بإيصال استغاثته ـ بالقبض على القاضى ولوسى وكان ذلك فى اليوم السابق على نظر القاضى للدعوى مباشرة بعد وصول مذكرة النيابة الثانية .. حيث قبض عليه وهو فى حالة تلبس مع شريكته فى القضية بإحدى الشقق .. وقدم القاضى استقالته بينما أُدعت شريكته فى سجن القناطر وقد أصيب بذهول وحاول الانتحار دون نتيجة.[٩]

■ ■ ■ ■

ينحنى المصريون إحتراماً وتقديساً للقضاء والقضاة .. إنهم رموز العدالة .. وخط الدفاع الأخير فى مواجهة البطش والظلم .. وهم ورقة التوت .. لو سقطت فإن عورة المجتمع تنكشف .. ورغم العواصف والأنواء التى صاحبت الانقلابات الاقتصادية والاجتماعية الحادة لم تسقط ورقة التوت .. وحافظ الغالبية العظمى من القضاة على توازنهم، فلم يهتز ميزان العدالة فى أيديهم.

---

(٨) المصدر السابق .

(٩) المصدر السابق .

قلة منهم زاغت عيناها .. إنهم لم يحتملوا زهد القاضى واصبحوا بشراً .. من حقهم التجاوز .. والدليل على أنهم قلة .. أن القاضى الذى قُبض عليه متلبساً مع لوسى آرتين عندما أودعوه السجن الخاص بالقضاة وضباط الشرطة فى مزرعة طرة لم يكن هناك سوى إثنين فقط من القضاة .. أحدهما اتهم بالإخلال بواجبات وظيفته .. والآخر يواجه الاتهام بالرشوة حيث كان قاضياً بمحكمة جنح مستأنف الدقى وقد ضُبط متلبساً وقاموا بتصويره وهو يستلم النقود.

وفى تقرير هام عن كيفية عقاب القضاة نشره أسامة سلامة فى روزاليوسف يمكن رصد الحقائق التالية:(٦)

١- ينص قانون السلطة القضائية على حبس القضاة فى أماكن مستقلة بعيداً عن باقى المسجونين حتى لا يصادفه أحد ممن أصدر حكماً سابقاً ضده أثناء وظيفته فيحاول أن يثأر منه.

٢- معظم جرائم القضاة هى الرشوة واستغلال النفوذ ثم المخدرات تعاطياً وإتجاراً .. «ورغم قلة عدد هؤلاء القضاة إلا أن التفتيش القضائي يرفض الإفصاح عن عددهم خوفاً من اهتزاز صورتهم فى أعين المجتمع».

٣- الدعوى الجنائية لا تقام ضد القضاة إلا بعد الرجوع إلى مجلس القضاء الأعلى الإذن برفع الحصانة عنه لإتمام التحقيقات .. وفى حالة التلبس فإن المجلس يبت فى الأمر خلال ٢٤ ساعة.

٤- يحدد المجلس الأعلى للقضاء المحكمة التى يحاكم أمامها القاضى المتهم دون التقيد بالاختصاص المحلى أو مكان حدوث الواقعة.

٥- يظل القاضى المتهم فى منصبه حتى تثبت صحة الاتهام فيقرر المجلس عقابه الذى يندرج من اللوم أو التنبيه حتى العزل والإحالة إلى المعاش كما قد يجبر على تقديم استقالته.

٦- وهناك مجلس للتأديب يحقق مع القضاة الذى يرتكبون جرائم أو يخلون بواجبات وظائفهم - وذلك بخلاف النيابة العامة - ويتكون هذا المجلس من سبعة أعضاء برئاسة رئيس محكمة النقض وعضوية أقدم ثلاثة من رؤساء محكمة النقض

---

(٦) أسامة سلامة : سجون خاصة لحبس القضاة - روزاليوسف : ٢٢ مارس ١٩٩٣، ولعلها المرة الأولى فى الصحافة المصرية التى ينشر فيها مثل هذا التقرير عن القضاة.

بالإضافة إلى عضو من النيابة العامة.

٧ـ ويحاكم القضاة بنصوص قانون العقوبات وبنفس المواد التى يُحاكم بها المواطن العادى كما أنهم يقفون أمام المحاكم العادية وليس لهم محاكم خاصة.

٨ـ وأحياناً يحاكم القضاة بالشبهات فيجبرون على تقديم استقالاتهم إذا حامت حول أحدهم شبهة فعل لا يليق بكرامة القضاة وذلك من أجل الحفاظ على الثوب الأبيض النظيف لهم.

■ ■ ■ ■

قُبض على لوسى آرتين للتحقيق معها على ذمة أكثر من قضية .. القضية رقم «١» حصر المكتب الفنى للنائب العام لسنة ٩٣ والمهتمة فيها بالتوسط لدى قاض ضُبط متلبساً .. والقضية رقم «٢» حصر المكتب الفنى للسنة نفسها والمتهمة فيها بالرشوة وتزوير إخطارات مرسلة من الشهر العقارى إلى مكتب بريد هليوبوليس .. وقد اتهم فى القضية ايضاً موظف بمحافظة السويس واثنان من موظفى البريد وأحد المحامين.

«وبعد أن بدأ التحقيق معها فى دار القضاء العالى وقرر المحقق حبسها ١٥ يوماً، قامت لوسى ومحاميها بمحاولة مثيرة لقلب الموضوع، وإثارة أكبر حجم من الغبار لخلط الأوراق والزج بأسماء أخرى بهدف هدم المعبد على كل من فيه .. ففى أول مارس ٩٣ تقدمت ومحاميها بشكوى من حوالى ٧٧٥ كلمة تزعم فيها أن عضو الرقابة ضربها فى قدمها اليمنى وأن المحقق طرد محاميها .. وأدعت أن البعض طلب منها الزج ببعض أسماء كبيرة فى التحقيقات، كما أدعت أنه جرت محاولات للإيقاع لإغوائها، ولما فشلت هذه المحاولات تم تدبير هذه المؤامرة ضدها».[٩]

وفى التحقيقات بدت فى حالة استهتار ولامبالاة .. وكانت ردودها ساخرة .. فقد قالت:

«الرجالة الكبار اتجننوا .. كلهم وقعوا فى حبى .. دول بيعشوا حالة مراهقة على كبر».

ووصفت أحدهم بأنه «مجنون».

وأضافت: «وأنا ذنبى إيه»؟.

وقد صدر قرار بمنعها من السفر، بعد أن راحت تلقى بالاتهامات بلا حدود .. مما جعل

---

(٩) الأهالى ـ المصدر السابق .

محاميها مرتضى منصور يتراجع عن الدفاع عنها .. وقد قال: إنه بعد أن سمع التسجيلات وجد أنه من غير اللائق أن يستمر فى الدفاع عن المتهمة.(١٠)

فى استراليا لم يصدق يرفانت - الزوج الهارب - ماجرى لزوجته .. لم يصدق كل ما نقلته إليه أسرته عبر الهاتف .. فأرسلوا إليه الصحف والمجلات التى أفرطت فى نشر تفاصيل الفضيحة.

إن يرفانت الآن فى حوالى الأربعين من عمره، وقد تلقى تعليمه فى لندن، وحصل على شهادة عليا فى إدارة الأعمال، وقد كان رد فعله بعد أن قرأ ما نشر فى الصحافة عن زوجته: «أنا حالتى النفسية مرتفعة جداً وأحاول أن أبدأ حياتى من جديد وسيأتى الوقت المناسب الذى أعود فيه إلى مصر لأعيش إلى جوار أسرتى وابنتى ناتالى وميلانى التى لم أرها إلا مرة واحدة».(١١)

أمه أيضاً لم تر حفيدتها ميلانى .. وقد أصيبت بمرض السكر من جراء ما حدث .. كذلك لم تر ناتالى منذ ست سنوات.

أما أبوه فيتمنى عودته من استراليا ليرد اعتباره .. وقد تلقى منه توكيلاً قضائياً فكر بمقتضاه رفع قضية زنا .. لكن يبدو أن محاميه كان له رأى آخر .. فقد أرسل إنذاراً إلى لوسى - وهى فى السجن - على يد محضر بتاريخ الخميس ٨/ ٤/ ٩٣ تسلمته من الموظفة المختصة يقول فيه:

«إن المادة ٥٨ من قانون شريعة الأرمن الأرثوذكس تنص على التزام الزوجة بأن تثبت إقامتها فى المسكن المعين لها كلما طلب منها ذلك فإذا عجزت الزوجة عن الإثبات كان للزوج أن يمتنع عن دفع النفقة وأنه إستناداً إلى هذه المادة فإنه ينبه عليها بسرعة العودة إلى منزل الزوجية وإثبات إقامتها فى مسكن الطاعة خلال أسبوع من تسلمها الإنذار وإلا اعتبرت فى نظره خارجة عن طاعة الزوج فتسقط حقوقها الشرعية».

لقد استغل وجودها فى السجن وتصور أن حبسها سيطول ليتجاوز فترة الإنذار .. لكن لسوء حظه فقد أفرج عنها يوم الأحدد ١١ أبريل ٩٣ بعد يوم واحد من تسلمها الإنذار المكتوب فى ٣ صفحات .. وقد سارعت فى يوم الإثنين ١٢ أبريل ومحاميها فُريد الديب إلى قسم مصر الجديدة لعمل محضر بما جرى.(١٢)

---

(١٠) روزاليوسف - ١٥ مارس ١٩٩٣ .

(١١) وائل الإبراشى - المصدر السابق.

(١٢) المحضر الإدارى رقم ٢٦٤٧ - مصر الجديدة - بتاريخ ١٢/ ٤/ ٩٣

وفى المحضر قالت :

- إنه من الواضح من هذا الإنذار أنه قد تدنى إلى أقصى درجات الاستخفاف والكيد والنكاية.

وأضافت :

- إن زوجى أرسل من استراليا صورة أوراق دعوى تفيد أنه يطلب الطلاق منى، وقد أرسل ورقة تشرح ذلك إلى والدتى أثناء وجودى فى الحبس.

واستطرت :

- إن ما يؤكد العسف أن الإنذار الذى وجهه لى محامى زوجى قد تم إعلانه لى فى سجن النساء بالقناطر أثناء الحبس ولم يكن هناك من يستطيع أن يتكهن بموعد الإفراج عنى .. بل ولم يكن هناك من يستطيع أن يتنبأ بالمدة التى سوف أمضيها داخل السجن .. ومن هنا فإن المهلة التى حددها إنذاره - وهى أسبوع - لهى نوع من اللهو والعبث وبمجرد القذف فى حقى والتشهير بى وسبى بما سطره فى إنذاره وحشاه به دون مبرر بحجة أنه يطلب منى إثبات أننى أقيم فى مسكن الزوجية فى الوقت الذى يعلم فيه أننى محبوسة فعلاً وأننى لا أعرف متى سيفرج عنى .. وقد شاء الله أن يتم الإفراج عنى فى اليوم التالى مباشرة لتاريخ استلامى الفعلى لهذا الإنذار وأن يكون قرار الإفراج بشرط التأكد من محل إقامتى وإثبات أن محل إقامتى هو الشقة الكائنة بالعقار رقم ٧ شارع الشهيد محمد كمال الدين حسنين .. ولذا فإننى أطلب إثبات أننى مقيمة فعلاً مع أبنائى فى هذا العنوان.

وكانت لوسى قد قالت فى بداية المحضر :

جـ : بتدبير من زوجى ووالده وبناء على بلاغ من الأخير تم التحقيق معى بمعرفة مكتب النائب العام وتم حبسى على ذمة التحقيق.

وقالت فى موضوع آخر فى المحضر (ص٣) إنها طلبت أن تتسلم والدتها الإنذار لأنها كانت محبوسة ولا تعرف متى سيفرج عنها .. وقد قدمت صورة من الإنذار .. وهو على ورق أزرق من مكتب المحامى أنس زهرة .. وموجه من الزوج المقيم فى نفس عنوان الزوجية بمصر الجديدة مع أنه خارج البلاد .. فى استراليا.

وقد سُئلت لوسى :

س : وما هو الضرر الواقع عليك؟

جـ : هو ضرر يتمثل فى التشهير بى والقذف فى حقى وسبى بما تضمنه الإنذار من أباطيل وأكاذيب بالزعم كذباً بأنه يجرى التحقيق معى فى أمور تمس الأخلاق والشرف مع أن التحقيقات التى كانت تجرى معى لا علاقة لها بهذه الأمور .. ولا يقصد زوجى من توجيه الإنذار استعمال أى حق مشروع.

ومرفق بالمحضر صورة معاينة قام بها فى اليوم نفسه ملازم أول محمود خليل أثبت فيها وجود لوسى وأمها وجدتها فى شقة الزوجية أو بيت الطاعة.

والمقصود .. أن الخلافات العائلية ـ التى كانت بداية الفضيحة ـ لم تنته ـ رغم كل ما جرى ـ ولن تنتهى بسهولة .. فنحن أمام امرأة قوية .. والمذهل أنها ازدادت قوة بعد السجن والنشر فى الصحف .. فهل انهارت كل الحواجز النفسية بحيث لم يعد يهمها أى شىء آخر؟

لقد استقال أبو غزالة .. وخرج اثنان من كبار رجال الأمن من الخدمة .. وعُزل قاضى .. وتعرضت الحكومة للمساءلة فى مجلس الشعب .. كل ذلك حدث .. لكنه لم يقنع لوسى آرتين بحل مشاكلها العائلية بالطرق الودية .. ولازال المسلسل مستمراً.

■ ■ ■ ■

ولا تتوقف التفاصيل ـ التى لم تنشر من قبل ـ فى هذه القضية الخلصة التى أصبحت قضية رأى عام.

ولعل أبرز هذه التفاصيل أن أبو غزالة ليس له تسجيلات «خارجة» عن الحدود فى التليفونات .. ولا يُحسب عليه سوى مكالمة التدخل لإيجاد وسيط بين لوسى آرتين والقاضى الذى ضُبط فى شقة شقيقها بمساكن شيراتون القريبة من مطار القاهرة .. وكان هذا الوسيط هو مصطفى المغربى الموظف فى محافظة السويس، وجاء القاضى فى المسكن.

وقد رفضت لوسى آرتين ـ بعد القبض عليها ـ أن تركب سيارة الشرطة، وركبت سيارتها الخاصة، ووصلت إلى مبنى نيابة أمن الدولة المجاور لمبنى محكمة مصر الجديدة، وهى لا تعرف ما الذى يجرى بالضبط؟ وكان أول ما طلبته هو الاتصال بأحد رجال النيابة وكانت ـ على ما يبدو ـ قد تعرفت به من قبل، وعندما جاء راح يطمئنها وطلب منها أن تقول ما عندها، وتجيب على أسئلة المحقق هشام سرايا .. وقد فعلت دون أن تسجل الإجابات .. وتركوها لتعود إلى بيتها .. لتنام فيه على أن تعود فى اليوم التالى لتنفذ أشياء

طلَبت منها .. وقد عادت فى اليوم التالى فى الساعة الثامنة مساء، بعد أن تركت بيتها - قبل الموعد بنصف ساعة - بحجة أنها ستذهب لمتابعة قضية النفقة المرفوعة ضد والد زوجها .. وعندما تأخرت اتصلت خالتها لبلبة بمحاميها الذى عرف أن فى الأمر شيئاً آخر، فراح يبحث عنها حتى عثر عليها فى إحدى غرف التحقيق، وأقنعها بعدم تنفيذ ما طلب منها، وفى تلك الليلة صدر قرار النيابة بحبسها على ذمة التحقيق لمدة ١٥ يوماً، وتم تجديده حتى أفرجوا عنها.

ويحظى مدير الأمن العام الأسبق اللواء حلمى الفقى ببعض المكالمات الساخنة فى التسجيلات .. ترصد التسجيلات غضبه من لواء دخل مكتبه وهو مندمج فى مكالمة .. وقد أمره أن يغادر المكتب فوراً ولم يلتفت إلى الإشارة العاجلة التى كان يحملها الضابط الكبير بعد أن أفسد عليه مكالمته.

وحلمى الفقى هو الذى أوصل لوسى آرتين إلى مكتب وزير الداخلية وكان اللواء عبد الحليم موسى، وقد أمر الوزير مدير الأمن العام بسرعة استخراج سلاح لها، ففعل حلمى الفقى ما أمر الوزير به، وقدم الترخيص ومعه طبنجة هدية .. ولا ينافس حلمى الفقى فى التسجيلات سوى فادى الحبشى.

وبسبب هذه القضية خسرت لوسى آرتين حوالى ١٧٠ الف جنيه صرفتها على المحامين، وكانت تضعها فى بنك فى صورة وديعتين.

وقد سألت أحد أطراف القضية فقال :

إنها صراع على امرأة تحول إلى صراع على سلطة!

ولم أستوعب هذه العبارة .. فأبو غزالة ترك منصبه الحساس فى وزارة الدفاع فى أبريل ١٩٨٩، وتسجيلات القضية بدأت فى نوفمبر ١٩٩٢ والفضيحة كانت فى نوفمبر ١٩٩٣ فلماذا جاء العقاب متأخراً؟.

إن السبب المباشر لإقصاء أبو غزالة من وزارة الدفاع أنه - كما قيل كان يتصرف فى أراضى الدولة فى الغردقة دون استشارة أحد .. كذلك فإنه تكاسل عن السفر مع الرئيس فى ذلك الوقت إلى عمان. فكان أن سافر معه محافظ القاهرة يوسف صبرى أبو طالب، وعندما عاد الرئيس إلى القاهرة عيَن أبو طالب وزيراً للدفاع بعد ترقيته إلى رتبة فريق أول .. وعين أبو غزالة مساعداً للرئيس .. وقد بحث البروتوكول عن قسم لمساعد الرئيس ليقسمه أبو غزالة فلم يجد لهذا المنصب قسماً .. لأنه ليس منصباً مؤثراً .. وأقرب للوظائف

الشرفية .. فكان أن دبروا قسماً ليقوله أبو غزالة وسط ذهول الذين لم يصدقوا أن إزاحته يمكن أن تكون بمثل هذه السهولة.

وقد نسي هؤلاء أن الرئيس في مصر هو الرئيس .. وأنه وحده يكفى لتمرير أى قرار مهما بدا خطيراً .. لقد كسب السادات ـ لأنه الرئيس ـ معركته على السلطة مع خصومه الذينَ كانوا يسيطرون على الجيش والإعلام والمخابرات والداخلية والرئاسة والتنظيم السياسى.

لكن ـ هذا المثال الصارخ غاب عن ذهن الجميع وهم يجدون مبارك يُخرج وزير دفاعه القوى فى محيط نفوذه كما تخرج الشعرة من العجين، ليحل محله ضابط متقاعد، ترك الخدمة منذ ١٢ سنة، وكان أن وُصف هذ القرار بأنه أخر قرارات الرئيس مبارك، الذى أثبت ـ على حد تعليق إحدى الصحف العربية ـ أنه اللاعب الأول والأخير فى مجرى السياسة المصرية .. «وأنه سياسى على قدر كبير من الاحترام والمهارة فى إدارة شئون البلاد فى أحلك الظروف».

وقد منح الرئيس قلادة الجمهورية لأبو غزالة وسلمها له فى اكتوبر ١٩٩١، وبهذا الوسام تراجعت فرص النمو أمام أبو غزالة، وبفخيحة لوسى آرتين انعدمت هذه الفرص تماماً.

■ ■ ■ ■

لقد كانت هذه القضية مثل قنبلة انفجرت فى مخزن ذخيرة .. ما إن بدأ الانفجار الأول حتى توالت الانفجارات .. ولعل أحد هذه الانفجارات كان فى منطقة النساء .. وقد عبرت عن ذلك فى مقال نشرته فى مجلة روزاليوسف (١٢أبريل ١٩٩٣) بعنوان «صغار فى مناصب الكبار» جاء فيه:

فات وقت تقديم الحقيقة على طبق من الكريستال .. ولا مفر من تقديمها الآن على طبق من اللحم المحروق بقنابل الإرهاب .. والدم المتجمد ببرودة النساء .. إن الضمائر الحرة، المسئولة لا تستطيع أن تسكت، أو تتستر، أو تكون مهذبة، أو دبلوماسية فى معركة يعرى فيها الفساد الأمة، ويغتصبها فى الشارع العام .. ثم يأتى الإرهاب، ويرجمها بالجنازير والرصاص والحجارة.

إننا نواجه الإرهاب بصدورنا، بينما ظهورنا عارية، مكشوفة أمام خناجر الفساد وطعناته

.. وهى طعنات تأتى من معظم مؤسسات الدولة .. فإذا كان رب البيت بالدف ضارباً فلابد أن تكون شيمة أهل البيت الرقص .. ومن لا يستطيع الرقص فعليه بالقنص.

إن فتاة محدودة الذكاء، معتدلة القوام مثل لوسى آرتين نجحت فى أن تضع كبار رجال الدولة فى حقيبة يدها أو فى حقيبة ثيابها، وجعلتهم مثل «الخاتم» الذى تضعه فى أصغر أصبعها، وعرفت فى السهرات معلومات حساسة، تساوى الكثير .. وقصتها معروفة منذ سنوات .. لكن لا أحد استطاع كشفها أو الاقتراب منها إلا عندما وصل الفساد إلى مداه.

وليست لوسى آرتين قوية وإنما الكبار هم الضعفاء .. الكبار ليسوا كباراً .. إنهم صغار فى مناصب كبيرة.

والمعنى .. أن الاختيار منذ البداية خطأ .. ولا يزال الخطأ سائداً فى معظم مؤسسات الدولة، فنظرية الاختيار لم تقم على الكفاءة، أو الخبرة، أو حتى الثقة وإنما قامت على الانكسار، والضعف، والسيطرة .. فالفاسد منكسر، والمنكسر ضعيف، والضعيف تسهل السيطرة عليه.

وهذه النظرية صاغها الرئيس السابق أنور السادات، وفرضها علينا .. ولاتزال سارية المفعول حتى الآن .. ومع مرور الوقت تحولت النظرية إلى أمر واقع يصعب تغييره فقد تشعبت، وتعقدت شبكة المصالح، وسيطر أنصارها على معظم المواقع الحساسة فى الدولة، ومثل الأخطبوط فرضوا إرادتهم على الجميع.

إننا لسنا فى حاجة إلى أدلة إضافية على استشراء الفساد .. كما أننا لم نعد قادرين على الفرجة والتساهل ومنح أوسمة الغفران . أو قبول ذلك .. فرقة السيد المسيح لم تعد تناسب الوقت الحالى.

لم نعد قادرين على أن يحكمنا حزب أنصار المصالح الذين حولوا المؤسسات والوزارات والقطاع العام إلى مكاسب شخصية.

إنهم حزب الفساد .. وهو حزب شرس .. يبدو مع الحكومة لكنه مستعد للتعامل مع المتطرفين .. فهم مثل فئران السفن .. أول من يهرب عند الخطر أو عند الغرق .. وهم الذين يمنحون المبررات للمتطرفين ليواصلوا عنادهم وتكفيرهم وقتالهم .. إنهم خطر اليوم وغداً.

خطر على برنامج الإصلاح الإقتصادى.

وخطر على سمعة النظام السياسى.

ولا مفر من ضربهم .. إلى جانب مواجهة التطرف والإرهاب .. بل إن ضربهم سيسهل عملية إنهاء الإرهاب .. وسيضيف إلى هذه العملية انصاراً بالملايين هم الأغلبية إما أن تختار الفساد أو الإرهاب .. وهو اختيار صعب إذا لم يكن مستحيلاً.

انتهى أهم ما كتبت.

وقد تدخلت الرقابة الإدارية للتحقيق فى وقائع الفساد التى نشرتها فى المقال .. لكن المشكلة ليست فيما تقدم الرقابة الإدارية، وإنما المشكلة فى الأخذ بما تصل إليه من وقائع ووثائق تدين المسئولين فى الدولة!

والرقابة الإدارية - وهى هيئة تتبع رئيس مجلس الوزراء - هى التى كشفت قضية لوسى آرتين .. واستأذنت النائب العام فى متابعة الموضوع، والقيام بالتسجيلات اللازمة .. وحصلت على إذن بذلك .. وكان الخوف أن تكون هناك مسائل تمس الأمن .. أو السياسة العامة للدولة .. وهذا ما جعل النيابة العامة تدخل طرفاً فى المتابعة بجميع صورها.

وهذا أيضاً ما جعل رئيس الحكومة يقول: «إن الحكومة - من خلال أحد أجهزتها الرقابية - هى التى كشفت القضية .. ومن ثم فإنها لا تتستر ولم تتستر على أى إنحراف أو أى خروج على القانون، وليس هناك شخص فوق المساءلة .. لن نتوانى فى متابعة ومساءلة أى منحرف أياً كان موقعه، وهذه القضية تؤكد هذا .. من الذى قبض عليهم؟ .. من الذى حقق معهم؟ .. كلها أجهزة الدولة» .. ص ٢٨ من مضبطة البرلمان.

لكن يبقى السؤال .. لماذا تكشف الحكومة قضية وتترك عشرات القضايا الأخرى؟ .. لماذا الخيار والفقوس فى اختيار قضايا الفساد؟ .. إن الإستقامة لا تتجزأ .. ولا تخضع لعوامل التعرية السياسية .. ولا تنتظر القرعة.

■ ■ ■ ■

هذه القضية المثيرة كانت السبب المباشر وراء هذا الكتاب الذى يتسلل إلى غرف نوم الحكام، ليروى قصة المتعة والسلطة فى مصر، وفى غيرها.

لكن لم تكن السبب الوحيد.

فأنا من المؤمنين بأن المرأة هى مركز الكون .. وسر الحضارة .. وقانون البقاء والاستمرار .. ولولاها ما أثمرت شجرة .. ولا تفتحت زهرة .. ولا ابتسم طفل .. ولا قويت أمة .. ولو

عاملناها باحترام أصبحت وزيرة .. ولو عاملناها باحتقار أصبحت عاهرة .. ولو فتحنا لها أبواب السلطة استفدنا من قدرتها على التدبير .. ولو أغلقناها فى وجهها، قفزت من نوافذ غرف النوم .. وقدمت المتعة .. وفازت بالسلطة.

وقد ألح هذا الموضوع على عقلى كثيراً .. وعبرت عن ذلك ـ قبل أن تنفجر قنبلة لوسى آرتين بحوالى ثلاثة شهور فى الصفحة الأخيرة من روزاليوسف (عدد ١٨ يناير ١٩٩٣) فقلت:

ـ المرأة الجميلة امرأة قوية .. فالجمال سلطان أو سلطة .. خاصة إذا تدعم بالذكاء والطموح فوراء كل دكتاتور امرأة جذابة، تدفعه إلى التشدد والصرامة ليثبت أنه الأقوى .. حتى لو كانت قوته على غيرها .. على ملايين البشر.

ثم .. استطردت :

ـ إن وراء كل كارثة قومية امرأة حلوة .. ولكن .. من يكتب التاريخ السياسى للجميلات فى بلادنا.(١٣)

فى ذلك الوقت كانت قضية لوسى آرتين تحت التجهيز والتسجيل، وكانت تليفونات اطرافها وابطالها تحت المراقبة .. وعندما كتبت «أن وراء كل كارثة قومية امرأة حلوة» تصور أحد المسئولين اننى أعرف ما يجرى سراً، وأننى بما قلت قد قصدت هذه القضية بالذات!

لكن .. ذلك لم يكن صحيحاً .. وإن كان من الممكن الادعاء بأن الصحفى المهموم بوطنه، المندمج فى متاعبه، القادر على فهم طبيعة العلاقات ـ الخفية والمعلنة ـ التى تحكمه، تجعله ـ أى الصحفى ـ يشم رائحة الخطر قبل الاشتعال .. ورائحة الفضائح قبل أن تنفجر، وتزكم الأنوف.

ربما لهذا السبب سألت محمد حسنين هيكل فى حوار أجريته معه فى الأسبوع الأول من شهر فبراير ١٩٩٣ :

● أستاذ هيكل: إلى أى مدى تعتقد أن المرأة يمكن أن تتدخل فى صنع القرار السياسى؟ .. إن سر حماسى للسؤال .. هيلارى كلينتون .. وما يتردد عن نفوذها ودورها .. وما يقال عن سيطرتها الحديدية على البيت الأبيض؟ .. إنها تحكم زوجها الذى يحكم العالم.

قال :

ـ هذه ليست ظاهرة جديدة .. المرأة تتدخل فى السياسة باستمرار، ومنذ زمن بعيد .. فلا يُذكر تاريخ العباسيين إلا وتذكر زبيدة .. ولا يُذكر تاريخ المماليك إلا وتُذكر شجرة الدر

---

(١٣) كان عنوان المقال «كراكيب المرأة» .

.. وقد لعبت زوجة لينين دوراً بارزاً فى ثورته .. وهناك نماذج أخرى معاصرة .. إن المرأة ليست غائبة عن العمل العام .. وعندما تسمح الظروف بأن تقف تحت الضوء نراها .. وهى تتحرك وتؤثر فى الداخل عندما يكون زوجها فى السلطة .. وليس فى ذلك ما يشين.

ولكن بالنسبة لهيلارى فقد خرجت بدورها إلى العلن .. على عكس الدور الذى قنعت به زوجات رؤساء أمريكا: ترومان وإيزنهاور وكارتر وبوش .. إن أدوارهن كانت بعيدة عن الأضواء .. أما هيلارى فقد أعلنت أنها ليست بحاجة إلى إخفاء دورها، وكل الذى حدث أنها وضعت الدور الخلفى، الخفى ـ الذى كان يُمارس دائماً فى البيْت الأبيض ـ فى ضوء الشمس.

ليس عيباً أن تلعب زوجة الحاكم دوراً فى الحياة العامة .. العيب أن يكون هذا الدور من وراء الستار .. فأخطر شىء فى السياسة أن تمارس المرأة دوراً سياسياً فى نصف الضوء أو نصف العتمة .. لكن .. هذا لا يمنع أننى متوجس من تزايد دور هيلارى كلينتون، فهى من بعيد تبدو لى عنيدة .. ثم إن نفوذها واضح بقسوة فى إختيارات المناصب الكبرى فى إدارة كلينتون .. إننى أتمنى أن تركز جهدها على عملها الرسمى الظاهر، وهو مشكلة تنظيم التأمين الصحى.

● هل زوجة الحاكم الجميلة أكثر خطورة؟

ـ تسأل عن سلطان الجمال.

● وسلطته ؟

ـ الجمال له تأثير آخر .. أشد، بشرط أن يقترن بالذكاء .. فى هذه الحالة سيكون دور زوجة الحاكم أكثر فعالية .. مثلاً جاكلين كيندى نجحت فى مد جسور الود والثقة بين المثقفين والمفكرين وبين البيت الأبيض .. ونجحت فى تحويل مقر الرئاسة فى واشنطن إلى متحف أخذت أعماله الفنية من فائض لوحات متحف للتروبوليتان .. فى مثل هذه الحالة يكون الجمال والأناقة فى صالح المرأة .. لأنها تصبح مقبولة أكثر.

● وسلطة الجمال فى كواليس السلطة؟

ـ الجمال الذى لا يستخدم فى الخير يصبح نقمة .. لعنة .. واستخدامه فى الوصول إلى أغراض ما سياسية فهذه قضية أخرى .. خطيرة .. وخطورتها أنها تمزج بين المرأة والسياسة والعمل الخفى .. وأكثر شىء يخيفنى هو العمل الخفى المتصل بالسياسة .. إذا كان العمل الخفى يتصل بالأمن .. فهو جائز .. لكن عندما يكون فى مجال التحركات السياسية فى الداخل والخارج مباشرة .. فهو كارثة .. لأن العمل الخفى ينبغى أن يكون على هامش العمل السياسى وليس العكس .. والعمل السياسى علاقات وموازين قوى، واتفاقات، واختلافات .. أما العمل الخفى فمؤامرات وطعنات، وابتزاز وفضائح .. وفى

اليوم الذى يتحول فيه العمل الخفى إلى السياسة الخارجية فقل على المجتمعات التى يحدث فيها ذلك السلام .. وللأسف فإن العمل الخفى فى كثير من أمور العالم العربى السياسية قد بدأ يتزايد بجنون ووضوح.

وقد نشرت حوارى مع هيكل على أربعة أسابيع متصلة فى روزاليوسف .. فى الفترة من ١٥ فبراير إلى ٨ مارس ١٩٩٣ .. وهذا الجزء من الحوار نُشر فى الحلقة الأخيرة .. أى فى الأسبوع نفسه الذى انفجرت فيه قضية لوسى آرتين.

■ ■ ■ ■

والمثير للدهشة .. أنه فى الأسبوع نفسه أيضاً .. انفجرت فضيحة أخرى ولكن فى المغرب .. كان بطلها ضابط كبير فى الأمن العام - يسيطر على مباحث الدار البيضاء - اسمه محمد ثابت .. استغل الضابط الكبير نفوذه فى اغتصاب ٥١٨ فتاة خلال عامين .. تم تصويرهن على شرائط فيديو تباع فى أوروبا .. وكسب من وراء ذلك أكثر من مليون دولار كانت فى بيته عند القبض عليه .. وهو متزوج من امراتين .. ويُوصف بالأناقة والرشاقة .. وقد أقسمت زوجته الثانية على أنه كان متديناً.(١٤)

وفى الأسبوع نفسه كذلك .. انفجرت فضيحة ثالثة فى إسرائيل .. تورط فيها رئيس ديوان «الشاباك» .. جهاز الأمن العام .. الذى كان على علاقة خاصة جداً بسكرتيرته .. وكانت هذه السكرتيرة قد قبلت هذه العلاقة نكاية فى زوجها الذى هجرها ليعيش مع فتاة تعمل مراسلة صحفية عسكرية .. ولم تكتف الزوجة السكرتيرة بذلك، بل استغلت نفوذ عشيقها فى الضغط على الفتاة التى خطفت منها زوجها.(١٥)

وفى القاهرة كان مدير الأمن العام، ومفتش المباحث بوزارة الداخلية يتصدران قائمة الشخصيات العامة فى فضيحة لوسى آرتين.

إن أخطر ما فى هذه القضايا أن أبطالها رجال أمن كبار .. مهمتهم محاربة الفساد لا التستر عليه ... الحفاظ على القانون لا تجاوزه .. تنفيذ العدالة لا التحايل عليها .. لكن فتش عن المرأة .. أو فتش عن المتعة التى تشترى السلطة بأرخص الأسعار .. وبدون تمييز.

■ ■ ■ ■

إن المرأة لا تقل قدرة على الحكم من الرجل .. لكن بشرط أن تنال فرصتها .. ومصر أول دولة فى التاريخ حكمتها امرأة الملكة حتشبسوت .. فى العصر الفرعونى .. وفى العصر المملوكى حكمت شجرة الدر البلاد بعد مقتل زوجها الملك نجم الدين أيوب .. ولا

---

(١٤) و (١٥) روزاليوسف - ١٥ مارس ١٩٩٣ .

ننسى سطوة كليوباترا فى العصر الرومانى.

لكن .. لا أمل أن تحكم امرأة مصر الآن .. فى العصر الحديث .. مع أن ذلك حدث فى دول أخرى .. جولدا مائير فى إسرائيل .. أنديرا غاندى فى الهند .. بنازير بوتو فى باكستان .. كورازون أكينو فى الفلبين .. مرجريت تاتشر فى بريطانيا .. وكانت أول امرأة تصل إلى هذا المنصب فى انجلترا منذ ٢٠٠٠ سنة.

على أن هذه النماذج ـ وغيرها ـ تعد «قِلة» فى تاريخ السلطة ـ الطويل والعريض ـ الذى تسيطر عليه «الأغلبية» من الرجال.

إن القوة طوال هذا التاريخ كانت = الرجل.

وقد أوحى الرجل للمرأة بأن السلطة عبء .. وخطر .. ومفسدة .. ولم يقل إنها متعة .. من يتذوقها يفعل المستحيل للحفاظ عليها .. ويشعر بالأسى لو فقدها .. كما أن الرجل لم يتردد فى اتهام المرأة التى تصل إلى السلطة ـ رغم أنفه ـ بأنها مسترجلة .. فمرجريت تاتشر امرأة حديدية .. وأنديرا غاندى رجل الهند القوى .. وجولدا مائير أقل أنوثة من وزير دفاعها موشى ديان .. لقد شهر الرجل بأنوثة المرأة ـ الحاكمة .. وكاد أن يتهمها بالشذوذ .. فى محاولة مستميتة منه لإخراجها من السباق بضربات مؤلمة تحت الحزام .. ولو لم يفعل ذلك فإنه سيخسر السباق، لأنه «لو تساوت المرأة بالرجل فإنها ستصبح أفضل منه» .. والعبارة شهيرة، قالها سوفوكليس.

لذلك يسعى الرجل بكل ما يملك من أساليب إلى أن تصبح السلطة له .. وحده .. وقد نجح فى معظم الأحوال .. لكن .. هذه الأحوال لم تحرم أنواعاً من النساء فى التسلل ـ كالنمل ـ إلى عسل السلطة .. لقد حكمن بالجنس من يحكمون بالسياسة، والمخابرات، والجيش، والبرلمان، والأمن القومى .. إن رحم المرأة الذى حرمها من الدخول من الباب، هو نفسه الذى جعلها تدخل من الشباك .. وأصبح القول للرجل والفعل لها .. أصبح الرجل مجرد واجهة، أو فاترينة عرض.

وعن هذا الطراز من النساء يتحدث هذا الكتاب.

إنه طراز حرمه الرجل من الحصول على السلطة بالانتخاب .. فقرر الحصول عيها بالانخاب!

ويا عزيزى .. كل حاكم يستسلم لهذا النوع من النساء .. فى صحتك!

عــــادل حمـــودة

مصر الجديدة ـ نوفمبر ١٩٩٣

١

الغانية

التى حكمت ثلث العالم بقبلة

لا أحد يعرف مثل هذه المرأة مثلى .

إنها تجيد لعبة الفراش .

وعندما بدأت اللعبة .. أدخلتنى روضة الأطفال .. واختصرت فى شفتيها قصة الأنوثة .. وأعلنت الثورة من سفوح نهديها.

لقد غيرت شرائع الدنيا .. وخريطة الحلال والحرام.

ثم إنها حلت عقدى .. وثقفت جسدى .. ورفعت الحب إلى مرتبة الهلال.

كانت «سرتها مركز الكون .. وعلى محيط خصرها اجتمعت كل العصور .. وراحت الكواكب تدور، وتدور.

وفى لحظات العشق اجتاحتنى كالبركان .. أحرقتنى .. أغرقتنى .. كسرتنى ألف قطعة مثل فازة الكريستال.

هذا الاعتراف الناعم، الذى يدغدغ الأعصاب ليس لشاعر يحترف سرقة النار من عيون النساء مثل صلاح عبد الصبور .. وليس لشاعر وضع المرأة فوق لسانه مثل قطعة شيكولاته بالبندق مثل نزار قبانى .. وإنما لفلاح فقير تحول إلى ثائر .. ثم إلى زعيم .. ثم إلى عاشق مجهول .. هو ماوتسى تونج.

أما المرأة التى سقط فى هواها .. وذاب قلبه بين أصابعها .. وجعلته ينطق شعراً، فهى تشيانج تشينج .. العاهرة الأسطورة التى حكمت أكثر من مليار نسمة ـ فى الصين ـ بقبلة واحدة.

ولدت فى سنة ١٩١٦ .. أصغر من ماو بعشرين سنة .. أسرتها الريفية المعدمة لم تحتمل طعامها .. فباعتها وعمرها ١٥ سنة لتاجر ثرى، اغتصبها فى أول ليلة .. فض براءتها .. سحق طفولتها .. وظل يحتسى نبيذ الأرز الأصفر، ويضاجعها حتى الصباح .. ثم نام مثل شوال من القطن العطن .. لقد دفعت كل الثمن فى ست ساعات .. امتزج فيها الدم بالعرق .. ودخلت الأسنان فى اللحم .. وماتت الرغبة فى الجسد النحيل .. المثير قبل أن تولد.

فى تلك الليلة همست لنفسها فى مرارة:

سلام على الحب .. يوم يعيش .. ويوم يموت .. ويوم يبعث حياً.

ومنذ أن أغتصبت إلى أن ماتت ـ عن ٧٧ سنة ـ لم تعرف طعم اللذة .. لكنها عرفت معنى الجرأة .. والقوة .. والسلطة .. وكان جسدها جسر العبور .. وخاتم سليمان .. ومصباح علاء الدين .. وجواز المرور، وتأشيرة الدخول، وسلم الصعود إلى القمة .. لقد كانت جميلة، ومثيرة .. كانت ساحرة .. وكانت تقول لأى رجل يدخل فراشها وهو يلهث:

«أنا الحاكم بأمر الجنس»!

وكانت تردد وهى لاتزال شابة: أراهن بعمرى أن يقاومنى أى رجل مهما كان!

ويقال إنها دخلت فى سنة واحد ثلاثة آلاف رهان .. وكسبتها!

كان ذلك فى مدينة «شوشان» .. فى بيت من بيوت الدعارة، هربت إليه من عبودية التاجر الثرى .. هذه العبودية التى فرضها على جسدها بلا مقابل .. لقد قررت أن تحترف الدعارة .. أن يصبح لجسدها مقابل .. وكسبت مالاً .. لم تنفقه على الثياب الفاخرة أو الطعام الشهى كعادة العاهرات .. وإنما انفقته على تعلم القراءة والكتابة .. إنها أول امرأة فى التاريخ تحترف العهر من أن أجل أن تدرس التاريخ .. وتفهم الجغرافيا، وتقرأ الشعر وتفك رموز الجبر والكيمياء!

■ ■ ■ ■

وفى التاريخ .. شدتها قصة تيودورا .. الغانية التى أصبحت إمبراطورة روما بعد الميلاد بحوالى ٥٠٠ سنة .. إن تيودورا كانت ابنة حارس الدببة فى السيرك الإمبراطورى .. وقد قدمت جسدها لرجال الدولة .. الكبار .. إنهم أقوياء فى بلاط السلطة .. ضعفاء فى الفراش .. وهى لا تريد نزوة .. تريد قوة .. تحقق بها ثروة فكان أن حولت هؤلاء الكبار إلى درجات السلم، صعدت عليها، حتى وصلت إلى الإمبراطور الذى لم يستغن عنها .. فجعلها

إمبراطورة، وفيما بعد أصبحت اسماً شهيراً فى عالم ماركات التجميل والعطور والثياب.

وكان ذلك من طبائع الأمور لا مرأة قال لها إمبراطور روما فى أول لقاء دبره الشيطان لها: دعينى أبوس مرايا يديك .. وأخذ شيئاً من زاد شفتيك .. فأنا على وشك الرحيل إلى فضاء اللذة.

وقد رحل هو بمفرده إلى ذلك الفضاء .. أما هى فقد بقيت على الأرض لتحكم.

إن البغاء بالنسبة لها كان وسيلة .. لم يكن هدفاً .. أو متعة .. لقد قدمت الجنس فى سبيل الحكم .. على عكس المرأة الشريفة التى تقدم الجنس فى سبيل الزواج، وإنجاب الأطفال، والسفر فى أجازة الصيف إلى شاطىء بعيد على البحر.

■ ■ ■ ■

ومثل تيودورا كثيرات فى كواليس الحكم، وكتب التاريخ .. وقد لفتن نظر واهتمام باحثة إنجليزية، تحمل خمس شهادات علمية عليا، ومحاضرة فى أشهر الجامعات الأوروبية والأمريكية هى د. روزليند مايلز، وهى متخصصة فى شئون المرأة .. ومؤلفة كتاب «المرأة والقوة» الذى نشرته دار «فوتورا» فى لندن سنة ١٩٨٥ .. وفى الكتاب فصل عن «سلطة الغوانى» ترجمته، وعرضته فى روزاليوسف ناديا أبو المجد .. فيه أكثر من معادلة خطيرة تستحق التوقف .. والتأمل:

١ـ حاكم + جنس = فضيحة .

٢ـ غانية × فراش مسئول = سلطة .

٣ـ غانية + سلطة = ديناميت .

إن القوة أو السلطة، حقيقة من حقائق الحياة .. لكنها حقيقة ينكرها، ويرفضها ويقاومها الرجل عندما تسعى إليها المرأة .. فهو يؤمن فى أعماقه بأن السلطة لا تناسبها، وتتعارض مع طبيعتها .. إنه يراها رقيقة، ناعمة، عاطفية، سريعة التأثر والانفعال، تذوب فى كلمات العشق والأغانى، وغير قادرة على تدبير المؤامرات، واحتمال الصراعات .. ومن ثم حرمها من السلطلة طويلاً .. وكان عليها أن تسترد ما فقدته، وتحصل على ما حُرمت منه .. وقد وجدت فى جسدها ورقة رابحة .. وقد لعبت الغانيات بهذه الورقة كثيراً .. وربحن أكثر .. وحسب رأى د. مايلز فإن مدخل الغانية ومنطقها هو: أن عندها عقلاً، وعندها رحماً، وعليها أن تستعملها .. كذلك فإن الرجل ضعيف جداً أمام رغباته .. والرجل الذى فى السلطة ـ مهما كان قوياً ـ أكثر ضعفاً .. لأنه فى حاجة إلى التحرر ـ ولو لبعض الوقت ـ

من قيود الحكم، وحصار الأمن، وعيون الصحافة، ورقابة البرلمان، وتربص المعارضة.

إنه مشدود .. متوتر .. مستعد للإنفجار .. احياناً يلعب الجولف .. واحياناً يلعب الجنس .. واللعبة الأخير لا تصلح لها امرأة من طراز مرجريت تاتشر .. وإنما تصلح لها امرأة من عينة قنبلة الزبد المعروفة باسم مارلين مونرو .. امرأة تدلله .. تدلكه .. تخلع هدومه وهمومه، وتضعه فى البانيو، وترشه بالماء، وتبادله النكات الممنوعة .. أمرأة تُسقط الحواجز، وتلعن البروتوكول وتعامله كرجل لا كحاكم .. وفى هذه اللحظة يصبح محكوماً .. وتصبح هى الحاكم.

من هذا المدخل، تحصل المرأة على فرصتها .. إنها تبادل اللذة بالقوة .. والجنس بالسلطة .. والمتعة بالنفوذ .. وهى أحياناً تريد المال .. لكنها غالباً ما تريد السيطرة .. ولو كانت من طراز تيودورا، أو تشيانج تشينج، فالنجاح يصبح من نصيبها، يكون امراً واقعاً.

لقد حفظت تشيانج تشينج قصة حياة تيودورا .. تقمصت دورها .. وراحت تؤديه أمام المرآة .. وقد قرأت قصتها فى إحدى المجلات الفنية التى كانت تدمنها، وتشتريها قديمة من باعة الأرصفة فى شنغهاى، التى سافرت إليها بحثاً عن فرصة أكثر للنجاح .. إن شنغهاى مدينة المرح والفن والحب والحرام والأفيون والجنون فى الصين .. فيها المسرح والكباريه .. الدعارة والقراءة .. الحرية والصخب .. وفى هذه المدينة التى تمتلىء بالأجانب والغرباء، غيرت تشيانج تشينج اسمها .. أصبح اسمها الجديد لابانج اى .. ومعناه «الطحلب الأزرق» .. وسر هذه التسمية أنها أول عاهرة فى شنغهاى لا تميل إلى اللون الأحمر .. وكانت تستقبل زبائنها بملابس زرقاء .. فى لون البحر والسماء وعيون نساء السويد.

وفى شنغهاى أحبها شاب من نوع خاص .. كان مثقفاً .. متمرداً .. متحرراً .. غاضباً يرفض الكبت والفقر والقهر، ويؤمن بالشيوعية .. ويحلم بتغيير العالم فى ساعة واحدة .. وقد منحته الخبز، والفراش، والقبلات .. وعلمها الفلسفة، وعلم النفس، وقوانين الصراع الطبقى .. وسمعت منه لأول مرة عن هيجل، ونيتشه، وانجلز، وماركس، وداروين، وفرويد .. الذى أعجبها أكثر .. فكل شيء عنده يفسره الجنس .. والكبت واللاشعور .. لقد صاغ نظريته بحلمات النساء، فجاء على هواها .. وسمعت منه لأول مرة أيضاً عن ماوتسى تونج .. الزعيم المتمرد، الرومانسى، الذى يقود الجيش الأحمر، ويتحدث عنه رفاقه بقدسية لا يحظى بها بوذا أو الحكيم كونفيشيوس.

وقد روى لها الشيوعى العاشق ما نزح الهم عن صدرها .. روى صفحات مثيرة من تاريخ الدعارة .. وكيف انتقلت من المعبد إلى السوق .. ومن الكهنة إلى تجار الرقيق .. وكيف تحولت من خدمة الألهة فى الحضارات القديمة إلى تجارة منظمة ومحكمة فى العصر الحديث.

إن الحضارات القديمة كانت تؤمن بأن فض بكارة الفتاة ـ العذراء ـ ليس من حق زوجها، وإنما من حق الأله الذكور أو من ينوب عنهم من كهنة المعابد .. أو حسب ما يقرر هؤلاء الكهنة .. ومن هنا ظهر ما سُمى «البغاء المقدس» فعلى الفتاة أن تذهب إلى المعبد، ولا تعود إلى منزلها حتى يلقى أحد الغرباء قطعة من الفضة فى حجرها، ثم يواقعها داعياً لها أن ترعاها الألهة .. ولا يجوز للفتاة أن ترفض ما ألقى إليها مهما كانت قيمته، ولا أن ترفض الرجل الغريب مهما كان شكله .. فهذا واجبها الدينى .. وهو واجب مقدس . يجب أن تؤديه قبل أن تعود إلى منزلها لتتزوج .. ولو لم يحدث فإنها تظل فى خدمة المعبد.

إن الجنس هنا وسيلة للتطهر والسمو فى حضارات هزتها المتعة .. وقد اكتشف ذلك ـ فيما بعد ـ رئيس المخابرات العامة المصرية الأسبق صلاح نصر فأساء استخدام ما اكتشف .. ويقول محمد حسنين هيكل «كتاب الإنفجار ـ ص ٤٠٢»: (إن صلاح نصر كان شخصية تتنازعها تناقضات داخلية .. وأتذكر أننى رأيته فى الهند سنة ١٩٦٦، وكان ضمن أعضاء الوفد المصرى الذى سافر لاجتماع قمة الدول غير المنحازة فى دلهى، ولكن مهمته الحقيقية هناك كانت للتنسيق بين المخابرات الهندية والمخابرات المصرية، وحدث أثناء هذه الزيارة أن صحبه مدير المخابرات الهندى لزيارة مجموعة معابد «كاجور أو» فى ولاية ماديابرويش، وهى معابد مغلقة للزوار العاديين بسبب ما تحتويه من تماثيل الجنس الفاضح، وكان الجنس فى معابد «كاجور أو» ضمن الطقوس الدينية التى تمهد للرهبنة ـ فترة نسيان للنفس فيه بغية الاكتفاء ـ تؤدى إلى الملل منه برغبة التطهر .. ولكنى سمعت السيد صلاح نصر يتحدث عن زيارته لهذه المعابد بالتركيز على ما رآه فيها، وليس بالفلسفة الكامنة وراءها بصرف النظر عن صحتها! ثم وجدت بعد ذلك ـ أثناء قراءتى لمحاضر التحقيق معه ومع غيره فى وقائع قضية انحراف المخابرات «سنة ١٩٦٧، ١٩٦٨) ـ عبارة: «إن الجنس وسيلة للسمو والتطهر»، تتكرر منسوبة إلى السيد صلاح نصر، وأدركت أن ما رآه فى معابد «كاجور أو» كان أكبر مما يستطيع أن يفهمه، أو يتحمله، وهذه مشكلة كثيرين، تجيئهم السلطة دون أن تصحبها الموازين الثقافية التى تستطيع ترويض نزوع البشر إلى ما يتصورونه من متع الحياة .. إنتهى.

لقد بدأ الاستخدام السياسى للبغاء فى القرون الوسطى .. كانت بعض الحكومات - فى برلين وزيورخ وفينا - تحتفظ ببغايا «مخصصات لحفلات وولائم ضيوفها السياسيين أو كانت تضع فى برامج حفاوتها بهم نظاماً يكفل قضاء شهواتهم مع البغايا».

لكن .. قبل ذلك كان البغاء الاجتماعى.

وأول شبكة دعارة فى التاريخ كونها شخص اسمه «سبولون» أيام الإغريق .. وأشهر اسم لبيت البغاء هو «لابوانار» . وهو مقتبس من كلمة «لابوا» .. وهو اسم أنثى الذئب .. وأول امرأة عُرفت بهذا الإسم هى أم الإمبراطور العظيم «روميلوس» .. وكانت امرأة عاهرة، تقف على أسطح المنازل .. وترفع صوتها بدعوة المارين لممارسة الفحشاء.

■ ■ ■ ■

إن ما سمعته تشيانج تشينج عن الدعارة المقدسة، جعلها لا تشعر بالدنس .. وتخلصت من مشاعر الاحتقار التى كانت تطاردها - فى صورة كابوس - فى نومها .. إنه كابوس الخطيئة الذى تبخر بالوعى والفهم.

فى سنة ١٩٣٨ سقطت شنغهاى فى أيدى اليابانيين، فقررت العاهرة المثقفة، وصديقها الشيوعى، أن يهربا .. وأخذا طريقهما إلى مقاطعة ينيان، وكانت رحلة شاقة .. ركبا فيها كل أنواع المواصلات ما عدا الطائرة .. وسرقا الطعام .. وناما فى حظائر الماشية .. لقد تعلمت فى هذه الرحلة كيف تتحمل الحياة الشاقة .. وهو ما سيفيدها كثيراً فيما بعد.

فى ينيان كان الجيش الأحمر يسيطر على المقاطعة بعد أن أتم مسيرته الطويلة فى الجنوب .. وكان الناس يشعرون بأنهم وُلدوا من جديد .. وأتيح لهم أن ينسوا الماضى .. أو أن يشفوا منه .. وأن يحلموا بمستقبل أكثر طهراً .. لذلك كان من السهل أن تصبح تشيانج تشينج مخرجة، وممثلة مسرحية فى فرقة تسمى «لوهسان» .. وفى حفل افتتاح أولى مسرحياتها كان يجلس فى الصف الأول لين بياو .. أحد مساعدى ماو الذى كان من المتوقع أن يصبح خليفته .. لولا أن بياو تآمر على قتل ماو، وحاول الاستيلاء على السلطة، وفشل، ثم انفجرت طائرته أثناء هروبه إلى الاتحاد السوفيتى فى سبتمبر ١٩٧١.

بعد أن انتهى عرض الافتتاح كانت تشيانج تشينج فى فراش لين بياو .. وقد تذوقها فى

غرور، لكنه لم يخف استمتاعه بما يتذوق، وقال عبارة أصبحت شهيرة: إننى لم أذق طعم الكريز من قبل، لكننى الآن عرفت ما هو الكريز.

وإلى أن قتل لين بياو لم ير فى الدنيا امرأة سواها .. ويقال أنها بين الحين والآخر كانت تمنحه بعض حبات الكريز المتساقط منها ليظل يلهث خلفها مثل دب فى صحراء تحت شمس خط الاستواء الحارقة.

■ ■ ■ ■

بعد أسابيع قليلة رآها ماوتسى تونج .. كان يجلس فى نفس المقعد ويشاهد نفس العرض .. ووقع فى هواها هو أيضاً .. من أول نظرة .. وأحس برغبة عارمة فى تذوق الكريز.

كان عمره ٤٥ سنة .. وكانت النيران فى عروقه قد هدأت بعض الشىء .. جعلته الثورة يكف عن الرحيل فى قطار الجنون بحثاً عن محطة - تقف فيها امرأة - لينزل .. لكنه لم يكف عن الحلم بامرأة تعيد إليه الحماس والدهشة قبل أن يدخل فصل الغياب .. امرأة تذكره بأيام المطر .. ورائحة العرق .. وتساعده من جديد على تسلق الصوارى، بعينيه قال: أحبك.

لكن .. بلسانه أضاف: ليس لدينا سوى الحلم وربما الوهم .. ليس لدينا كلام جميل، والمفردات، ولا شفاه، ولا شطيرة خبز، ولا حفنة أرز، ولا قميص من الصوف نلبسه فى الشتاء .. إننا فى الشتات .. نسافر ضد البلاد، والقوانين، والاستقرار، والموت .. نحن ثوار.

كان يحاول أن يستعيد شكل الأنوثة فيها .. أما هى فقد أيقنت انه لن يستغنى عنها .. وأنها أجمل النساء، وأجمل الأغنيات .. وانه سيقرأ على جسدها كتاب المتعة .. وأنها ستقرأ على جسده كتاب القوة.

وتزوجا .. لكن بشروط لا شك أنها كانت صارمة .. أن تدرس الماركسية .. ألا تخرج من البيت .. أن تنسى ماضيها الأسود .. وأن تغير اسمها من لابنج إلى تشيانج تشينج .. أى من الطلحب الأزرق إلى النهر الأزرق.

وقد فرض هذه الشروط رفاق ماو الذين لم يتصوروا أنها يمكن أن تكون زوجته الجديدة .. لكنهم أحسوا بقلبه ينتفض مثل عصفور فقد أمه .. فوافقوا على الزواج بهذه الشروط .. التى استسلمت لها، راضخة، غاضبة .. فى انتظار انقلاب الأمور إلى صالحها.

كانت تقول أنها مجرد محظية.

وكانت تعيش فى قصر يُسمى: «المحظية العطرة» .. وهو لقب فازت به أميرة تركية خطفت قلب الإمبراطور الصينى شين لونج، فترك شئون الحكم وتفرغ لها، وكاد أن يفقد عرشه بسببها لولا أن تدخلت أمه وخنقتها حتى الموت .. وأعادت ابنها إلى السلطة.

فى أوائل الستينات بدأت صحة ماو فى التدهور .. ولم يعد يظهر إلا قليلاً .. وأصيب بداء العزلة بعد أن تعرض لأكثر من محاولة اغتيال وكان ذلك كله لصالح المرأة التى أصبحت ممرضة وحارسة .. و .. «رئيس حكومة غرفة نومه».

لا أحد يدخل عليه إلا إذا رضيت .. ولا أحد يقابله إلا إذا وافقت .. ولا يوقع ورقة إلا إذا قرأتها .. وباركت ما فيها .. وهكذا تركزت السلطة فى يدها .. لكنها كانت سلطة خفية .. فى الظلام .. وهى تريدها فى النور .. وسط الجماهير .. وسط هتافات الناس.

وفى لحظة ضعف، يصعب تحديد أسبابها، وقع ماو على قرار تعيينها فى المكتب السياسى .. أعلى سلطة فى البلاد .. أعلى سلطة فى البلاد .. كان ذلك فى ٣ أغسطس ١٩٦٦، وبعد أسبوعين كانت أقوى أعضاء المكتب السياسى، حيث وقفت على منصة فى ميدان «تيان» وسط مليون شاب من الحرس الأحمر لتعلن قيام الثورة الثقافية .. ورددت معهم الهتاف بحياة ماو .. وبسقوط الروس، والأمريكان، وقيادات الحرس القديم فى الصين .. إنه القيادات التى أذلوها .. واحتقروها .. وحان الوقت للإنتقام منهم .. وقد فعلت.

لقد قادت ما عُرف فيما بعد بعصابة الأربعة .. وقُدمت إلى المحاكمة بعد وفاة ماو .. فى سبتمبر ١٩٧٦ .. أى بعد ١٠ سنوات حكمت فيها ثلث العالم تقريباً .. ودخلت السجن .. وأصيبت بسرطان الحلق، وأصيبت باليأس والاكتئاب .. وذات صباح فى يونيو ١٩٩١ انتحرت.

أغرب الموت ـ على ما يبدو ـ بما تبقى من وسائل الإغراء .. فجاء إليها قبل الميعاد .. ولا نستطيع ـ بالطبع ـ أن نعرف طبيعة الصفقة التى عقدتها معه .. لكن .. المؤكد ـ مع امرأة من هذا الطراز ـ أن هناك صفقة .. وأنها هى التى سعت إليها .. وأنها هى التى استفادت منها .. والدليل .. أننا كتبنا عنها .. بعد أن تحولت من عافرة إلى أسطورة!

٢

بنت الشيخ البكرى
فى فراش نابليون

سيطر على دول وشعوب وجيوش وأحلام وحكام، وفشل غزو قلبها، وعجز عن رفع راياته على تضاريس جسدها .. إنها أشهر هزائمه .. وقد تمنى أن يخسر الدنيا ويكسبها .. تمنى أن تحبه مثل الزلزال، أو الصاعقة، أو الموت الذى لا ينتظر .. لكنها لم تستطع أن تحبه .. لم تستطع أن تسقط مطراً على عطشه .. أو أن يطرح جسدها فاكهة تسد حرمانه .. إن حبها له لم يأت .. بل لم يُولد.

إنها چوزفين بوهارفيه .. المومس غير الفاضلة .. التى تركت زوجها نابليون لوى بونابرت يصبغ مجده بالدم والعرق، والرصاص والحديد المنصهر، بينما هى غارقة فى اللذة .. تمارسها مع عشاقها مقابل المال، والثياب، والقصور .. والسخرية من الزوج الطموح الذى يريد أن يضع العالم فى جيبه.

لقد كذب نابليون عندما قال جملته الشهيرة: «إن كلمة مستحيل لا جود لها فى قاموسه» .. فقد كان مستحيلاً أن يقنع عاهرة محترفة تكبره بست سنوات بأنه رجلها .. ولو بالزواج .. وقد اعترف بذلك وكتب لها يقول:

«إنك دمرتنى تدميراً، وقد أيقنت انك فعلت هذا فى اللحظة التى خضع فيها قلبى لك .. فى اللحظة التى بدأت فيها تفرضين على يوماً بعد يوم سلطاناً لاحد له على حواسى كلها».

كانت چوزفين المرأة الأولى فى حياته .. لم يعرف طعم المرأة قبلها .. وقد حاول وفشل .. وكان الشيطان يخاصمه إذا ما اجتمع بامرأة فى مكان خاص .. كانت الفلسفة ثالثهما .. وكان لسانه هو الشىء الوحيد الذى ينطق .. وقد روت امرأة التقطها من حدائق «الباليه

رويال» إنه صحبها إلى بيته «لمجرد إلقاء محاضرة عليها» .. وفى هذه المحاضرة ـ المثيرة للدهشة ـ قال جملة لا تناسب الموقف:

«أعتقد أن الحب ضار بالمجتمع وبسعادة الفرد» منتهى الفشل.

لكنه .. فسر فيما بعد عقدته من المرأة قائلاً: «إن محاولة المرء أن يجعل نفسه محبوب النساء تستغرق وقتاً» .. أما أسباب هذه العقدة فهى أنه كان رجلاً قصير القامة .. شاحب اللون .. رقيق البدن .. تبدو قبعته وحذاؤه أوسع مما يناسبه .. كان وجهه مثل النسر الذى وضعوا فوق رأسه شعر كلب .. ولم يتسطع أن يتجاوز ـ رغم نجاحه المبكر ـ كل هذه المتاعب النفسية .. فالفوز بامرأة أصعب أحياناً من الفوز بإمبراطورية .. والانتصار فى الحرب ربما يكون أسهل من الانتصار فى الحب.

بل .. إن حالة نابليون كان الانتصار فى الحرب تعويضاً عن هزيمته فى الحب .. ولو أنه وجد المرأة التى تشعره بالزهو كرجل لبقى إلى جوارها، ولبدت البلاد البعيدة التى غزاها، مغامرة سخيفة لا تساوى كلمة إعجاب واحد يسمعها فى الفراش.

■ ■ ■ ■

كانت جوزفين امرأة فى الثلاثين .. جسدها أكثر شباباً من وجهها .. جسد ممشوق .. طويل الأطراف .. نحيل .. لدن .. مثير .. يحتاج الرجل أن يتأمله كثيراً قبل أن يلمسه .. إنه يغرى أشد الرجال جهلاً بالفن أن يصبح رساماً .. نحاتاً .. ليحول ما يراه إلى عمل خالد قبل أن يتدخل الزمن ويفسده .. وهو جسد يعرف كل أشكال الحرية .. قيوده ذهبية .. ولا خيل يهرب بها بعيداً ولا أوصاف سحرية.

وقد سافر نابليون فى هذا كالرمح المسافر فى اللحم .. ذاب مثل فص الملح فى المحيط .. أحس بأنه مثل قطعة «حشيش» تحولت إلى دخان أزرق بمجرد لمسها .. إن جسده غير المهذب دخل المدرسة .. مدرسة تتحرك برشاقة، وأنوثة، وأناقة، وأرستقراطية، وشهوانية مرهفة .. فكان أن أحبها من أول متعة .. ولم يحب غيرها إلى أن مات وحيداً، منفياً .. أما هى فلم تستطع أن تحبه وإن تظاهرت بذلك.

إنها كانت خليلة لكبار رجال الدولة فى فرنسا، وأدركت أنها على وشك أن تصبح فى عرض الطريق، وخشيت مستقبلاً يعيدها إلى الفقر والقاع الذى صعدت منه .. فكان أن استقر رأيها على أن الجنرال بونابرت أمامه مستقبل مشرق على الرغم من مظهره المخيف نوعاً ما .. فتزوجته قبيل رحيله إلى إيطاليا لتولى قيادة الجيش هناك

.. واضاف بونابرت ـ فى شهادة الزواج ـ عامين إلى عمره .. وحذفت هى ـ ثلاثة أعوام من عمرها!

وتوقع أن تلحق به .. لكنها وجدت معيناً لا ينضب من الأعذار .. وبينما كان ينتصر فى المعركة تلو المعركة .. ويبعث إليها بنشرات انتصاراته التى يخرج منها رنين الفخر، والتى جعلت منه بطلاً لأوروبا .. مضت هى فى اللهو والعبث بصحبة الشبان الحسان الوجوه.

وفى ميلان كتب لها يقول: «إنى أحبك أكثر من كل شىء يتصوره العقل .. إننى لا أقضى ساعة دون أن أفكر فيك .. ولم يخطر لى أبداً أن أفكر فى امرأة أخرى .. فقوتى لك .. وروحى فى بدنك .. والأرض لا تبدو جميلة فى عينى إلا لأنك تسكنينها .. ألف قبلة على عينيك، وعلى شفتيك، وعلى لسانك، وعلى .... ويزعم ناشر هذه الرسائل أن الكلمة المحذوفة مطموسة.

وفى كتابه الممتع «بونابرت فى مصر» يقول «كريستوفر هيرولد»: إن چوزفين قرأت هذا الخطاب الغرامى الساخن وهى عارية فى الفراش .. على يمينها آخر عشاقها أيبوليت شارل .. وعلى يسارها كلبها فورتنيه الذى عض نابليون مرة فى ساقه وهو يغازلها .. وقد انفجرت چوزفين فى نوبة من السخرية .. وقالت: «إنه رجل مضحك هذا البونابرت» .. ثم .. مالت على شارل لتقبله وهى تغمز بعينها لفورتنيه الذى هز ذيله فى سعادة .. وقفز من الفراش.

وقد اضطرت چوزفين أن تلحق بنابليون فى إيطاليا بعد أن هددها بالاستقالة من الجيش والعودة إلى فرنسا .. لكنها أخذت معها العشيق والكلب .. ونجحت فى إقناع نابليون بأنه الرجل الوحيد القادر عليها .. وقد أسعده ذلك كثيراً .. إنها لعبة القائد والعاهرة . وهى لعبة شهيرة فى كواليس السلطة .. حيث يستسلم من فى السلطة لشعور النشوة بأنهم الأقوى فى السياسة .. وفى الجنس .. وهم يشعرون بقوتهم السياسية بالنفاق والإعلام الكاذب .. ويشعرون بقوتهم الجنسية فى العهر المحترف .. ولا فرق.

وفقد نابليون صوابه .. كان يتردد بين الحرب والحب .. بين الميدان والفراش .. لكن .. ذلك لم يزد على الأسبوع .. فقد عاد ذات مرة فلم يجدها .. سافرت ولم تودعه أو تخبره .. فكتب إليها يقول: «هأنذا اندفع إليك بعد أن تركت كل شىء لأراك، وأضمك بين ذراعى...... ولكنك كنت قد رحلت .. فأنت تجرين وراء اللهو .. وتبعدين حين أقرب إليك .. إنك لم تعودى تبالين بنابليونك العزيز .. لقد أجبتك لنزوة طارئة ..

وعدم الوفاء يجعلك لا تكثرين به».

ثم .. «إنني أنا الذى ألفت الخطر، أشعر بتعاسة لا حصر لها، وكان من حقى ألا أتوقعها» .. لكنه لم يقتلها .. ولم يطلقها .. ولم يتردد فى الإنفاق عليها، وتسديد ديونها .. وإن قرر أن يعاملها بالمثل، ويخونها .. وكتب إلى شقيقه چوزيف: «لم يبق لى إلا أن أصبح أنانياً بكل ما فى الكلمة من معنى».

لقد تغير البطل النحيل المثالى، والرومانسى إلى طاغية، بدين، وساخر .. وانقلب الضابط إلى شهريار .. تحول الشاب الطموح، والعاشق الغيور إلى رجل يجلب قواده النساء الحسان إلى فراشه ليسحقهن كما يسحق الجيوش بعد أن يفرغ من إملاء رسائله».

وحدث هذا التغيير فى مصر.

كانت الفترة التى قضاها نابليون فى مصر أجمل فترات حياته لأنها على حد قوله ـ كانت أحفلها بالأحلام .. ففى مصر وجدت نفسى وقد تحررت من قيود حضارة مزعجة .. كانت الأحلام تملأ رأسى .. ورأيتنى ـ فى هذه الأحلام ـ أؤسس دنيا، وأزحف على آسيا وأنا أمتطى فيلاً وعلى رأسى عمامة وفى يدى إلكتاب المقدس الذى كنت سأؤلفه ليلائم حاجاتى .. وكنت سأجمع فى مشروعاتى بين خبرات العالمين .. وأسخر لمنفعتى مسرح التاريخ كله.

- لقد فجرت مصر أحلام بونابرت وحواسه.

■ ■ ■ ■

ترك نابليون بيته فى شارع شانترين (طريق النصر فيما بعد) وهو يشعر بأنه لن يعود .. كان البيت أشبه بمخدع عاهرة .. وكانت چوزفين تريد أن تشترى بدلاً منه قصر «لامالميزون» .. ولم يكن فى طاقتها دفع ثمنه فدفعت زوجها للحملة على مصر ليقدر على الثمن .. وفى الوقت نفسه يتيح لها غيابه البعيد التمتع بصحبة عشيقها .. إنها إصابة لعصفورين بحجر واحد .. وقد رفضت أن تدخل فراشه قبل السفر .. ووعدته بذلك فى القصر الجديد إذا استطاع أن يشتريه.

إن الحملة الفرنسية على مصر كانت بالنسبة لچوزفين مثل عقد عمل حصل عليه زوجها فى الخارج ليشترى لها ما تريد .. والمقصود .. أن التاريخ لا تصنعه الأفكار العظيمة دائماً ... وقد تصنعه مطالب الزوجات أحياناً.

وبالأرقام .. تكلف حلم چوزفين .. حملة عسكرية، شرسة على مصر، ضمت ١٣ بارجة، و١٠٢٦ مدفعاً و٤٢ فرقاطة و١٣٠ ناقلة، و١٧ ألف جندى، و١٠٠ ألف قطعة ذخيرة، و٥٦٧ عربة، و٧٠٠ حصان، وكان ثمن ذلك كله ثلاثة ملايين فرنك ذهباً.

وفى الإسكندرية لخص نابليون انطباعه العام على مصر فى عبارة يمكن الجزم بأنها عبارة خالدة، تنطبق على مصر فى كل العصور .. قال: «إن مصر أكثر البلاد ثراء، وأشد الشعوب بؤساً .. باختصار .. أغنى بلد وأفقر شعب».

منتهى الصدق .. والواقعية.

وأصبحت مصر فى قبضة نابليون .. دانت له .. لكنه لم يشعر بالفرح .. بل أحس بالاكتئاب .. وكتب إلى أخيه چوزيف يقول: «إننى أعانى كثيراً من خيبة الأمل فى بيتى، فقد تكشف لى المستور تماماً .. ولم يبق لى فى الدنيا بأسرها سواك .. ومن المحزن أن يركز المرء كل مشاعره فى شخص واحد، وفى قلب واحد .. وأنت تفهم ما أعنى» .. ولو كان الخطاب وصل إلى چوزيف لفهم ما يعنيه تمام الفهم .. فالذى تكشف له تماماً هو خيانات زوجته .. ربما بأنباء باح له بها ياوره «چونو» على أن الخطاب لم يصل قط إلى چوزيف لأن البريطانيين استولوا عليه فى الطريق.

ويضيف الخطاب: «لا يفوتك أن تجد لى بيتاً فى الريف قبل عودتى، فلقد سئمت بنى الإنسان، وما أحوجنى إلى الوحدة والعزلة .. إن العظمة تبعث فى الملل .. ولقد جف معين عواطفى .. ما أتفه المجد إذا كان المرء فى التاسعة والعشرين، لقد استنفدت كل شىء ولم يبق إلا أن أصبح أنانياً مغرقاً فى الأنانية».

على أننى أجده يتحدث بنغمة مختلفة تماماً فى خطاباته الغرامية الحارقة التى أرسلها إلى چوزفين من مصر فى ذلك الوقت .. ففى خطابه المؤرخ ٢٨ نوفمبر ١٧٩٩ يصفها بالحبيبة الغالية .. ويندب حظه الذى كتب عليهما أن يحترقا بنار الشوق والبعاد .. فكلما حلمنا باللقاء، وقف القدر ليلقى بكل منا فى مكان بعيد .. إن الشوق يشدنى إليك والواجب الوطنى يبعدنى عنك وأنا ضائع بين شوقى وواجبى».

وبعد أن يشرح ما فعله فى مصر يستطرد:

«لا أستطيع أن شرح لك كل ما يجول فى خاطرى ولكننى أستطيع أن أقول لك ياچوزفين إن الحر الشديد الذى يلهب الصحراء هنا ليس بأقوى ولا هو بأشد من هذه النار المحرقة التى تلهب قلبى».

إنه بالفعل يعبدها ويلعنها.

كانت چوزفين مثل غصن البان هشة .. مثل «الجاتوه» .. وقد تعود نابليون على هذا المذاق من الحلوى .. فلم يستسغ حلوى «سد الحنك» المصرية التى قدمها له - عقب وصوله إلى القاهرة - أصدقاؤه من الشيوخ فى صورة ست نساء شرقيات، بدينات مثل أشجار الجميز تفوح منهن رائحة الحلبة .. وقد صرفهن دون أن يمس واحدة .. وكان أن أحس المصريون بأنه رجل جاهل بالنساء .. وعاجز عن التعامل معهن .. فاتهموه بالشذوذ وفقدوا احترامهم له .. فالجنس يحدد مكانة الرجل فى مجتمعه.

لكن .. نابليون مال أكثر إلى فتاة مصرية عمرها ١٦ سنة .. هى زينب إبنة الشيخ البكرى .. كانت النسخة المصرية الشابة من چوزفين .. جسداً مثل عود النعناع الأخضر .. حياء فى لون القمح يشتعل فى الظلام من شدة الرغبة .. وإيماناً تاريخياً بأن الرجل هو الفرعون المقدس الذى تمنحه المرأة الطاعة حتى فى المعصية .. وقد اغمض الشيخ البكرى عينيه، وسد أذنيه، وراح - وهو يحتسى البرندى الفرنسى كل ليلة - يحلم بأن يصبح حما نابليون .. السلطان الأكبر .. كما انه كان مشغولاً بمعركة شرسة مع اغا الإنكشارية على غلام جميل من المماليك، أطلقوا عليه «هيلانة».

وعندما اضطر الفرنسيون للجلاء عن مصر فى سنة ١٨٠١ أراد غلاة المؤمنين معاقبة النساء اللاتى «عاشرن الكفار» .. وكانت زينب البكرى إحدى ضحاياهم .. وقد عرفت فى أيام عزها بفتاة القائد المصرية .. ولابد أن صلتها ببونابرت كانت قصيرة المدى .. وكذلك كانت حياتها .. يقول الجبرتى: «وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه، طلبت ابنة الشيخ البكرى، وكانت ممن تبرج مع الفرنسيين، بمعينين من طرف الوزير، فحضروا إلى دار أمها بالجودرية بعد المغرب، وأحضروها ووالدها، فسألوها عما كانت تفعله، فقالت: إنى تبت من ذلك، فقالوا لوالدها: ما تقول انت؟ فقال: أقول إنى برىء منها .. فكسروا رقبتها».

■ ■ ■ ■

لقد غير الفرنسيون من عادات المصريين المحافظة .. جاءوا بحوالى ٣٠٠ امرأة أكثرهن تسلل إلى السفن الحربية .. ولكن الحسان القليلات منهن كن إما مراهقات، وإما حكراً على البعض .. وكانت البغايا من المصريات كثيرات .. رخيصات، ولكنهن - فى الغالب - كن غير مغريات، قبيحات، مصابات بالأمراض .. وقد أدى ذلك إلى تفشى الزهرى والسيلان بين جنود الحملة .. فكتب الجنرال ديجا - حاكم القاهرة - إلى بونابرت فى عام ١٧٩٩ يقول: «البغايا وراء تفشى الوباء فى مساكن الفرنسيين ولابد من إغراق من يقبض

عليهن فى الثكنات» .. وكان تعقيب بونابرت على الهامش: «كلف اغا (الانكشارية) بهذه المهمة» .. وقد نفذ الأغا المهمة فقطع رؤوس ٤٠٠ مومس ووضـع الجثث فى غرائر وخاطها وألقاها فى النيل.

أما كبار ضباط الحملة فقد حلوا مشكلتهم دون أن يبذلوا جهداً يذكر .. كتب أحدهم لصديقه يقول: «لقد ترك لنا الأمراء المماليك بعض النسوة الأرمنيات، والكرجيات اللطيفات اللائى استولينا عليهن لصالح الأمة».

ويقول الجبرتى: إن الجوارى السود كن أشد رغبة واستعداداً حتى من الأرمنيات أو الكرجيات .. «إن الجوارى السود لما علمن رغبة الفرنسيين فى مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجاً، فنططن الحيطان، وتسلقن إليهم من الطبقان، ودلوهم على مخبآت أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك».

وقد جر ولع الفرنسيين بالنساء استهتاراً واضحاً بالآداب العامة سببه ـ كما يقول الجبرتى ـ الحرية المفرطة «التى أباحوها لنسائهم» .. ويستطرد الجبرتى: أنه لم حضر الفرنسيين إلى مصر مع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى، والمزركشات المصبوغة، ويركبن الخيول والحمير، ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم، وحرافيش العامة، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن، وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض الاحتشام، وخشية العار، ومبالغة فى إخفائه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيين بولاق وفتكوا بأهلها، وغنموا أموالها، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم فزينوهن بزى نسائهم وأجروهن على طريقتهم فى كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياة بالكلية، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات فى حوزة الفرنسيين ومن والاهم، وشدة رغبتهم فى النساء، وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ـ ولو شتمته أو ضربته ـ فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار واستملن نظراءهن، واختلسن عقولهن، لميل النفوس إلى الشهوات، وخصوصاً عقول القاصرات.

على أن ذلك كله لا ينفى أن «الفرنسيين» هم الذين أيقظوا المصريين وأخذوا بأيديهم إلى العصر الحديث.

لقد جاءوا بالعلماء، والمطبعة، وقرص الدواء، والقوانين، والمدارس، ونظم الإدارة الحديثة.

■ ■ ■ ■

من بين الفرنسيات اللائى تسللن إلى سفن الحملة، كانت امرأة أكثر أنوثة من حفيدتها بريچيت باردو .. عيناها زرقاوان يبحر فيهما العشاق حتى الغرق .. أهدابها طويلة سوداء .. شعرها ذهبى يغطيها كالعباءة حين ينسدل .. أنها بولين فوريه .. إبنة غير شرعية لأب مجهول، وطاهية فقيرة فى مطعم فى الحى اللاتينى .. بمجرد أن نضجت نزلت للعمل بائعة فى محل قبعات، وقد أحبت أحد زبائنها .. وهو الملازم فوريه - بجنون - وتزوجته .. وقد دفعها هذا الجنون إلى أن تلبس ما يلبسه جنود فرقته من حذاء وسراويل وصدرية ومعطف .. وأن تخفى شعرها الطويل تحت قبعة مثله، وتستقل السفينة الحربية إلى بلاد مجهولة، عرفت فيما بعد أن اسمها مصر.

فوجىء بونابرت ببولين فأحس بأنه مستعد أن يصل معها حتى المشنقة .. لقد أخذت أسلحته، ونزعت قبعته، وأذاقته النار .. والحرق .. قال لها عبارة واحدة: أنت امرأة من قصب السكر .. وكانت أول عبارة غزل مهذبة ينطق بها .. وفهمت بولين - أو بيليلوت كما يدللونها - ما يريده بونابرت.

ولم ترفض .. رغم حبها الشديد لزوجها .. دعوته .. فبريق السلطة أشد من نعومة الحب.

كانت المشكلة زوجها .. وقد تخلص منه بونابرت بذكاء .. أرسله فى مهمة إلى مالطا وباريس .. وما إن استقل عربة البريد إلى رشيد حتى دعيت بيليلوت هى وبعض السيدات الأوروبيات إلى حفل عشاء فى ميدان الأزبكية .. وراح المضيف يحملق فيها خلال العشاء .. ولما قدمت القهوة أراق الضابط الجالس إلى جوارها - وكان «الخمة» جداً - قدحاً على ثوبها الجميل .. ولكنه هدأ من روعها .. وقال إنه سيصعد بها إلى حجرة لإصلاح ما أفسده .. وكانت لاتزال تدعه صوبها حين أقبل عليها بونابرت .. القائد الأعلى للجيش .. وانتظر الضيوف عدة ساعات قبل أن يعود أحدهما!

وحصلت بيليلوت على الثمن .. سكنت قصراً مجاوراً لقصر بونابرت فى الأزبكية .. وراحت تطوف القاهرة راكبة أفخر المركبات .. ووصفت بلقب «كليوباترة» الساحر .. إن المرأة تضحى بالحب من أجل السلطة .. لأنها تشعر بأنها تحكم دولة لا أسرة .. وتسيطر على كل الرجال، لا على رجل واحد .. ومن جانبه منح بونابرت عشيقته

الحارة ما كان يسعدها من مال ونفوذ وغزل .. كان يقول لها: «إن العمر بعدك اخصب والأشياء أطيب .. والأشكال أجمل .. لقد تسربت فى مسام جلدى مثل الندى فى الفجر فوق هضبة الأهرام».

وغابت بيليلوت فى وهم الشرق أو فى سحره .. لا فرق .. ونسيت زوجها تماماً .. والذى حدث أن فوريه لم يصل إلى مالطا فضلاً عن باريس .. ذلك أن سفينة البريد «شاسير» التى سافر عليها من الإسكندرية، وقعت فى أسر سفينة بريطانية اسمها «ليوت» فى اليوم التالى .. لكن .. من حسن حظه - وسوء حظ زوجته - أن قبطان السفينة الإنجليزى عامله برفق، وصمم على رده إلى الإسكندرية .. وشعر فوريه بالحيرة .. وإزداد هذا الشعور فى الإسكندرية عندما حاول الچنرال مارمون - حاكم المدينة الفرنسى - أن يمنعه من السفر إلى القاهرة!

فى القاهرة اكتشف أن زوجته استغفلته .. وأن نابليون استغفله .. ولا يستبعد أن القبطان البريطانى استغفل الثلاثة.

طلبت بليلوت الطلاق .. فحصلت عليه بسهولة مذهلة .. أما عشيقها فكان قد وعدها بأن يطلق زوجته ويتزوجها عسى أن تنجب له طفلاً، وهو ما عجزت عنه چوزفين .. وحاول كلاهما جاهداً دون أن يفلح .. وقال بونابرت لبولين معترضاً: ما العمل؟ إن هذه الـ...... الصغيرة الغبية لا تريد أن تلد لى طفلاً! .. فقالت بولين: رباه إنها ليست غلطتى أنا!

لم تكن هذه العلاقة - على حرارتها - حباً عظيماً .. بل كانت وسيلة للثأر من زوجته .. ومتعة قائد يرفه عن نفسه .. ولم يدم ذلك طويلاً .. فبعد ٥٠ يوماً خرج نابليون فى حملته على سوريا .. وإلى بولين كان يكتب خطابات عارية لم ير ناشرو رسائله - فيما بعد - أن من اللياقة أو الحياة نشرها .. فاختفت كما اختفت صاحبتها.

■ ■ ■ ■

كان آخر ما فعله بونابرت فى القاهرة - بعد أن قرر العودة إلى فرنسا - هو منح شفتى بيليلوت قبلة خاطفة، ثم ربت على خدها .. واستغرقت رحلة العودة ٤٧ يوماً .. وتلقت چوزفين خبر وصوله وهى تتعشى مع أحد رجال الدولة الكبار .. وقد فزعت من الخبر، وقالت متلعثمة: يجب أن أستقبله فى الطريق .. يهمنى جداً أن أسبق إخوته الذين ابغضونى دائماً.

لقد خشيت الطلاق والفضيحة بعد أن استدانت ٧٠ ألفاً من الفرنكات وعجزت عن السداد.

لكن .. بونابرت لم يفكر فى الطلاق .. فهو لا يزال يحبها .. ثم إنه كان مشغولاً بما هو أخطر وأهم .. كيف يصبح سيد فرنسا؟

وقد تُوِّج بونابرت إمبراطوراً فى مايو ١٨٠٤ . وأصبحت چوزفين إمبراطورة .. ولم تكن المرة الأولى ـ فى التاريخ ـ ولا الأخيرة أن تصل عاهرة إلى هذه المرتبة الرفيعة .. وأن تحكم وتسيطر وتقرر وتأمر وتدير الحكومة من غرفة نوم.



للطغاة حياة جنسية طاغية

خطأ شائع

ما اجتمع رجل وامرأة .. إلا وكان صندوق النقد الدولى ثالثهما .. فلا يمكن الحديث عن الحب بمعزل عن الوقائع السياسية .. والمتاعب الإقتصادية، والعقد الاجتماعية .. ولو دخل الفقر من الباب، قفز الحب من الشباك .. ونار الغلاء تقتل نار الشوق .. والمرأة اليوم مسكينة، حائرة بين الزوج الذى تريده، والرجل الذى تحبه، اختيار لا تحسد عليه، القلب أم المحفظة؟!

إن المسرح الحقيقى للحب هو الحياة اليومية، المقهى، الصحيفة، السيجارة، والسيارة، الفيديو، الشقة، الفستان، الماكياج، وأين تسهر هذا المساء؟

لذلك يتأثر الحب بنظام الحكم .. وبشخصية رئيس الوزراء .. وبرأى الحاكم فى المرأة وبعلاقته الخاصة بها، فليس هناك امرأة حرة إلا بوجود رجل حر .. والرجل الحر لا وجود له إلا فى دولة ديمقراطية، يديرها حاكم حر، يعرف الفرق بين المرأة الذبيحة، بين الزهرة والجارية.

وليس صحيحاً أن للطغاة حياة جنسية طاغية مثلهم .. وليس صحيحاً أن قسوتهم فى الحياة العامة لا تفوقها إلا قسوتهم فى شئون الفراش .. إن هذا الاعتقاد ساذج .. فأفظع الطغاة كان مزاجهم الجنسى منحرفاً .. كاليجولا، ونيرون، وكومودوس، وهتلر .. مثلاً.

لقد فشلوا فى التوقيع ـ ولو بالبصمات ـ على أجساد النساء فاستداروا ليعذبوا شعوبهم .. إنه بلغة علم النفس تعويض .. وبلغة علم السياسة فاشية .. وبلغة المرأة منتهى اليأس .. وبلغة أولاد البلد خيبة وقلة قيمة.

ولن نصدق أن الطغيان الجنسى فى النساء لا فى الرجال .. «التاريخ الجنسى للإنسان» .. الذى كتبه صلاح حافظ يقدم أكثر من دليل على ذلك من الإمبراطورية الرومانية .. إنها أدلة تثبت أن المرأة أن تجمع بين السلطة والمتعة .. وأنها عندما تفجر فى الفراش لا تردد فى أن تقتل فى سبيل العرش.

■ ■ ■ ■

لم تعرف المنطقة الوسطى بين الجنة والنار .. كانت تلقى بأوراقها كاملة .. وتحب على المكشوف .. حبها إعصار .. يكسر الأسوار .. ويحرق على دفء الجنس الأشعار.

إنها ميسالينا .. الإمبراطورة فاليريا ميسالينا .. النموذج الصارخ جداً للذئبة المجنونة بالرجال والقاضية عليهم .. كانت امرأة بالغة الشهوة .. بالغة القسوة .. إذا أرضاها رجل أغدقت عليه ثروتها وحمايتها وإذا لم يستجب لها فقد حياته.

تصفها المصادر القديمة بأنها كانت امرأة جميلة .. فاحمة الشعر .. سخية الجسم .. شرسة كأنثى الأسد .. معجونة بالنار .. منحوتة من جمرات مشتعلة .. ترفض الحب الصامت، الخفى، وتهوى ممارسة الجنس خارج الغرف المغلقة .. فى الهواء الطلق .. فى مياه البحر .. فى الغابات .. فوق الأعشاب.

ولكن الرسم الوحيد الذى حفظه التاريخ لها يصورها كأية امرأة ريفية عادية .. وفى متحف اللوفر الآن تمثال لها، ولكنه يصورها كسيدة مقدسة لا تمس .. والمؤكد على أية حال أنها لم تكن من حيث الجمال ـ تمتاز عن غيرها من نساء روما القديمة .. وأن بزوغ نجمها لم يكن يعود إلى شكلها بقدر ما كان يعود إلى شخصيتها الجذابة، الساحرة.

والأهم من ذلك أنها كانت جريئة .. كانت «الأنثى المطلقة» من كل قيد، التى وصفها شاعر روما المحترف بروبر قيوس بصراحة .. إنها تسير وثوبها يكشف نصف ظهرها .. لا تحرجها نظرات التطفل والاشتهاء .. ولا تجزع منك عندما تناديها .. لن ترفضك أبداً.

كانت ميسالينا فى الثلاثين تقريباً عندما تزوجها كلوديوس وهو فى سن الخمسين .. ذابت فيه كالشمع .. جعلت العالم فى عينيه جنساً وسريراً .. نفخت النار فيه فتحول فى نصف دقيقة من الشتاء إلى الصيف .. ومن الجليد إلى الحر .. ولكن .. وعندما ارتقى العرش أصبح همها أن تدعم سلطتها الشخصية.

وقد اعتمدت فى ذلك الحين على رجلين كانا فى الأصل من العبيد .. استخدمتهما فى الاغتيال والتجسس وتدبير الفضائح الجنسية للطبقة الأرستقراطية فى روما .. فثارت

هذه الطبقة عليها .. ولكنها لم تكترث بهذه الثورة .. بل شقت طريقها إلى السلطة على جماجم النبلاء الرومان .. وقتلت واحداً منهم لأنه رفض الاستجابة لعواطفها، وقتلت آخر لأنها طمعت فى الحديقة التى يملكها.

الرجل الذى رفضها اسمه هارديان .. كان مشهوراً بمغامراته .. وقد استفزها وحرضها على أن تقابله عارية فى العراء تحت ضوء القمر .. ثم .. راح يسخر منها .. حطم غرورها .. أغلق فى وجهها الباب الذى فتحه .. لم يطفىء النار التى أشعلها .. اقنعها بأنها خارج جسده لن تكون أنثى .. وخارج قلبه ستموت من الوحدة .. وخارج عقله ستصاب بالجنون ولأنها عادت ذليلة فقد أصرت على أن ينام ليلته فى القبر .. وقد كان.

لقد اكدت سلطتها فى روما بالجنس والقتل .. وعندما لم يعد ينازعها احد تخلت تماماً عن كل حذر، وأطلقت لنوازعها الجنسية العنان، ذاق لحمها الوزراء والحراس .. ودفعوا الثمن، مزيداً من النفوذ والحماية.

وذات ليلة أعجبها أحد الممثلين فى المسرح فأخذوه من خشبة المسرح مباشرة ووضعوه عارياً فى فراشها.

وخطر لها فى وقت من الأوقات أن تجرب الدعارة فأمرت صاحب أحد بيوت الدعارة بأن يخصص لها حجرة عنده وعلقت على باب هذه الحجرة لافتة من النوع الذى تعلقه المومسات .. وصارت تقضى ليالى بطولها تمارس المهنة كغيرها من الزبائن تحت اسم مستعار هو ليسسكان.

■ ■ ■ ■

إنها إمبراطورة أصبحت عاهرة.

ملكت السلطة فراحت إلى المتعة.

سارت فى الطريق العكسى المضاد لطريق الغانيات اللائى سعين للثروة والسلطة .. مثل قابيس عشيقة الإسكندر الذى تنازل عنها بطليموس الذى صحبها معه إلى مصر، وأجلسها معه على العرش فكانت الجدة الأولى لملوك البطالسة، وكانت كيلوباترا آخر أحفادها!

وكانت لقابيس زميلة أخرى فى مهنة الحب اسمها لاميا .. ولاميا هذه فضلت أن تبقى فى

اليونان وتصعد سلالم المجد فى مسقط رأسها فأصبحت عشيقة للقائد دمتريوس بوليدركيتس وأقامت معه فى قصره الملكى فى البارثينون، وألزم القائد أهل أثينا بتقديم فروض الولاء فى هذا القصر لها وله .. وانتهى الأمر بأن أقام الأثينيون بجوار القصر معبداً يقدمون فيه القرابين باسم أفروديت لاميا .. ولم يكن هذا الربط بين اسم الآلهة واسم الغانية شيئاً يثير الدهشة فى ذلك الوقت: فتمثال أفروديت المعبودة ذاتها لم يكن فى الواقع إلا تمثال غانية من عشيقات براكستيلس الفنان الذى نحته ـ صلاح حافظ المصدر السابق ص ٦٠.

▪ ▪ ▪ ▪

اصبحت تصرفات ميسالينا حديث الناس فى روما .. ولكن الإمبراطور كلوديوس لم يبد أيه إشارة تدل على انه يكترث بالموضوع فقد كان مشغولاً بحفظ أجزا ديوان شعر فى عصره وفى عصرنا أيضاً ديوان «فن الهوى» لأوفيد .. الذى ترجمه فيما بعد الدكتور ثروت عكاشة.

إن أوفيد يتحدث عن متعة غزو المرأة المتزوجة، ويعكس الأوضاع، فيصبح العشيق هو صاحب الحق فى الزوجة، وهو الذى يغار من الزوج، ويعتبره لصاً يسرق ما ليس له.. فالحق للحب وحده .. واللحظة التى تقضيها الزوجة فى فراش زوجها لحظة خيانة، مادامت تحب غيره، أما لحظاتها مع الحبيب فهى السمو كله، وهى السحر الذى لا سحر بعده .. على حد وصف صلاح حافظ.

إن أوفيد ينصح محبوبته بألا تحكى له أبداً عن أية ليلة خضعت فيها لرغبات زوجها .. فما يأخذه منك يسرقه خفية.

ومهما كان الذى يحدث بينك وبينه فى الليل .. انكريه أمامى فى اليوم التالى.

كان الإمبراطور كلوديوس مشغولاً بنصائح أوفيد .. فكان أن اصبحت زوجته ميسالينا أكثر جرأة، وانتهى بها الحال إلى انها انتهزت فرصة سفره إلى أوسفيا .. ودعت عشيقها الشاب جايوس سيليوس إلى القصر وأجبرته على أن يطلق زوجته .. ثم تزوجته فى احتفال رسمى مهيب .. وكان واضحاً أنها قررت إجلاسه على العرش بدلاً من كلوديوس .. وعندئذ فقط ثارت كرامة الإمبراطور وقرر إعدام ميسالينا.

لقد دخلت ميسالينا التاريخ لأنها أحدثت ثورة فى «سجن النساء» وتزوجت على زوجها، وطلبت الرجل فى بيت الطاعة، وطبقت قانون العين بالعين .. والسن بالسن .. وبادرت

بالبيع .. والشراء، والهجر، والطلاق .. وهى كلمات لا توجد إلا فى قاموس الرجل .. لكن ميسالينا فعلت ذلك بتجاوز لم يحدث من قبل .. فكان مصيرها الإعدام .. على أن الإعدام لم يكن عقوبة الغرق فى المتعة .. وإنما الاستيلاء على السلطة .. لم يكن عقوبة جريمة آداب، وإنما جريمة أمن دولة.

■ ■ ■ ■

والغريب ان كلوديوس لم يخرج من هذه التجربة بأية عظة .. إذ لم تمض أعوام بعد ذلك حتى تزوج من ابنة أخيه الشابة چوليا أجريبينا.

كان قد أصبح فوق الستين .. ينام فى مقعده .. يتحرك ببطء .. لكنه .. كان يؤمن بأن خيراً للإنسان أن يموت فى أحضان امرأة عن أن يموت وهو يشاهد مصارعة العبيد والأسود.

أما أجريبينا فكانت فتاة ذات ماض حافل .. فقد سبق أن عاشرها شقيقها معاشرة الأزواج .. ونفى من روما لهذا السبب.

وكانت فى الثلاثين من العمر تقريباً يوم تزوجها الإمبراطور .. وفى كل مرة كان يقربها كانت تخرج من فراشه ـ على الفور ـ لتدخل فراش عبد من عبيد القصر .. ثم .. كانت تعاقب نفسها بالجلد .. وكان ينفذ العقاب العبد الذى فرضت عليه الإثم .. وكان الإمبراطور يعرف ذلك .. فلم يتردد فى اختيار العبيد الأقوياء ليكونوا فى خدمتها.

على أن رعبها الدائم كان أن تنافسها فتيات أصغر منها .. لهذا أصبح همها أن تطرد أو تقتل كل امرأة من نساء القصر أصغر منها .. لقد خشيت أن يطلقها الإمبراطور .. وأن يلقى بها وبابنها نيرون فى عرض الطريق.

وقد فعلت المستحيل حتى نجحت فى حرمان ابن الإمبراطور من وراثة العرش .. ووضعت ابنها نيرون بدلاً منه ولياً للعهد .. عندما طالت شيخوخة الإمبراطور دون أن يموت .. قررت أن تقتله بالسم .. وارتقى نيرون العرش .. لكنها لم تسترح .. ولم تتخلص من عقدة الفتيات الصغيرات .. كانت تشعر بالغيرة منهن .. ويقال إنها كانت تشتهى ابنها .. وأنها بدعوى الخوف من الأشباح كانت تدس نفسها فى فراشه .. ولا يعرف من كان فى القصر مالذى حدث فى تلك الليلة .. كل ما شاهدوه هو جثة أجريبينا عارية فى فراش نيرون .. وكان يقول فى هيستريا:

ضايقتنى كثيراً .. فقتلتها !

ذبح نيرون أمه.

ارتكب بيده أبشع جريمة .. لكن .. كان هناك من حرضه عليها .. وكان لابد أن يفتش المؤرخون عن المرأة .. وهكذا جاءت سيرة بوبايا سابنيان .. إنها أخطر امرأة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية .. كانت امرأة مزاجية، متسلطة، لا تقبل أن تصير كلمتها كلمتين، تغازل متى تريد .. كانت زوجة رجل من قادة الحرس الإمبراطورى يوم وقعت عليها عينا نيرون .. سقط فى هواها من أول شهقة .. أحبها .. أحس بأن الحب جاء فى الوقت المناسب ليكون التعويض العاذل عن بشاعات العالم، وحماقاته، وجرائمه .. لكنها قابلت رومانسيته بواقعية مؤلمة، قالت له:

إنها ليست كائناً ضوئياً .. ولا قصيدة شعر .. ولا لوحة جدارية .. إنها امرأة تغضب، وتثور، وتمزق فى حالات احتراق الأعصاب، كل ما يقع فى يديها، وكل من يقف فى طريقها.

إن بوبايا تملك وصفة الأنوثة السرية، والسحرية التى أخضعت بها نيرون، وسيطرت عليه، وجعلته كالخاتم فى يدها، وقد عرفت بالغريزة أنه يحب المرأة التى تتعبه، وتبقيه مشتعلاً .. وأنها ستفقده لو حولت نيرانه إلى رماد .. ولم تكن المشكلة أنها متزوجة .. فقد طلبت الطلاق .. وحصلت عليه بعد أن هددت الزوج بفضيحة .. لكن المشكلة أن نيرون كان متزوجاً .. وزوجته هى أوكتافيا ابنة ميسالينا .. وكانت أمه أجريبنا تتمسك بأوكتافيا وتكره بوبايا .. إن بوبايا كانت الصورة الشابة من أجريبنا .. لذلك كانت الكراهية بينهما متبادلة .. وعلى أشدها .. ووجد نيرون نفسه فى الوسط بين أمه وعشيقته .. فاختار عشيقته .. وطلق زوجته .. وقتل أمه .. وتزوج بوبايا التى صعدت إلى العرش وسط الأشلاء والخراب ورائحة الدخان والخيانة .. وأصبح نيرون أمامها طفلاً بلا إرادة.

وقد أنجبت بوبايا طفلة لنيرون هى أوجستان، ثم ماتت الطفلة فأمر نيرون بتقديسها .. وبعد حريق روما أصيب نيرون بشئ من اختلال العقل فلما حملت بوبايا مرة أخرى .. ضربها علقة أجهضها .. وماتت على أثرها وكان موتها صدمة فادحة له .. فأمر بأن تعتبر قديسة وأقامت نساء روما معبداً على شرفها .

■ ■ ■ ■

ولقد استمر هذا السيناريو ١٥ سنة، كانت السلطة فى روما خلالها للنساء .. لكن المرأة ما كان لها أن تفعل ذلك لولا ضعف الحكام وعجزهم .. ويسجل التاريخ أن الإمبراطور كلوديوس الذى ترك زوجته على حل شعرها، كانت طاغية أشد قسوة على شعبه من

هتلر وموسوليني وصدام حسين معاً .. أما ابنه نيرون فقد انقلب عجزه الجنسى إلى خلل عقلى .. هيستريا .. فأشعل النار فى روما .. ثم راح يغنى.

وهيستريا فى اللغة اليونانية القديمة تعنى الرحم .. وقد أطلقت الكلمة على المرض النفسى الذى يبدأ عند المرأة من عدم إشباع الرحم، فتضطرب المرأة، وينتقل المرض إلى العقل، فتزداد اضطراباً .. وكان الدواء هو أن تتزوج وقد أصبحت الكلمة شائعة للتعبير عن مرض من الأمراض العقلية حتى الآن.

ولو كان نيرون ضحية الهيستريا، فإن جده الإمبراطور أغسطس كان ضحية للسيلان .. أصيب به فى شبابه، فجعله يعانى من الضعف عندما كبر.. وقد انعكس ذلك على حياته الزوجية .. فكانت على حد وصف صلاح حافظ ـ أسوأ مثال يمكن أن يضربه حاكم للمحكومين.

كان يفضل المرأة المتزوجة .. ويقنعها بالخيانة .. ثم بالطلاق .. وبعد أن يتزوجها، يطلقها لأنها خائنة .. خانت زوجها السابق معه .. وقد تزوج بهذه الطريقة ثلاث مرات .. وقد فهمت زوجته الثالثة ليفيا أن المشكلة فى فشله .. وفى عدم صموده .. فلم تقربه كثيراً .. واستجلبت له عذارى من الطبقة الدنيا .. يعتدى عليهن .. ليثبت رجولته المفقودة.

ولأنه ديكتاتور منحرف، فقد استخدم تعسفه فى إصدار قانون فريد من نوعه للعلاقات الجنسية، يحتوى على عدة مواد مبتكرة.

مادة منه تحرم على المواطن أن يوصى بثروته إلى رجل أعزب.

ومادة أخرى تجعل المرأة التى تضبط متلبسة بالخيانة تفقد الدوطة نهائياً، وتحصل الدولة على نصفها، ويحصل الزوج المخدوع على النصف الآخر.

ومادة ثالثة تعاقب الرجل المتزوج إذا اتصل جنسياً بأية امرأة .. مالم تكن من المومسات الرسميات.

ومادة رابعة تجعل الرجل ذا الأولاد أحق بالوظائف العامة من الرجل الأعزب.

ويستطرد صلاح حافظ:

إن هذا القانون كان ولاشك ثمرة دراسة دقيقة وتفكير طويل، ولكنه فى التطبيق فشل تماماً، ولم يكترث به إلا موظفو الأرشيف الذين عهد إليهم بوضعه على أرفف المكاتب، ولعل الأمر كان يختلف لو أن الإمبراطور ضرب المثل أولاً بنفسه، فلو كان رب البيت عارياً فشيمة أهل البيت اللهو.

٤

نزوات نازلى وحسنين

التى حطمت العرش

كان يشعل النار فيها .. ثم يذهب.

كان يتركها تصرخ من الشياط .. ثم يقفز فى مياه مسبح «مينا هاوس» الباردة .. وأسمهان تغنى .. ليالى الأنس فى ڤيينا .. ڤيينا صورة م الجنة.

عذبها بالقرب .. وبالهجر .. بالنعومة، والقسوة .. عزف على أوتار حرمانها الطويل .. واستفز جنونها المستبد .. ورغبتها المهملة .. المشتعلة .. وخوفها المتزايد من عدم اللحاق بآخر عربة فى قطار المتعة، بعد أن أصبحت امرأة على عتبة اليأس.

وصلت إلى حافة الفراش فلم تجده .. وجدت الهاوية .. عانقت الريح، والملل، وأحلامها القديمة التى لم تتحقق .. أحلام أنثى صغيرة، خطفوها من حبيبها .. وحفظوها فى ثلاجة سنوات طوال .. وعندما نجت من البرودة، غازلها مثل عود كبريت مشتعل .. أغراها بذوبان الجليد .. لكنه لم يفعل .. رفض أن يمنحها الدفء .. سافرت من برودة إلى برودة .. ومن فشل إلى فشل .. ولم يكن أمامها سوى أن تضحى بكل شئ من أجله .. لقبها .. سمعتها .. تاجها .. ومستقبل النظام الملكى فى مصر.

إنها الملكة نازلى .. زوجة السلطان الذى أصبح ملكاً .. أحمد فؤاد .. أم الملك فاروق .. ملك مصر والسودان الذى خرج مهزوماً فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢ .. جدة الملك أحمد فؤاد .. آخر ملوك أسرة محمد على الذى تولى العرش وتركه وهو لا يزال فى اللفة .. وقد لعنها كل أفراد أسرتها .. لعنوها وهى فى الحكم .. ولعنوها وهى فى المنفى .. فى أمريكا .. فهى أول فيروس قاتل يخترق شرايين النظام .. ويجرى فى دمائه .. ويستقر فى خلايا مخه ..

ويدمرها .. فقد اندفعت وراء المتعة .. ورفست السلطة .. فرحل الملك .. وجاء الكولونيل جمال عبد الناصر.

أما الرجل الذى أذلها، وكسر كبرياءها، وجعلها تصرخ فوق سطح المدينة، منادية عليه، مطالبة به، فهو فلاح ازهرى، درس فى اكسفورد وحفظ كتاب الأمير لمكياڤيللى، وعرف بدهاء ومهارة، واعصاب ثابتة، كيف يسيطر على فاروق بعد أن سيطر على أمه .. بعد أن روضها .. هو احمد حسنين باشا .. المعدم، المديون، المغامر، الفقير الذى حكم مصر من الديوان، بعد أن حكم الفراش.

■ ■ ■ ■

فى ٢٦ أبريل سنة ١٩٣٦، مات الملك أحمد فؤاد .. وخرجت الملكة نازلى من سجنها .. بعد ١٧ سنة .. حطمت قيودها وأنطلقت لتعوض ما فاتها من متع كانت محرومة منها .. العشق، والترف، والجنس، والبذخ بلا حساب .. وكان أول ما فعلته انتقاماً من الملك الراحل .. أنها باعت ملابسه ونياشينه فى سوق «الكانتو» .. ثم تخلصت من مراكز القوى فى القصر .. عيون الملك عليها .. حراس سجنها .. وكان على رأسهم نوبى لا يعرف القراءة ولا الكتابة، لكنه كان يتمتع بذكاء خطير مكنه من أن يدير الأمور على هواه، هو إدريس عثمان .. شماشرجى الملك .. وقد جمع ثروة هائلة .. وجعل بلدياته النوبيين قوة لا يستهان بها فى القصر .. وكان من تلاميذه محمد حسن الذى لعب الدور نفسه فيما بعد .. مع الملك فاروق.

انطلقت نازلى - بشراهة ونهم - تنهل من عيون الحياة وتطفئ نار الظمأ الذى أحرق حشاها السنوات الطوال هذا ما قاله محمد لتابعى وهو يروى بذكاء وبراعة ورشاقة قصة نازلى وحسنين .. إنه أول وأفضل من رواها.

ورغم أن نازلى جاوزت الأربعين فإن أول من عرفها .. ضابط الحرس الرشيق عمر فتحى، يشهد بأن جسمها كان فتياً .. شهياً .. نقياً نقاء اللبن .. وأنه كان مثل حصان السباق قادراً على الطيران ضد جاذبية الأرض.

أما أحمد حسنين فقد لزم الصمت .. وراح ينفذ خطته للسيطرة عليها، ومن ثم على ابنها فاروق .. تركها تشده وتصده .. تعرض وتقبل .. تروح وتعود .. تغازل وتستلطف غيره .. وهو هادئ يبتسم .. لا يغار ولا يثور .. كان كما يقول التابعى: «يمد لها فى حبال الصبر كما يمد الصياد الماهر المجرب فى خيط الصنارة .. التى علقت بها سمكة عنيدة ..

السمكة تشد وتجذب وتقفز .. وتغوص وتطفو .. وتقاوم .. والصياد يرخى من خيط الصنارة حيناً .. ويشد حيناً .. وهكذا إلى أن تخور قوى السمكة وتستسلم .. وهكذا فعل حسنين .. إلى أن تعبت نازلى واستسلمت وأسلمت قيادها له .. وبدأت هى التى تغار عليه .. وتحاسبه .. بقلق وهاجس امرأة جاوزت سن الشباب.

لم يكن يحبها .. كان يستعملها .. كان جسدها هو المرآة التى سيرى فيها صورة ابنها عارياً .. كان القبر الذى سيدفن فيه كبرياء الملك الشاب الذى تولى الحكم وعمره ١٦ سنة .. ودون أن يكمل تعليمه.

وقد بدأ حسنين ينفذ خطته فى أول رحلة طويلة إلى أوروبا قام بها فاروق ـ وكانت معه أمه وشقيقاته ـ لعلها تزيد فى تجاربه ومعلوماته ولو قليلاً .. بدأت الرحلة فى ٢٧ فبراير ١٩٣٧ من بورسعيد على ظهر الباخرة «فايسروى أوف انديا» .. وكانت محطاتها .. سان موريتز .. چنيف .. برن .. باريس .. لندن .. فيش .. ڤيينا .. مارسيليا .. ثم الإسكندرية .. وفى هذه الرحلة تجاوزت نازلى كل الحدود .. وكانت تغضب من ابنها إذا ما أبدى أية ملاحظات .. وتصيح: «كفاية بأه .. كفاية سبعتاشر سنة وأنا محبوسة .. خذوا الكورونا من على راسى .. مش عايزاها» .. والمقصود بالكورونا التاج .. والمعنى أن التاج لم يكن ليساوى عندها سهرة مع حسنين فى ملهى سفنكس الشهير فى مونبارناس بباريس .. حيث ترقص فيه فتيات عاريات الجسد تماماً حتى من ورقة التوت .. أو ورقة البوستة.

لم يستسلم حسنين لنزوات نازلى .. إنها تريده بجنون .. لكنه «تقيل» ينتظر دخول الفريسة إلى القفص الذى اختاره وأراده .. ورغم ذلك لم يسلم من الشائعات .. التى وصلت بيته .. وأثارت غضب زوجته الأميرة لطيفة، وحفيدة محمد على مؤسس الأسرة المالكة.

إن زوجته لم تمسك لسانها ـ من شدة الغضب ـ وراحت تسب الملكة نازلى فى مجالسها الخاصة، وتقول: إن الملكة «ماشية» مع حسنين .. وأنها عملت كيت وكيت فى أوروبا .. وأن الملك فاروق مغفل مثل أبيه الملك فؤاد.

أكثر من ذلك طبعت لطيفة الزجل الشهير لبيرم التونسى الذى طعن فيه شرف نازلى وفؤاد، ووزعت منه مئات النسخ .. ويقول الزجل:

البنت ماشية من زمان تتمخطر.

والغفلة زارع فى الديوان قرع أخضر.

العطفة من قبل النظام مفتوحة.

والوزة من قبل الفرح مدبوحة.

وفى زجل آخر كتبه بيرم التونسى بعد مولد فاروق وطبعته لطيفة بالمئات أيضاً .. ياسلطان دنت ابنك ظهر .. ربك يبارك لك فى عمر الغلام نزل يلعلط تحت برج القمر .. ياخسارة بس الشهر كان مش تمام.

■ ■ ■ ■

استدعى فاروق حسنين ليقول له:

ـ مراتك اتجننت ياحسنين .. شوف لك طريقة معاها .. وبسرعة.

وحسب مارواه التابعى فإن حسنين ذهب إلى زوجته، وقال لها إنها ارتكبت جريمة العيب فى الذات الملكية .. وأن أقل ما يجب عليها أن تفعله هو أن تلتمس مقابلة الملكة نازلى وتنكر أمامها كل ما هو منسوب إليها .. ولكن لطيفة لم تتركه يتمم حديثه .. وصاحت فيه:

ـ أنا .. أنا أروح لنازلى ؟!

واندفعت تسب وتشتم .. ثم قالت:

ـ وإذا كنت عايزنى أروح لها .. أنا مستعدة أروح .. بس راح أقول لها الكلام اللى قلته عنها فى غيابها.

وتركها حسنين، وخرج ليفكر فى هذا الوضع الصعب أو المستحيل الذى وجد نفسه فيه .. لم يكن أمامه إلا أن يضحى بزوجته أو بمنصبه .. وضحى بزوجته .. وأوقع يمين الطلاق .. واحتفظ بمنصبه !

■ ■ ■ ■

أصبح حسنين حراً .. فهل ذهب وأخذ نازلى بين ذراعيه .. أو تركها تفعل هى ذلك؟ .. هل استسلم لرعونتها .. وأسقط ما تبقى من هيبتها .. وحولها من ملكة إلى غجرية .. ومن غجرية إلى قطة فى ليل الأزقة؟ .. أبداً .. فهواها ليس يعنيه .. وغضبها لا يجرحه .. فهى تحطم المرايا وأوانى الزهور وأطباق الكريستال كل ليلة .. ولا يصاب بالشظايا.

إنه يعرفها جيداً .. جارية رقيقة أسيرة هوى فى المساء، وملكة مستعلية متكبرة فى الصباح .. ولو لم يلعب ببراعة فإنها ستفعل به ما فعلته بغيره .. تعتصر الثمرة وتلفظ

نواها .. ترتشف الخمر وتحطم الكأس .. إنها امرأة ـ حسب وصف التابعى ـ امرأة تسير على هواها .. وهواها ألا تحفظ عهده الهوى .. وكان حسنين يعرف ذلك ويقيم له كل وزن فى خططه وحسابه.

ويروى التابعى أن مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية قال له:

ـ إن حسنين باشا أخطر رجل فى مصر، وهو ممثل يجيد التمثيل أفضل من يوسف وهبى، وأنا لا أنسى يوم جاءتنى الملكة نازلى تقول إنها تحب حسنين ولا تستطيع الحياة بدونه وأنها تعسة لأن حسنين صارحها بأنه لا يستطيع أن يقربها لأنه لا يحب الحرام، ثم قالت الملكة نازلى إنها كانت أوفدت إلى حسنين إحدى وصيفاتها .. أوفدتها إلى حسنين لتسأله عن سر بروده مع صاحبة الجلالة، فقال لها إنه يتعذب وأنه يمسك بعواطفه لأنه يحبها، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً يغضب الله !

وانطلقت الملكة نازلى فى شكواها لمراد محسن باشا تقول:

ـ «يعنى أعمل إيه أنا ؟ لا هو يسمح لى أن أعرف رجلاً سواه .. ولا هو يريد أن يأخذنى .. لا عاوز يرحم ولا يخلى رحمة ربنا تنزل».

ونستغفر الله للمرأة الآثمة.

واستطرد ناظر الخاصة الملكية قائلاً:

ـ لقد دهشت جيداً أنه فى حياته الخاصة وسلوكه الشخصى ليس شيخ الأزهر .. ولكنه كان يمثل دوراً .. وكانت النتيجة أن ازداد وجد الملكة وتضاعف هواها وحبها له، وأصبحت تعتقد أنه رجل غريب .. رجل يجد ملكة بين يديه ويرفض أن يقربها.

وذات يوم قالت له:

ـ أنا أعطيك إنذاراً نهائياً إما أن تعاملنى كامرأة، وإما سأقطع كل علاقة بيننا، وأصبح حرة أفعل ما أشاء.

فقال، وهو يتظاهر بالبكاء، إنه لا يستطيع أن يقربها إلا إذا تزوجها على شرع الله وسنة رسوله .. وغير معقول أن أتزوج الملكة.

وهنا صاحت نازلى:

ـ طظ فى لقب الملكة ؟

ـ معنى هذا أن جلالة الملك سيطردنى وأنا أفقر من أن أستطيع العيش على معاشى لأن

الديون تأخذ جانباً كبيراً منه.

ـ انا مستعدة لأن اضع ثروتى كلها بين يديك.

ـ ولكننى لا أستطيع أن أعيش على حساب زوجتى، وسوف أشعر بمرارة أنك دفعت ثمن هذا الزواج لى.

ـ يعنى عايزنى أعمل إيه؟ زوجة .. لا .. رفيقة .. لا .. عاوزنى أبقى إيه ؟!

ـ عاوزك ملكة.

ـ يعنى قطعة جماد .. طوب .. حجارة؟ لا ياسيدى .. انا بنى آدم .. أنا دم ولحم .. أنا امرأة .. أنا حرمت كل حياتى من الحياة .. عاوزة أعيش .. سيبنى أعيش.

ـ أنا خايف على سمعتك وسمعة السراى .. وإلا لتركتك تفعلين ما تشائين.

ـ طيب سأبهدل سمعة السراى .. أنا أخذت إيه من السرايات؟! غير المرض والبؤس والشقاء .. أنا عشت تمنتاشر سنة فى ثلاجة .. أنا سأذهب إلى فاروق وأقول له اننى سأتزوجك.

ـ اذهبى .. ولكنه سيرفض!

■ ■ ■ ■

النمرة المتوحشة كسرت القفص .. إنها تريده مهما كان الثمن .. تريد أن يغلق الأبواب التى فتحها .. ويطفئ النيران التى أشعلها .. وينهى المأساة التى بدأها .. إنها تحبه .. تهواه .. مستعدة أن تبيع الدنيا من أجله .. أن تعبئ البحر فى زجاجة لوشاء .. أن ترمى الشمس تحت قدميه لو أراد!

وذهبت نازلى إلى فاروق.

قالت له:

ـ أنا أحب حسنين واريد أن اتزوجه.

قال فاروق

ـ رافقيه أحسن!

ـ إنه يرفض أن يكون عشيق الملكة.

ـ سأصدر إليه أمراً ملكيا بذلك!

كان فاروق يسخر من أمه .. فماذا يمكن أن يقول لها غير ذلك .. ثم أنه استنفد الثورة والغضب .. كان يثور ويقسم أنه سوف يضرب حسنين بالرصاص .. ولكنه كان فى اليوم التالى يجالسه ويمزح ويضحك معه.

وحدث مرة ـ فى عام ١٩٣٩ ـ أن تلقى الملك تقريراً جاء فيه أن جلالة الملكة نازلى تسهر إلى الصباح عند حسنين، وقرر الملك أن يضبطهما معاً «متلبسين»، واخذ معه خادمه الأرناؤوطى محمد عبد الله وذهب إلى بيت حسنين وترك سيارته بعيداً .. ثم دخل البيت من إحدى النوافذ .. وعرفوا أن الملكة وحسنين فى الدور العلوى .. وأعتقد أنهما فى غرفة النوم .. وصعد السلم على أطراف أصابعه .. وهو يضع دائماً فى قدميه حذاء ذا نعل من الكاوتش لا يحدث صوتاً .. وتسلل إلى غرفة النوم .. وفتح بابها فوجدها خالية .. وفتح الغرفة التى بجوارها فرأى منظراً أذهله .. رأى حسنين باشا جالساً على الأرض وأمامه الملكة نازلى جالسة كما تجلس التلميذة أمام أستاذها .. وكان حسنين يتلو عليها آيات الذكر الحكيم من مصحف بين يديه .. وذهل الملك من هول المفاجأة .. فلم يجد شيئاً يقوله .. واغلق عليهما الباب .. ومضى.

وعندما سمع مراد محسن باشا هذه القصة من الملك ازداد اعتقاده بأن حسنين باشا بهلوان .. وإلا فكيف استطاع أن يمثل دور الرجل الصوفى المتدين مع الملكة نازلى .. وأن يحملها على الجلوس أمامه تصغى إلى تلاوته للقرآن، وهى التى تكاد تجلس فى مكان ما عدة دقائق معدودات حتى تهب واقفة وهى تصيح: أوف .. أنا أختنق .. تعالوا نبحث عن سهرة نرقص فيها ؟!

وقال مراد محسن:

ـ إن الملك كان يعتقد أن حسنين هو الرجل الوحيد الذى تخافه الملكة وتطيعه .. والرجل الوحيد القادر على ترويضها .. وأنه إذا خرج من القصر فإنها سوف تنفجر وتترك السراى .. وتمشى على حل شعرها.

وقد مشت نازلى على حل شعرها لاستثارة غيرة حسنين .. راحت تغازل وتسهر وتمرح وتشرب وترقص مع شبان .. بدأت بتشريفاتى فى القصر .. ثم بدأت تهبط.

وذات صباح استوقف فاروق التشريفاتى .. صديق أمه .. وبدأ يسخر منه: «حضرتك عامل إيه فى حواجبك؟ .. ناتف شعرها زى الستات! .. وكمان يظهر إنك

بتحط بودرة .. وأحمر؟».

وبهذه الحجة .. حجة الحواجب والبودرة أمر ينقلة من القصر إلى وزارة الخارجية .. وأحس الشاب بأنه فى خطر فكف عن الاقتراب من الملكة .. واستقال من عمله .. واشتغل فى الأعمال الحرة.

وشعرت نازلى بأن فاروق يضيق الخناق عليها، فسافرت أوروبا لتمارس نزواتها بحرية اكثر .. وعرفت هناك .. شاباً جميلاً هو ابن الأميرال هورنى الوصى على عرش المجر .. وقد قتل فى حادث طائرة فى روسيا سنة ١٩٤٣ .. وقد لحق بها فى مصر .. وأصبحت حكايتهما مكشوفة .. وصرخ فاروق «الحقونى بحسنين» .. وطلب منه أن يضع حداً لهذه الفضيحة .. ونجح حسنين فى إقناع الشاب بأنه غير مرغوب فى مصر، فرحل عائداً إلى أوروبا.

لكن .. نازلى هزت كتفيها غير مبالية .. وسافرت إلى القدس لتعيد الفضيحة ببطل جديد .. وطلب فاروق من حسنين أن يسافر إلى القدس .. ويعيدها إلى القاهرة .. لكن حسنين اعتذر وطلب أن يقوم بهذه المهمة مصطفى النحاس وحرمه زينب الوكيل .. وكان السبب هو خوف حسنين من أن يقابل اسمهان وهو بالقرب من نازلى .. لقد أحب اسمهان وعرفت نازلى ذلك .. وقد كانت أسمهان فى القدس .. فى فندق الملك داود .. فى الوقت نفسه التى كانت نازلى هناك .. وخشى حسنين من صدام .. كان لابد أن يكون مروعاً .. ومدوياً .. فألقى بالمهمة على عاتق النحاس وزوجته.

وعادت نازلى بشرط .. أن يصدر فاروق أمره إلى حسنين بأن يتزوجها.

واستسلم فاروق .. لكنه اكتفى بأن يكون عقد الزواج عرفياً .. وشهد على العقد سليمان نجيب وكان مديراً للأوبرا.

وبعد شهور معدودات على الزواج رشح فاروق رئيس ديوانه احمد حسنين رئيساً للوزارة الجديدة التى كان مقدراً لها أن تخلف وزارة النحاس باشا فى شهر ابريل عام ١٩٤٣ .. وبعد حوالى ٣ سنوات .. بالضبط فى ٩ فبراير عام ١٩٤٦ توفى أحمد حسنين .. لم يعش طويلاً ليجنى ثمار خطته الجهنمية.

ويقول التابعى:

– لم يكن سهلاً عليه أن تدس أمه التى يحبها ويحترمها أنفه فى التراب .. أن تصارحه بأنها تحب موظفاً عنده .. وأنها قدمت نفسها وجسمها ولكنه يرفض .. كانت الصدمة

قاسية وعنيفة على فاروق .. وتهاوت المثل العليا التى كان يراها فى أمه ـ صاحبة الجلالة ـ تهاوت وتحطمت تحت قدميه .. وكان عمره ١٨ سنة .. وكانت مثل عليا أخرى ـ يمثلها زعماء البلاد وشيوخها وساستها الكبار ـ قد أخذت تتهاوى وتتحطم فى نفس الوقت تحت قدميه، ودخلت المرارة قلبه .. وراح يسخر ويهزأ بكل شئ .. ويدوس بقدميه كل مقدسات هذا البلد .. إن فضيحة نازلى كانت من العوامل الرئيسية التى حولت فاروق من ملك محبوب مأمول إلى طاغية وفاجر .. أو مخلوق بلا أخلاق .. ولا مبادئ .. ولا مثل عليا.

لقد حطمت متعة نازلى سلطة فاروق.

ولا أضيف.

5

رشقاتي لول

رئيس الحكومة أمام زوجته

جاءت طيور الحزن لتسكن فوق أشجار الحنين التى لم تعد تزهر.

منذ سنوات طوال .. بالضبط فى فبراير ١٩٤٨ أحبها من نصف نظرة .. قال لها:

أحبك كى أبقى على صلة بكل ما حولى .. الله، الأرض، الوطن، التاريخ، الزمن، التمرد، الغضب، الماء، الزرع، الأطفال، الخبز، الثورة، الحرية، البحر، الموج، السفن، ونجوم الليل .. أنت البلاد التى تعطى هويتها .. من لا يحبك يبقى مشرداً، مشتتاً دونما وطن.

وبعد عمر طويل من الحب .. انكسر فى قلبه مثل الإناء .. سقط فى هوى فتاة أصغر من بناته .. فقد عقله وقلبه وزوجته وأسرته وسمعته ومستقبله السياسى .. أصيب بالجنون وهو فى السبعين .. وهو فى قمة السلطة .. كان ينتظر شروق الشمس من حذاء الفتاة التى أحبها .. وفشل فى جنى القطن الأبيض من شجرتى نهديها .. وعجز عن اعتقال الياسمين المتساقط من جسدها .. ولم يستطع تهدئة الجياد النارية الجامحة التى تنطلق منها فى الفراش .. ولم يكن يملك سوى الشعر والنفوذ والسلطة يقدمة إلى المضيفة الشابة التى هبطت فى قلبه ورفضت الإقلاع العاطفى عنه.

إنه أندرياس باباندريو .. رئيس وزراء اليونان العجوز .. الذى هزم الفاشية، وديكتاتورية الجنرالات .. وهزمته موديل للصور العارية، أصبحت مضيفة جوية اسمها ديمترالياقى.

لقد خلق الله الرجل ليروض السلطة .. وخلق المرأة لتروض الرجل .. وسلاح الرجل المناورة .. وسلاح المرأة الجنس .. ولو اقترن الجنس بالذكاء والطموح فإن المرأة تسعى إلى السلطة .. أو إلى من فى السلطة .. وهؤلاء أقوياء أمامنا .. ضعفاء أمامها .. وهم يحكموننا،

وهى تحكمهم .. ولابد من انفجار أو فضيحة لنعرف الحقيقة .. والدليل على ذلك قضية لوسى أرتين فى مصر .. وقضية ديمتراليا فى اليونان.

إن المرأة - فى رأى سقراط - هى مصدر كل شر .. وكل سلطة أيضاً .. وبداية النهاية أن يسلم رجل دولة نفسه إلى امرأة صغيرة .. مثيرة .. إنه يخلع هدومه وهمومه فى الفراش .. ونفوذه ووجوده كذلك .. فالمتعة تحكم من يحكم .. وسلطة المرأة أشد من سلطة الدولة .. والتاريخ الحقيقى يكتبه العرق، والغرق فى ملايات السرير .. لكننا لا نقرأ هذا التاريخ لأنه مكتوب بحبر سرى اسمه الرغبة، وإن كنا نشم رائحته .. ونرى شظاياه، وحرائقه ... ونرى صور ضحاياه فى الصفحة الأولى لا فى صفحة الوفيات.

إن السياسيين الذين يسقطون فى بئر اللذة يعتقدون أنهم الأقوى .. وأن المرأة هى الأضعف .. يعتقدون أنهم الفاعل وأن المرأة مفعول به .. ولكن .. فى لحظة الفضيحة والسقوط يكتشفون العكس .. يكتشفون أنهم المركوبون .. وأن المرأة قد ركبت فوق ظهورهم وشتد اللجام .. وعند الهاوية، تقفز المرأة فى الوقت المناسب .. وتترك الجياد تتحطم.

إن الإنسان لا يجئ صوب البحر إذا كان يخاف الماء .. لكن .. لا أحد يمكنه أن يمتطى صهوة البحر، ويكبح جماحه مهما كان بارعاً فى العوم .. فالموجة الناعمة تخرج منها موجة شرسة .. وقانون البحر هو نفسه قانون الأنوثة .. فالرجل مهما كان قوياً يمكن أن تهزمه امرأة .. يمكن أن تقشره كالبرتقالة .. وتمص رحيقه وعصيره وبريقه .. ثم تتركه لعمال النظافة - على الشاطئ - ليكملوا مهمتها.

ولو كانت المرأة جميلة، صغيرة، مثيرة فإنها تصبح مصنعاً للأمواج الشرسة .. والرجل الكبير الذى يقع فى هواها يتأخر عن الحب .. والحب إذا تأخر عن موعده يصبح مثل الاعصار .. يلغى مكان الولادة .. وسنوات الدراسة، ونفوذ الشخصية، والزواج، والطلاق، والقانون، والشهود، والمحاكم.

إنها سلطة «لوليتا» .. الفتاة الصغيرة التى أيقضت جياد النار فى عروق رجل فى الخريف فتحول من رجل مهم إلى رجل مهموم .. تحول من صاحب منصب رفيع إلى «كيس» لب يتسلى بقزقزته الناس.

فهل كانت ديمتراليا فى الترجمة اليونانية الحية لقصة «لوليتا» ؟

كنا أنا وزميلى المصور محمد بكر نسابق الزمن .. كان علينا أن نركب الطائرة من القاهرة إلى أثينا .. ثم نركب السيارة من مطار أثينا إل قصر رئيس الوزراء أندرياس چورج باباندريو المعروف بفيللا جالينى، ومعناها فى اليونانية «الصفاء»، لنصل قبل الواحدة ظهراً، حيث موعدنا مع زوجته مارجريت لتروى لنا تجربتها مع الحب والديمقراطية .. كان ذلك فى صيف ١٩٨٥ .. وقد أصابتنى حركة المرور الثقيلة مثل السلاحف بالتوتر .. بينما راح محمد بكر يقتل القلق المكتوم بتصوير البشر من نافذة السيارة.

لم نصل فى الموعد المحدد .. تأخرنا نصف ساعة.. كاد قلبى يتوقف خلالها ٣٠ مرة .. وعندما نزلنا من السيارة رحنا نهرول كالمجانين .. فرفع الحرس أسلحتهم فى وجوهنا.. ولو لم نسترد إحساسنا بالحكمة لكنا قد قتلنا.

تفهمت مارجريت باباندريو الموقف، وسمحت باللقاء الذى جرى فى حديقة القصر، مع الشاى المثلج، وثمار الفاكهة، وبدون تدخين .. وراحت تروى قصة اللقاء الأول .. والحب الأول.

إنها أمريكية الأصل .. حلوة .. جذابة .. نشأت فى ضاحية فقيرة بشيكاغو .. كافحت من أجل أن تدخل مدرسة الصحافة فى جامعة مينسوتا .. عملت جرسونة وممرضة ومحصلة فى أتوبيس، وساعى بريد، وعاملة فى مكتبة عامة .. وبعد طول الصبر نجحت فى تأسيس شركة صغيرة للعلاقات العامة، فى مدينة «مينابلس» .. وهى مدينة ناعمة، وبريئة، تقع فى أقصى شمال الوسط الأمريكى .. وتشتهر بالبحيرات .. ويغطيها الجليد ٩ شهور فى السنة .. وينهمر المطر فوق رأسها فى الصيف .. وصلاة الشكر المقدسة التى يحرص عليها الناس هناك، هى صلاة لشعاع شمس جرئ، نجح فى اختراق غيوم السحاب، ورسم خطاً من الذهب على سماء رمادية فى لون ألواح الرصاص.

كان من زبائن شركتها، طبيب أسنان، من أصل يونانى اسمه «آريس» اتفقت أن تكتب سيرة حياته مقابل العناية الدائمة بأسنانها.. وفى أحدى أمسيات شهر فبراير ١٩٤٨، كانت تنتظره فى العيادة حتى ينتهى من زبائنه .. وراحت تقرأ إعلانات الصحف، ولفت نظرها كلمة فرنسية دخيلة على أحد الإعلانات، فالتفتت للرجل الذى يجلس أمامها وسألته:

ـ هل تعرف الفرنسية؟

أجاب:

ـ نعم.

فشرحت له مشكلتها، فقام ليجلس إلى جوارها، وفى ثوان اقتربا .. ودعاها للرقص .. وتحدثا حتى الصباح .. وهكذا أحب أندرياس، مارجريت .. إنه جاء إلى أمريكا هربا من الديكتاتورية العسكرية التى نفت والده فى جزيزة أندروس .. وقبضت عليه وهو لا يزال طالباً فى الجامعة، وضرب فى السجن، وعذب، وكسر فكه .. وعندما أفرجوا عنه، نجح فى السفر إلى أمريكا، والتحق بمدرسة الاقتصاد بجامعة هارفارد .. وبعد تخرجه لمع نجمه فى تدريس الاقتصاد .. ووجد من يجذبه إلى عالم السياسة.

فى ليلة الحب الأول كانت الموسيقى الناعمة تجبر العشاق على الاستمرار فى «التانجو» .. وكانت الأغنية تقول:

ألف امرأة أحببت.

ألف امرأة جربت.

لكن ..

عندما قابلتك شعرت .. أنى الآن بدأت.

وفوجئ بها تجرى من الحلبة إلى خارج الملهى، وعندما لحق بها، قالت له:

- يجب أن نفترق.

- إننا لم نلتق لنفترق.

- إننى امرأة متزوجة.

وبهت أندرياس .. وبقى صامتاً بعض الوقت .. ثم انفجر فى نوبة ضحك هيسترية ثم اقترب منها فى حنان .. وقال: - أنا أيضاً متزوج!

■ ■ ■ ■

كان لابد أن يفترقا .. لقد جاء الحب متأخراً .. فلا مفر من الابتعاد وقد حمل كل منهما قلبه ورحل بعيداً .. لكن .. منذ متى يموت الحب بالرحيل .. إنه يشتعل بالفراق .. وبعد ثلاث سنوات من العذاب كتب إليها يقول: إن عطرك لم يزل يجرى على شفتى .. خطيئتى أنى نقلت الحب من الكهف إلى الهواء الطلق .. أنا إنسان مفقود .. ليس لى مكان على الأرض ولا عنوان .. أنا إنسان بملامح النسيان.

وعرفت منه أنه طلق زوجته .. وطلبت هى الأخرى الطلاق وحصلت عليه .. وفى ٣٠ اغسطس ١٩٥١ تزوجا.

لقد تحول الحب إلى فراش وأسرة وأربعة أطفال وبعثة لمدة سنة إلى اليونان لدراسة عقبات التنمية فى بلاده .. كان ذلك فى سنة ١٩٦٠ .. وكانت اليونان لا تزال دولة يحكمها الچنرالات .. أنهم يمارسون الديكتاتورية، ويتحدثون عن مايوه بكينى اسمه الديمقراطية.

لكن أندرياس الذى جاء مؤقتاً لوطنه، بقى فيه، وانضم إلى والده چورج باباندريو فى حملته الانتخابية .. لقد تزعم والده حزب اتحاد الوسط وهو حزب يؤمن بالعدالة الاجتماعية .. وتحديث التعليم .. والضرائب التصاعدية .. وخروج الملك من السياسة وأن يملك ولا يحكم .. وبالنسبة للسياسية الخارجية كان يؤمن بأن الولايات المتحدة هى التى تدعم الفاشية العسكرية .. وأنها لا تريد سوى أن تكون اليونان قاعدة بحرية لأسطولها السادس فى البحر المتوسط .. وسوقاً تجارية لتصريف فائض منتجاتها .. إن ما تقوله عن الديمقراطية هو وهم .. فمصالحها هى الأهم .. وهى تدعم من يدعمها حتى ولو كانوا يمثلون الديكتاتورية.

فى سنة ١٩٦٤ أصبح الأب رئيساً للوزارء بعد أن فاز حزبه بـ ٥٣ ٪ من الأصوات وأصبح الابن وزيراً.

لكن .. الملك قسطنطين لم يتقبل هذه الهزيمة وراح يدبر المؤامرات مستنداً لدعم المخابرات المركزية الأمريكية وچنرالات الجيش .. ونجح فى التخلص من حكومة چورج باباندريو .. وأسقطها .. ولم تجد مارجريت مفراً من الوقوف إلى جانب أسرة زوجها .. ضد بلادها .. واستغلت موهبتها فى العلاقات العامة وأرسلت خطابات سرية إلى أصدقائها فى الولايات المتحدة لتوصيلها إلى الرئيس الأمريكى چونسون وزوجته ليدى بيرد وبعض رجال الكونجرس لتنويرهم بأخطاء السياسة الأمريكية فى اليونان .. ولكن عميلاً للمخابرات الأمريكية استخدمته مارجريت فى إرسال خطاباتها إلى خارج اليونان قام بفتح واحد منها .. وكان أن فوجئت بفقرات من خطاباتها منشورة فى الصحف الأمريكية .. ووجدت نفسها فى اليوم التالى أمام سلطات التحقيق .. وهكذا تورطت مارجريت فى لعبة السياسة، ضد وطنها الأم.

إن الفقرات التى نُشرت من خطابها فى الصحافة الأمريكية تكشف عن إحساس هذه المرأة ومدى وعيها .. إنها تقول: إن الحكم العسكرى يخاف من هديل الحمام، وقهقهة الريح بين الشجر، ويستنفر جنوده لقتل القمر .. إنه يخاف من سخرية الناس على المقاهى .. ومن تجمع التلاميذ أمام المدارس، ومن هتافات الناس فى مباريات كرة القدم .. وهو يرسل الكلمة إلى المعتقل .. والقصيدة إلى المحكمة .. ويمنح اللصوص

والمنافقين الأوسمة.

لقد انتهى زمن العشق وبدأ زمن النضال.

وجاء الطغاة ليختبروا مدى صلابة الحب الذى تحمله لزوجها.

■ ■ ■ ■

وفى كتابها «كابوس فى أثينا» تروى مارجريت باباندريو قصة أطول ليلة مرت عليها هى وزوجها، وقد ترجمت الكتاب وعرضته فى مجلة «الشرقية» الدكتور سهام نصار .. إن هذه الليلة هى لية ٢١ ابريل ١٩٦٧ .. ليلة الانقلاب العسكرى فى اليونان وهى تقول عنها:

- فى تلك الليلة انطلقت رصاصة حطمت سكون الليل .. نهضت من فراشى على وقع أقدام مسرعة تصعد السلالم الرخامية التى تؤدى إلى الطابق الثانى حيث غرفة نومنا: «سيادة الوزير .. سيادة الوزير .. رجال مسلحون بالباب .. ماذا أفعل؟».

كان مانولى يقرع باب غرفة نومنا .. قفزت أنا وأندرياس من السرير كحجرين انطلقا من منصة إطلاق .. ارتديت الروب .. بينما ارتدى أندرياس قميصاً وبنطلوناً مجعدين كان يرتديهما فى المساء.

لقد اصطدم أندرياس لمدة سنتين بالقصر والجيش والأثرياء والسفارة الأمريكية ورفض المهادنة أو الحلول الوسط .. وتلقى تهديدات لا حصر لها بالقتل .. فهل جاءوا ليقتلوه الآن؟.

تركت أندرياس والأطفال فى الدور العلوى وهبطت إلى الدور الأرضى .. كان لسانى جافاً كالخشب لكن ذهنى ظل صافياً .. وفوجئت بضابط جيش يرفع مسدسه فى وجهى ويقول: إننا نريد أندرياس .. صرخت: أندرياس ليس موجوداً .. قال: سنأخذك رهينة حتى يظهر .. أحسست بالارتياح .. لكن .. فجأة وجدت مجموعة أخرى من الجنود تهدد أطفالى بالموت لو لم يظهر والدهم .. وكان هذا التهديد كفيلاً بأن يقنع أندرياس بالظهور .. كان أندرياس بمظهره الأبيض فى ظلمة الليل الحالكة وبطوله البالغ عشرة أقدام يبدو كما لو كان عملاقاً قد هبط من الفضاء الخارجى .. كانت الصورة قوية ومخيفة .. وكنت أخشى تأثيرها على الزمرة الغاضبة من العسكرين واعتقدت أنهم سيطلقون النار.

فى تلك الليلة أيضاً قُبض على والد أندرياس، رئيس الوزراء جورج باباندريو .. ولم تجد مارجريت مفراً من أن تقود حركة المقاومة السرية، وأن تتابع حركة اعتقال زوجها من فندق بيكرمى إلى سجن افيروف، وأن تكون وسيلة الاتصال بينه وبين أنصاره من حزب

اتحاد الوسط الذين يعملون تحت الأرض.

وبعد ثمانية أشهر أمضاها فى ظلام السجن بين القتلة والمجرمين أفرجوا عنه، وعاد إلى بيته لتناول عشاء الكريسماس بين أسرته .. لكن .. حياته ظلت فى خطر .. فسافر مع أسرته إلى باريس .. وراح يحارب الديكتاتورية من هناك .. وبعد سنوات أخرى فى الغربة عاد ليحكم بلاده بعد أن انتهى حكم الجنرالات.

■ ■ ■ ■

كل هذا الحب .. وهذا الكفاح .. وهذا التاريخ، ضاع .. انتهى .. تحطم على جسد ديمترا .. وجدها أمامه فى الطائرة فوق ٣٠ ألف قدم، من سطح البحر .. قالت: «القهوة ياسيدى» .. وكأنها قالت: «القبلة ياسيدى» .. أو .. «الرغبة ياسيدى».

أحبها فوق السحاب .. وعاش معها فوق السحاب .. كان ينفرد بها فى الطائرة الرسمية .. لم يحسب حساب رجاله الذين يرافقونه .. ولم يحسب حساب رجال الأمن الذين يرصدونه .. لقد فقد العجوز عقله .. وطاش صوابه .. ونسى تاريخه .. ولم يفكر فى مستقبله.

إنه رجل قبل أن يكون زعيماً .. رجل كالآخرين بطهارته ونذالته .. يحب بكل عنف الفرصة الأخيرة .. وقد تمنى أن يكرهها .. وأن يقتلها لينقذ نفسه منها .. لكنه أحب كرهه لها .. أحب ضعفه أمامها .. أحب إهانتها له .. إن ذلك يثير الدهشة .. أن يتلذذ رجال السياسة الكبار بإهانة الفتيات من طراز ديمترا .. إن كل الفضائح التى كُشفت ـ حتى فى بلادنا تؤكد ذلك.. فما هو السر؟ .. هل الضعف هو لذة الأقوياء؟.. هل هم ضعفاء ونحن الذين أوهمناهم بالقوة؟.. هل هو انتقام السماء؟.

لقد ضاعت مارجريت من ذاكرة أندرياس .. لم يعد يتذكر لون عينيها .. لا طول قامتها .. ولا يوم رقصا التانجو أول مرة .. كأنه لم يعرفها من قبل .. أما هى فقد أدمنت الحزن .. وصارت تخاف ألا تحزن .. وركبت قطار الدموع .. ولم تشأ أن تتوقف فى محطة واحدة فيها مصنع للمناديل .. إن الألم ضريبة لابد من دفعها بعد أن تُصدم فيمن تحب وعلى قدر الحب يكون الألم .. إنه نوع من الانتقام أو التطهر .. لكن المشكلة أن أندرياس محفور فى قلبها بالنار وأن حبها له جعلها تمشى على نهر الدموع ولا تغرق .. إنه حب لم يعد له عقل ولا منطق .. ولكن له تاريخ.

ولم تتركها الصحافة فى أحزانها .. وطاردتها فى كل مكان تذهب إليه .. وكان عليها أن تستجمع ما تبقى من شجاعتها وتنشر بياناً صاغته بالقلم والألم .. قالت عنه:

«إن المحاولات التى تجرى للتهوين من شأن زوجة رئيس الوزراء فى هذه المرحلة الحرجة لهى شئ غير إنسانى .. لقد عشت زوجة لرئيس الوزراء بكرامة وتفهم سياسى طيلة أربعين سنة .. عشت معه الأيام الحلوة والأيام المرة وأعطيت له أربعة أطفال .. وكل ما أطلبه منكم الآن أن تتركونى وحدى مع هذه التراجيديا الشخصية التى أعيشها».

وبعد نشر البيان بساعات قرر أندرياس باباندريو أن يطلقها .. وفى الوقت المناسب تزوج ديمترا .. وكان الثمن مستقبله السياسى .. لكنه فضل أن يموت فى أحضان لوليتا اليونانية على أن يموت فى أحضان السلطة اليونانية.

إن ديمترا تفكر الآن فى افتتاح ملهى ليلى فى منطقة «البلكا» فى أثينا .. إنها منطقة الكباريهات والمتعة وعلب الليل فى العاصمة اليونانية .. فهل يشاركها المناضل الذى حطم الديكتاتورية وجاء بالديمقراطية فى إدارته؟ أم أنه سيجلس فى البيت لينتظر عودتها فى الفجر ؟

٦

مدير المخابرات

محبوس فى رحم امرأة

الديموقراطية شجرة فهل تستحق أن يموت الملايين من أجلها.

والديكتاتورية شجرة زئبق، ترقص «التانجو» على صراخ الضحايا.

والأصل أن تؤمن الدولة بالحرية، وحقوق الإنسان، وأن تقبل الاختلاف، وأن تشطب من قاموسها السياسى كلمة «آمين» .. إنها المعادلات الأساسية للتاريخ والجغرافيا .. وبدونها تسقط الدولة .. وتنكسر .. وتتحول السلطة إلى شظايا .. ويكتشف رجالها ـ بعد فوات الأوان ـ أن التاريخ أقوى منهم .. والجغرافيا أيضاً.

والاتحاد السوفيتى هو أكبر دليل على ذلك .. لقد جعلته الديكتاتورية هشاً .. فشطبناه من الخريطة .. ومن الذاكرة .. أصبح مثل صفحة يمكن نزعها من كتاب الوجود .. أو مثل شمعة ننفخ عليها فتنطفئ .. أو مثل منزل نتركه، ونستأجر غيره.

إن بطل هذا الفصل من كتاب «المتعة والسلطة» لا يستحق أ ن نصنع له تمثالاً من الحديد، ولا يستحق أن نرسم صورته بألوان الطيف .. فهو قاتل محترف .. وضع ضميره فى مكان بارد مجهول، فى سيبيريا .. ثم .. قرر ألا يتذكره .. وقد امتلك السلطة بالقسوة .. امتلك المرأة بالعنف .. والامتلاك بالقوة أو بالقسوة أو بالعنف ليس امتلاكاً .. إنه سيطرة .. إرهاب .. جنس تحت تهديد السلاح .. اغتصاب .. فالرجل الذى ينام مع ألف امرأة بالقوة .. رجل لم ينم إلا مع نفسه.

إنه بريا ـ رئيس جهاز الأمن السوفيتى فى عهد ستالين، ومؤسس جهاز المخابرات السوفيتية (K.G.B.) .. والاسم الذى يثير الرعب حتى الآن .. بالرغم من أنه اختفى من

النفوذ والوجود منذ ٤٠ سنة .. وهذا أمر طبيعى .. فذاكرة الفرح مثل الأرنب وذاكرة الألم مثل السلحفاة.. والشعوب لاتفرط فى ميراث القسوة، حتى تستخلص منها الرحمة .. فالدواء من السم أحياناً .. والديموقراطية من الدكتاتورية غالباً.

■ ■ ■ ■

فى ليلة ٢ مارس سنة ١٩٥٣، دخل ستالين فى غيبوبة المرض الأخير .. كان بالقرب من فراشه رجلان قدر لهما أن يتصارعا على السلطة بعد رحيله، هما خرتشوف، وبريا .. كان خرتشوف يبدو مثل ثمرة «الكمثرى» وكان بريا مثل ثمرة «الخرشوف»، كان واضحاً للجميع أن الفوز سيكون من نصيب الخرشوف لا خرتشوف.

وقد لاحظ خرتشوف أن تصرفات بريا تثير الغثيان .. وعبر عن ذلك فيما بعد قائلاً: «فى كل مرة كان يبدو أن ستالين يستعيد وعيه ـ وكنا نعتقد بأنه يشفى ـ كان بريا يركع على ركبتيه، ويمسك بيده ويغمرها بالقبلات .. وعندما كان ستالين يغرق من جديد فى الغيبوبة. كان بريا ينهض ويبصق على الأرض».

إن هذا المشهد يكشف «كيمياء» هذا الطراز من رجال الأمن الذين يخدمون الديكتاتور، إنهم ينتقلون فجأة من ابتلاع الإهانة إلى فرض الغطرسة، عندما ينتقل الديكتاتور من الصحة إلى الغيبوبة .. أو من القوة إلى الموت .. فالبقاء للأقوى .. والسلطة لمن يستحقها .. والقبر لا ينهى العرض المسرحى، وإنما يغير أبطاله.

وقد مات ستالين فى ٥ مارس بعد ٣ أيام قضاها فى غيبوبة مزمنة لم يفق منها .. وراح بريا يجمع كل الخيوط فى يده استعداداً لأن يلعب دور الديكتاتور الراحل .. وكان رجال الحزب الكبار يدركون أنهم جميعاً تحت المراقبة، فلم يحاولوا القيام بعمل ضده .. وكان بريا يحسب حساب الجميع إلا خرتشوف أو ثمرة الكمثرى .. إن خرتشوف فى عينى بريا كان رجلاً بديناً فى لون الشمع الأبيض، لا يفهم إلا فى سلاطة الكرنب المخلوط بالفودكا .. إنه رجل استعراضى مثل البالونات، والألعاب النارية.

وربما كان خرتشوف كذلك .. لكنه قرر ـ من أجل السلطة ـ أن يكون عكس ذلك .. وقد سأل يوم مات ستالين زوجته:

ـ كيف يمكن قتل ديناصور شرس بضربة واحدة؟

وكانت إجابتها:

ـ فتش عن المتعة!

ثم .. أضافت:

ـ إن الرجل الذى يحبس الجميع ستجده محبوساً فى رحم امرأة.

ـ لكنه عندما يخرج من هذا الرحم يصبح مثل المارد الذى خرج من قمقمه.

ـ ولن تستطيعوا القضاء عليه إلا إذا انكمش وعاد إلى القمقم.

وكان على خرتشوف أن يبحث عن هذا القمقم .. أن يبحث عن المرأة التى تعتقل بريا فى رحمها.

وكان لابد أن يكون هذا البحث سرياً .. وسريعاً .. وأن يكون بواسطة أحد رجال بريا الذين استقطبهم خرتشوف، وهو سيرجى كروجلوف.

وقد قال له سيرجى كروجلوف: إن زوجتك ياسيدى على حق، فالرجل مهما بلغت طموحاته، وفتوحاته ـ من الإسكندر المقونى إلى نابليون بونابرت، ومن لينين إلى بريا ـ فإنه يبقى بحاجة ـ كأى طفل ـ إلى أن يتكوم فى حضن امرأة .. وينام على ترنيمة صوتها .. ويكشف نقاط ضعفه أمامها .. وهذا ما يجعل المرأة هى الأقوى .. إنها تكسب الحرب دون أن تخوضها .. وتضع الثورة وهى عارية فى الفراش .. وتفوز بالسلطة دون انقلاب!

وفى ليموزين سوداء جاء سيرجى كروجلوف. ومعه امرأة صغيرة، إلى ضاحية هادئة من ضواحى موسكو، فى منتصف الليل حيث كان خرتشوف ينتظرهما فى الظلام .. ولم يكشف كروجلوف تفاصيل هذا اللقاء، وكان ما قاله فى مذكراته ـ التى نشرت فيما بعد فى الصنداى تايمز ـ إن خرتشوف راح يفتش فى سراويل بريا .. وأن الفتاة استغرقت فى أدق أسرار بريا الخاصة .. وكان خرتشوف يتابع ما تقوله وكأنه لاعب شطرنج فى انتظار دوره .. ولم يذكر كروجلوف معلومات محددة عن الفتاة .. واكتفى بالقول إنها كانت صغيرة السن .. مربربة .. ملظلظة .. أشبه بنساء استنبول أيام الباب العالى .. كثيرة الدهن .. مطفأة الذهن .. لا تصلح لشئ إلا الفراش والحمام .. وقد اختطفها بريا من إحدى قرى طشقند .. ووضعها فى بيت .. ونسيها .. وهى تشعر برغبة فى الانتقام منه .. وهذا ما جعلها تقبل التآمر عليه .. وأن تستدعيه وتستفز رجولته، وتضعه عارياً تحت كاميرات التصوير الخفية التى سيزرعونها فى كل جدران البيت.

■ ■ ■ ■

كان المطلوب تعريض بريا إلى صدمة حادة مباغتة، يفقد اتزانه بعدها، ولو لمدة دقيقة واحد، وهى مدة كافية للانقضاض عليه.

إن ترنح رجل السلطة القوى، المغرور، ضرورة لإسقاطه .. لكن .. لابد من القضاء

عليه بسرعة خاطفة قبل أن يسترد توازنه .. وإلا كان مثل الأسد المجروح .. أو مثل الأسد الذى تجرأ أرنب وعبث بأسنانه وهو فى لحظة تثاؤب.

وقد جاءت هذه اللحظة فى اجتماع استثنائى لكبار رجال الدولة ـ فى ٢٦ يونيو ١٩٥٣ ـ حضره خرتشوف وهو ملح بمسدس.

وحسب شهادة خرتشوف، فإن بريا جلس وهو يشعر بالملل ثم مد ذراعيه، متسائلاً:

ـ حسناً .. ماهو أمر اليوم؟ .. ولم هذا الاجتماع غير المرتقب؟.

وركل خرتشوف، مالينكوف بقدمه، ثم همس له:

ـ افتتح الجلسة وامنحنى فرصة الكلام.

لكن مالينكوف عجز عن فتح فمه، وشحب وجهه، لذلك قام خرتشوف، وقال:

ـ إن بريا يقوم بنشاط امبريالى ضد الحزب، وأقترح إقالته من مجلس الرئاسة، ومن اللجنة المركزية، وطرده من الحزب، ومحاكمته محاكمة عسكرية، فمن يوافق؟

وقبل أن يتم التصويت على القرار، ألقى خرتشوف بعشرات الصور الفوتوغرافية العارية لبريا والفتاة الملظلظة، وقد تناثرت الصور على منضدة الاجتماع، وانشغل الجميع بالفرجة عليها .. وفى أقل من نصف دقيق، كان خرتشوف يضغط على زر سرى .. وفجأة برز مالينكوف ومعه مجموعة من الضباط المسلحين الذين أخذوا بريا معهم، بعد أن قبضوا عليه .. وبينما كان رجال الدولة السوفيت فى حالة ذهول .. وضع بريا نسخة من صورته عارياً فى جيب بنطلونه الخلفى، ومشى فى هدوء.

وفى حقيبته الخاصة .. وجدوا ورقة كتب عليها بالخبر الأحمر: «أنا فى خطر» .. كانت جاهزة لأن يضعها فى جيب أقرب شخص ليوصلها إلى رجاله .. لكن .. رجاله لم يعرفوا بأمر سقوط رئيسهم إلا فى ١٠ يوليو .. بعد أسبوعين تقريباً .. عندما أعلن خرتشوف ذلك على الرأى العام .. وقد ظهر خرتشوف قوياً بعد أن قهر بريا .. لكن .. لا أحد عرف بسر الفتاة .. كثيرة الدهن .. المطفأة الذهن التى أسقطت أقوى رجل فى تاريخ أجهزة الأمن السوفيتية.

وكان لابد من محاكمته .. وكان لابد من اختراع تهم تناسبه .. لقد جاء عليه الدور ليحاكم على جرائم لم يرتكبها .. مثل السعى إلى إعادة الراسمالية وحكم البرجوازية .. وكان معه فى قرار الاتهام ستة من رجاله، وصفوهم بالمتآمرين .. أما الجرائم المريعة التى اقترفها بريا وأسوؤها القتل الجماعى، فلم تذكرها محكمة القضاء الأعلى فى موسكو

حتى لا تكون شاهداً على فظائع النظام كله.

وعندما حكم عليه بالإعدام، أشارت المحكمة إلى «الجرائم التى تشهد بفساده الأخلاقى» .. ولم تشير إلى فساده السياسى .. فهذا غير مطلوب فى النظم البوليسية .. فالفساد السياسى مستمر .. وكشف الجانب الأخلاقى لرجال الحكم ليس من باب التطهر ولا الورع، وإنما من باب تصفية الحسابات .. وتصفية الاشخاص.

وفى أهم كتاب صدر مؤخرا عن المخابرات السوفيتية فى العالم (١٩١٧ ـ ١٩٩٠) وألفه كريستوفر أندرور، وأوليج جورديسكى: أنه فى غضون محاكمة بريا السرية، فوجئ من فى القاعة بالدفاع وهو يقول: إن الشعب السوفيتى لا يخشى ولا يحترم سوى الأقوياء من إيفان إلى بريا .. الذى لم يشذ عن القانون.

وإيفان هو إيفان الرهيب الدوق الذى اخترع الشرطة السياسية فى روسيا وفى العالم، وكون فى سنة ١٥٦٥ جهاز الأوبرتشينا .. أول جهاز أمن دولة فى العصر الحديث .. وكان رجال هذا الجهاز يرتدون اللباس الأسود ويمتطون الجياد السوداء معلقين بالأسرجة رأس كلب ومكنسة رمزا لحربهم ضد الخيانة .. وكا أغلب الخونة من نتاج مخيلتهم ومخيلة رؤسائهم كما هو الحال فى النظم البوليسية .. فكانوا يهاجمون مدنا بأكملها فى حملات شنيعة يقومون خلالها بالقتل الجماعى .. وكانت تنتاب إيفان فترات من السادية البربرية وأخرى يستغرق فيها بالصلاة والندم .. إنه نموذج لاضطراب رجل الأمن الشرس الذى يعذب ضحاياه فى الصباح ويمسح دموعه فى جدران دور العبادة مساء، ليجدد البرنامج نفسه فى اليوم التالى .. فهل هو فى حاجة إلى الغفران ليخطئ من جديد ؟.

وقد ألغيت الأوبرتشينا عام ١٥٧٢ ، ولكنها عادت فى صورة أخرى بعد ٤ قرون فى عهد ستالين على يد بريا .. وكان ستالين معجباً بالدور التقدمى الذى لعبته الأوبرتشينا فى تدعيم مركزية السلطة وقضائها على أرستقراطية النبلاء الروس، ولكنه لام إيفان لإضاعته وقتاً فى الصلاة كان يمكن تكريسه لقتل المزيد من النبلاء.

وفى غضون محاكمة بريا السرية أيضاً .. «حكى البعض للقضاة بأن أحد رجال الحرس الخاص لبريا كان يحتفظ بورقة كتب عليها أسماء وأرقام تليفونات أربع نساء من المئات اللاتى كانت حاشيته ترغمهن للمثول بين يديه فى مقره فى فزيولن بيرفلوك، حيث كان يغتصبهن فى سناوت مجده، وكانت إحدى تلك النساء الأربع لا تتجاوز عامها السادس عشر» وأغلب الظن أنها هى التى قضت عليه.

أعـدُم بريا رمياً بالرصاص.

ثم قرر الغرب إعدامه رمياً بالنساء.

ففى عدد يوم الأحد ٢٥ يوليو ١٩٩٣ وضعت صحيفة «الأندبندت» البريطانية عنواناً بعرض الصفحة يقول: «الجنس والموت فى فراش رئيس أمن ستالين المرعب».

وتحت العنوان مفاجأة تاريخية أذاعتها من موسكو، مراسلة الصحيفة هناك هلين ووماك، وترجمها، ولخصها لروز اليوسف شريف عامر.

والمفاجأة هى خروج امرأة عجوز من تحت أنقاض الماضى لتروى أسرار علاقتها الخاصة ببريا .. إنها نينا الكسيف .. تبدو الآن مثل ثوب «مكرمش» من الحرير، يصعب تسويته .. وكانت زمان مثل نجمات السينما فى الخمسينات .. مثل كاميليا أو مريم فخر الدين .. وقد بدأت متاعبها فى الصحافة عندما وجد أحد الباحثين فى أرشيف وثائق الاتحاد السوفينى سابقاً، اسمها وعنوانها فى مفكرة جيب بريا .. التى أصبحت إحدى وثائق الدولة بعد إعدامه .. وأمام وعود المال والشهرة أصبحت نينا الكسيفا هى اعتماد خورشيد على الطريقة الروسية.

لقد سعت اعتماد خورشيد إلى تمزيق سمعة مدير المخابرات الأسبق صلاح محمد نصر النجومى، وشهرته صلاح نصر بالفضائح التى نشرتها ثم أعادت نشرها فى ثلاثة كتب، فإذا بها تمزق نفسها .. لقد كانت فى نفس المركب معه .. وقد غرقت عندما حطمت ألواحها بدعوى فضحه والانتقام منه .. لعبت بالنار فأحرقته واحترقت.

أما الكسيفا فكانت مصرة على الحقيقة .. لقد حرف رجال الصحافة الروس كلمات بريا لها، حتى يظهر أكثر قسوة وأشد وحشية .. وهو ما يتوافق مع عصر الاتحاد السوفيتى المغضوب عليه الآن.

قال الصحافيون الروس على لسانها: إن بريا كان لا يستمتع بالمرأة إلا بعد تعذيبها .. إن غرفة نومه .. فى فيللته فى موسكو ـ كانت أشبه بغرف المعتقل .. وكان لا يقترب من المرأة إلا بعد أن يتركها عارية ست ساعات على الأقل، يراقبها خلالها من فتحات سرية، فإذا ما بدت المرأة منهارة اقترب منها .. وتعامل معها .. إنها فى هذه الحالة تندفع إليه طالبة الحماية والحنان وهو ما يشعره بقوته.

لكن الكسيفا تقول: إن الحقيقة شىء آخر .. وتضيف: بالرغم من أنها أجبرت على ممارسة الجنس مع الرجل الذى قتل المئات من ضحاياه الأبرياء إلا أنه كان على حد وصفها

«غاية فى العطف والحنان».

وتبدو شهادة الكسيفا أكثر تجانساً مع إجتماع علماء النفس على أن رجال الأمن الأشد قسوة مع ضحاياهم، هم أكثر ضعفاً مع المرأة .. أنهم شواذ .. والمرأة بالنسبة لهم هى مثل الأم الخائنة .. التى لا يستطيعون الاستغناء عنها .. وفى نفس الوقت لا يتنازلون عن عقابها .. والجنس فى هذه الحالة هو العقاب .. والرقة والعطف تعبير عن الاستسلام للأمومة.

وتعتبر الكسيفا محظوظة جداً .. فقد دخلت فيللا بريا فى شارع كاشلوفا (تشغلها الآن السفارة التونسية) وخرجت .. إنها معجزة بكل المقاييس .. فلا أحد كان يدخل الفيللا ولا يخرج ميتاً أو معتقلاً .. وكانت الفيللا مقراً لاستجواب ضحاياه .. وفراشاً لإغراء الفتيات الصغيرات اللآتى كان يغتصبهن، ثم يقتلهن .. وقد وجد العمال الذين قاموا بالحفر فى شارع مسكنه ، عدداً من الهياكل العظمية، التى ترجع غالباً إلى ضحاياه.

■ ■ ■ ■

قبل ٤٠ سنة .. كانت نينا الكسيفا، شاهقة الأنوثة، إنها امرأة يندم الرجل الذى لم يعرفها، ولم يعش عصرها .. امرأة تدخل الدم .. فيتلخبط كل شئ حولنا .. تشعرك بأن الدنيا قبلها خراب .. وبأن العشق قبلها زهور من البلاستيك.

كانت تتمتع بصوت عذب، وجاذبية بارزة .. وقد أهلها ذلك للعمل فى كافيتريا تابعة للمخابرات السوفيتية .. كانت تغنى بينما رجال الخدمة السرية يأكلون ويتآمرون .. وفى مرة كانت تغنى:

الحب مثل الشعر.

يـُولد على الشجر.

مثل السحر.

ينقل البدوى إلى الحضر.

سمعها بريا .. فشدت انتباهه .. وأثارت فضوله .. وطلب من رجاله جمع المعلومات عنها .. إنه يدخل إلى النساء من نقاط الضعف الإجتماعية والشخصية وكأنما سيجندهن للعمل فى التجسس .. ولا يدخل إليهن مثل الرجال العاديين بكلمات الإعجاب، أو نظرات الإعجاب، أو بالهدايا الثمينة .. لكن .. الخبر تسرب إلى أحد زملاء زوجها الضابط فى

الجيش، الذى حذر بدوره زوجته.

وفى يوم كانت الكسيفا تقف على رصيف الكافيتريا تنتظر مرور زوجها ليعودا معاً إلى البيت، فوجئت بسيارة ليموزين سوداء ـ من التى يستعملها كبار رجال الحزب ـ تقف بالقرب منها، وقال لها السائق:

«إن شخصاً على درجة كبيرة من الأهمية معجب بك».

قالت فى حزم:

«أنا فى انتظار زوجى الكولونيل إيفان ريبروف».

وانصرف السائق فى هدوء.

لكنها أحست بالخوف يسرى فى جسدها مثل البرودة .. ارتعشت .. وانكمشت .. واقتنعت بأن الله قد نجاها هذه المرة .. وظلت فى انتظار زوجها الذى لم يأت .. ولن يأتى .. فقد نُكّل إلى إحدى المناطق النائية .. ولم تعد تعرف أخباره .. لقد أصبح مثل الآلاف الذين يلقون بهم فى سيبيريا للعمل حتى الموت .. ووجدتٍ نفسها تهرب من موسكو إلى كاليننجراد على ساحل البلطيق .. حيث اعتقدت أنها أصبحت بعيدة عن أظافر وأنياب بريا .. وبعد السنة عادت إلى موسكو .. وإلى عملها السابق .. وأحبت ضابطاً بحرياً أصبح زوجها الثانى .. لكن .. بريا لم يكن قد نسيها .. إنه لا يزال يريدها .. ورغبته فيها لم تخمد بعد .. وعندما أرسل فى طلبها هذه المرة لم تجد مفرا من الاستسلام.

■ ■ ■ ■

وحسب وصفها لتلك الليلة، دخلت الكسيفا إلى «حجرة طعام مليئة بالمشهيات من كل نوع ولون وصنف بالإضافة إلى النبيذ المعتق الذى كان يفضله آخر قياصرة روسيا نيقولا الثانى» .. وتستطرد: «لقد وجدت أمامى أنواعا من الطعام والشراب لا يعرفها الشعب ولا وقعت عيناه عليها من قبل .. وبعد العشاء أخذنى بريا إلى الفراش .. كنت انتفض فى رعشة غريبة .. لم أشعر إلا بالخوف .. وأحسست بالألم .. ولم أعرف ماذا جرى .. ولا ماذا فعل؟ .. وبعد ثوان راح يقبلنى ويحنو على .. ربما كان قاسيا مع غيرى، لكنه لم يكن كذلك معى .. أغلب الظن أنه أحبنى .. لم يطالبنى بأى شئ شاذ أو منحرف .. وربما كان السبب أننى من أسرة محافظة .. وقد ظللت على علاقة به ١٨ شهرا، كان يبعث خلالها بسيارته كل يومين أو ثلاثة، لأقضى معه ليلته .. بينما كان زوجى ديمترى وحيدا

فى منزلنا .. إننى لم أكن عشيقة بريا، وإنما كنت ضحيته .. وكانت حركتى فى الفيللا مقصورة على غرفتى النوم والطعام والحمام .. ولم أكن أعرف شيئاً عما يجرى فى الحجرات الأخرى .. على أنه من جانب آخر، عرض بريا أن يساعدنى فى مستقبلى الفنى، وأخذنى فى إحدى الحفلات لمقابلة ستالين .. وعرض شقة جديدة وبيانو كنت أحلم باقتنائه .. لكنى رفضت كل هذه المميزات، وسعيت بكل الطرق للخروج من شباكه .. وقد حدث ذلك بمساعدة أحد أفراد الحراسة الخاصة لبريا وهو رفاييل سامينوفيتش .. لقد سلمت له نفسى ١٠ مرات ثمنا لحريتى .. أراد أن يتذوق الجسد الذى يتذوقه رئيسه .. وقد وجد امرأة أخرى بديلة، من نفس الكافيتريا لتحل محلى .. والمثير للدهشة أن بريا تركنى أرحل فى سلام .. وفى آخر لقاء قال لى:

ـ أعلم أنك أصبحت باردة تجاهى لذلك سأتقبل رحيلك بشجاعة ..

ولا جدال أن ما أنقذنى هو أنه كان يحبنى وقد ذكرته بزوجته ـ وهى امرأة فى جورجيا وتدعى نينا مثلى ..

لكن ..

ما أنقذ الكسيفا فعلا هو إعدام بريا بعد أن لفقوا له تهمة غامضة هى أنه جاسوس لحساب بريطانيا ..

وهى الآن جدة، وتعيش وحيدة، بعد أن اعتزلت العمل فى التليفزيون السوفيتى .. ويصر معظم الصحافيين الروس ورجال المخابرات السوفيتية الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة، وعملوا هناك على أ نينا الكسيفا هى نفسها الفتاة الصغيرة .. المربربة .. الملظلظة .. كثيرة الدهن ..مطفأة الذهن .. الأشبة بنساء استنبول أيام الباب العالى، التى استخدمها خرتشوف لإسقاط بريا ..

ولا دليل على صحة ذلك ..

لكن .. مهما كانت شخصية الفتاة التى استخدمت فى الإجهاز على بريا، فإنه فى النهاية سقط بيد فتاة صغيرة .. سقطت السلطة بيد المتعة وقد كانت السلطة رهيبة والمتعة باردة .. ومع ذلك كانت الهزيمة للسلطة.



المرأة التى علمت عبد الناصر

الغـــــزل

أحبها .. فقتلته.

كانت الأنثى الخالدة فى حياته .. وفى عروقه .. فترك العصمة فى يدها .. واستسلم لجاذبيتها .. وجنونها .. فلم تعطه فرصة ليتنفس .. أو ليتذوق متعة أخرى غيرها .. إنها امرأة شهوانية لا تقبل الرجل الذى يسقط فى هواها نصف وقته .. أو نصف جسده .. أو نصف قلبه .. لا تقبل منه أن يمرض .. أو يسخن .. أو يصاب بالسكر .. أو تضيق شرايينه .. إو الا يكون مستنفرا .. فى حالة تأهب دائمة للحب.

هو: جمال عبد الناصر.

وهى: السلطة.

إن المرأة فى حياة جمال عبد الناصر لم تزد على الخبز والملح والعشرة الطيبة والأولاد .. هى الزوجة الوحيدة التى لا شريك لها .. هى الأولى والأخيرة .. فلم تكن له زوجة ثانية مثل أبيه .. وعبد الحكيم عامر .. وانور السادات .. أما محمد نجيب ـ القائد الفترينة لثورة يوليو ـ فقد تزوج ثلاث مرات .. طلق الأولى وتزوج الثانية .. واسمها عائشة ـ بعد ٤٠ يوما .. وشعرت بالغيرة من إحدى قريباته ـ واسمها عزيزة ـ فتزوجها عقابا لعائشة على غيرتها .. وقد ماتت عزيزة قبل أن يموت هو بثلاثة أيام فقط .. وقد اعترف لى محمد نجيب ـ أول رئيس جمهورية فى مصر ـ بأن تعدد الزوجات فى عائلته «داء» .. أو «وراثة» .. فوالده يوسف نجيب تزوج مرتين .. «ولو طال به الأجل لتزوج الثالثة» .. وابنه الذى ظل على قيد الحياة ـ يوسف محمد نجيب ـ اصابه الداء نفسه أيضا.

لكن .. والد جمال عبد الناصر لم يتزوج من المرأة الثانية (عنايات مصطفى) إلا بعد ٧ سنوات على وفاة زوجته الأولى .. والدة جمال عبد الناصر .. السيدة فهمية حماد .. كان جمال عبد الناصر وقتها فى سنوات المراهقة .. طالبا فى المدرسة الثانوية .. فى القاهرة .. وكان والده وأسرته الجديدة فى السويس .. ولأنه بدأ يتفتح على أشياء مثيرة تتصل بالحياة العامة، فقد قلل جمال عبد الناصر من زيارته لوالده .. ويبدو أن ذلك عرضه لبعض اللوم من زوجة أبيه .. وكان أن بدأ جو الأسرة يتوتر.

وفيما بعد .. حاول خصومه استثمار ذلك للتدليل على أنه تربى فى أسرة غير سوية وأن علاقته بوالده لم تكن على ما يرام .. ونشروا حكايات مثيرة ـ لم يقدموا الدليل على صدقها ـ عن سوء معاملته لوالده، وتعمد إهانته، بعد أن أصبح حاكما وزعيما .. وكان المقصود البحث عن جذور القسوة والصرامة فى تاريخه وشخصيته .. وتصرفاته وقراراته .. لكنهم .. لم ينجحوا فى ذلك، كما نجح كاتب وصحفى متشدد فى إيمانه وإعجابه بجمال عبد الناصر هو شفيق أحمد على .. فتش فى التاريخ العاطفى للزعيم .. وكشف عن حبه الأول .. وربما الأخير .. وصاغ المفاجأة فى كتابه «المرأة التى أحبها عبد الناصر» الذى نشر منذ سنوات.

■ ■ ■ ■

فى ٢٨ مايو سنه ١٩٣٩، اعترف جمال عبد الناصر بهذا الحب، وسجله فى خطاب أرسله إلى صديق الطفولة حسن النشرتى .. قال: إنه انتقل إلى حى «الظاهر» .. وبينما كان يمشى وجدها .. ومن أول نظرة أحبها .. ووجد نفسه يدندن بأغنية محمد عبد الوهاب التى كانت شهيرة .. جفنه .. علم الغزل .. لكنه لم يصرح بهذا الحب مباشرة .. واكتفى بأن يقول لصديقه: «وطبعا أظنك تقدر تعرف إيه اللى جرى لى فى تلك الساعة» .. استكثر ان يقول بأنه أحب .. على أنه راح يبحث عن منزلها فى الظاهر .. «حتى عثرت عليه أخيرا، بعد جهد، وهو يقع فى شارع الخليج أمام سينما فيكتوريا».

كان حبه صامتا .. أخرس .. بالنظرات .. باللفتات .. بالصمت الرهيب .. فهل اشتعل فى قلبه الحريق ؟ .. وهل ضاع من قدمه الطريق ؟ .. أبدا .. «ويشهد الله بأنى لم أحاول تتبعها ولا معاكستها حتى أنزه نفسى عن عبث الشباب الحديث .. وحتى لا يقال عنها القيل والقال» .. وبما أنه عندى عمل بعد الظهر فى يومى السبت والثلاثاء فإننى أمتع نظرى باقى أيام الأسبوع.

أحبها على طريقة نزار قباني:

إن كان لا يمكنك الحضور يا حبيبتى

لأى عذر طارئ

سأكتفى بالرائحة

إن كان لا يمكن أن تأتى غدا ..

لموعدى

إذن .. تعالى البارحة

كان عمره ٢٢ سنه .. أما هى فكانت لا تزيد على ١٧ سنة .. طالبة فى مدرسة الفنون الطرزية بشبرا .. ولها أختان أكبر منها .. لا يمكن ـ حسب تقاليد تلك الأيام ـ أن تتزوج قبلهما .. وكان ذلك سبب رفض جمال عبد الناصر عندما تقدم للزواج منها.

صدم العاشق الشاب فى حبه .. سكن الحزن قلبه .. واستقر المجهول فى بيت عواطفه .. جاء الحب فى موعده .. لكنه رحل مبكرا .. سافر فى قطار التقاليد .. فبقى جمال عبد الناصر واقفا على المحطة .. هل انذبح ؟ هل نزف ؟ .. هل بعثرته الصدمة مثل السحابة؟ .. أغلب الظن أن ذلك حدث .. لكن .. مشكلة جمال عبد الناصر هى أنه لا يعترف بضعفه، ولا يستسلم له، لا يصرخ، ولا يشكو. ولا يلعن الزمن الذى حرمه من الحب .. لقد حمل صليبه ومضى فى الحياة .. وكأن شيئا لم يكن .. إنها بذور الصرامة التى أصبحت شجرة مثمرة بعد سنوات طوال، أصبح خلالها قائد ثورة، وزعيم أمه، ورئيس دولة.

إن الحب يقاسم الإنسان نصف طعامه .. ونصف فراشه .. ونصف أحلامه وافكاره ورغباته .. والذى يفشل فى الحب يكون فى الغالب حزينا .. متألما .. ويعيش نصف حياة .. ولم يكن جمال عبد الناصر من النوع الذى يعرف متع الحياة .. توقف عن التدخين بعد إصابته بمرض السكر .. ولم يكن أكولا .. فنجان شاى مع طبعات الصحف الأولى، يكمله فى الفراش وهو يجرى اتصالاته التليفونية بمساعديه .. فنجان شاى آخر فى حجرة المائدة بالصالة العلوية من البيت بجوار زوجته .. ثم يتناول إفطاره المكون من الفول المدمس والبيض المسلوق والجبن .. وفى الغداء خضار وسلاطة وقطعة من اللحم .. وفى العشاء فاكهة وزبادى.

ويروى لى محمد حسنين هيكل أنه فى أول رحلة على الباخرة «المحروسة» فوجئ بأن

جمال عبد الناصر يأكل «بامية» فى قاعة الطعام الرئيسية .. وفوجئ بأن طاقم المركب يأكل فى قاعة أخرى مالذ وطاب فى الطعام .. وسأل المسئول عن السبب «فقال: إنها «طلبات» الريس .. وأضاف الرجل: إنه مستعد لتقديم أصناف الطعام التى يشتهونها .. وتطوع هيكل ليقول للريس: إن فنون الطهى تطورت .. وأن المناسب لهذه الرحلة هو الأطعمة البحرية .. ولم يوافق عبد الناصر ولم يعترض .. لكن السكوت على ما يبدو فسروه على أنه علامة الرضا .. فامتلأت مائدة العشاء بأصناف من المؤكد أن عبد الناصر لم يرها ولم يتذوقها من قبل .. فراح يقترب منها بحذر .. وتناولها بملل .. وكأنه يضيع الوقت حتى ينتهى من حوله .. وبعد أن انتهوا فوجئوا بالسفرجى يحمل البامية إلى الرئيس.

وبعد إصابته بالكولسترول وتصلب الشرايين وضيق الأوعية الدموية أصبح لا يأكل سوى الخضار المسلوق بالزيت والليمون.

أصبح مثل برنارد شو نباتيا .. إن الأديب الإنجليزى الساخر كان يتجنب اللحوم والخمور والقهوة والدخان .. وقد فعل ذلك لأنه يعرف أن شهوات الإنسان تتأثر بطعامه إلى حد بعيد .. فلم يعد يفكر فى الجنس .. ولم يعد ينشغل بالنساء.

وطاقة الأديب ـ إذا لم تستوعبها المرأة ـ تذهب إلى الإبداع .. أما إذا كان حاكما فإن الطاقة تتحول إلى صلابة، وصرامة، وخشونة يشعر بها الناس. ربما بطريق غير مباشر .. بطريق أجهزة الأمن .. إن ديكتاتورية الحاكم تعويض عن فشله فى تذوق المرأة أحيانا.

■ ■ ■ ■

وفى أيامه الأخيرة حاول جمال عبد الناصر أن يحطم القشرة السميكة الصلبة التى عزلته عن الحياة، وكان يجد بعض الاسترخاء فى بيت أنور السادات .. وتقول جيهان السادات فى صفحة ٢٩٠ من مذكراتها «سيدة من مصر»: إنها فى اليوم الأخير من حياة جمال عبد الناصر، عرفت من زوجها أنه سيتناول طعام العشاء معه، فذهبت إلى المطبخ لتشرف على إعداد الطعام، وأخبرت الطاهى «بأن الرئيس سوف يتناول طعام العشاء» عندهم، واقترحت عليه طعاما وصفته بأنه «طعام بسيط» .. كباب .. ومحشى ورق عنب وسلاطة.

لقد انتبه مؤخرا، وبعد فوات الأوان بأن فى الحياة ما يستحق ان يستمتع به .. لكنه .. لم يعش ليفعل ذلك .. لقد تأخر كثيرا .. فعندما كان ضابطا فى الخرطوم، لم تعجبه «شقاوة» و «ألاعيب » بعض زملائه الضباط فى «معاكسة البنات» .. وكتب خطابا فى ٦ أبريل ١٩٤١ لصديقه حسن النشرتى يقول فيه:

«الضباط ياحسن كل واحد مختار له محل، علشان البنت اللى فى المحل .. وواحد مختار الأجزاخانة .. أما هذا الواحد فإذا دخلت حجرته فسوف تجدها عبارة عن مخزن أدوية .. كل يوم يذهب إلى الأجزاخانة ليشترى منها أى حاجة .. ومرة قال لنا إنه لم يشتر اليوم سوى أسبرينة واحدة فقط بقرش تعريفة .. ومع ذلك فقد وقف مع البنت البائعة فى الصيدلية نصف ساعة تساوى شلن .. وثانى يوم ذهبت إلى الأجزاخانة وقابلت البنت، فقالت لى: «إنتو كان عندكوا إيه إمبارح» .. كل الضباط جاءت واشترت أسبرين .. هو كل الضباط راسهم وجعاهم .. ولا إيه ؟!» شفيق أحمد على، المصدر السابق ص ٨٤.

لم يتعامل جمال عبد الناصر مع مثل هذه التصرفات بأنها تصرفات طبيعية لشباب فى الغربة، يخدم فى بلاد حارة، لم تكن تعرف الحياة الاجتماعية، وليس فيها من سبل الترفيه سوى الجلوس على شط النيل .. لم يكن يعيش سنه ولا جيله عندما وصف شقاوة زملائه بأنها «حاجة تكسف»!

ولا جدال أنه كان سيشعر بالفخر والزهو عندما يقرأ ما كتبه مراسل «تايم» فى القاهرة ولتون وين فى كتابه «البحث عن الكرامة» ..

يقول ولتون وين:

ـ نوع الشباب الذى كان يتميز به جيل جمال عبد الناصر .. هو ذلك الشباب الذى لا يفضل شيئا عن مظاهرة سياسية، أو فوضى فى الشارع، أو معركة مع البوليس .. لقد كنت أستاذاً جامعيا فى مصر، وفى أمريكا ومازلت أتعجب لهذا الفارق الهائل بين حياة الطلاب فى كلا البلدين .. فلذة الطالب المصرى بثورة وشيكة الوقوع أو بمظاهرة جماعية هى مثل لذة الطالب الأمريكى فى مشاهدة مباراة بيسيول .. أو فى غزو غرف نوم الطالبات وسرقة ملابسهن الداخلية ـ المصدر السابق ص ٦٩.

لقد كان جمال عبد الناصر قاسيا على نفسه وعلى عواطفه، فمات مبكرا .. دخل التاريخ .. وخرج من الدنيا.

صدمته العاطفية .. وفشله فى الارتباط بمن أحب، جعلت كل من حوله يبحثون له عن «عروسه» .. فكانوا فى الحقيقة يضغطون على الكسر الذى أصاب قلبه .. أو كانوا يرشون جراحه بالملح والليمون .. ولم يستجب لهم .. ورجاهم أن يتركوا مثل هذا الأمر للظروف.

وقد جمعته الظروف بصديقه القديم عبد الحميد كاظم .. وورث عن والده ورشة صغيرة لصناعة السجاد اليدوى .. ويرعى شقيقته السمراء، الوديعة، المحافظة .. «تحية» وفكر

جمال عبد الناصر أن يتزوجها .. إنه زواج مناسب .. محسوب بالعقل .. البيت طيب .. المستوى الاجتماعى متقارب .. والعروس تصلح لرجل من أصل صعيدى مثله .. ثم .. انه بدأ فى تأسيس تنظيم «الضباط الأحرار» ودخل امتحان مدرسة «أركان الحرب» .. ويريد أن يطمئن على حياته الخاصة ليتفرغ لحياته العامة .. لقد سحق عواطفه .. وبدأ مشواره معنا .. تمهيداً لأن يأتى زمانه .. ذلك الزمان الذى وصفه نزار قبانى بأنه بستان .. ووصف عصره بأنه أخضر .. ووصف ذكراه بأنه عصفور من القلب ينقر .. وأضاف: دخلت على تاريخنا ذات ليلة .. فرائحة التاريخ مسك وعنبر .. وكنت .. فكانت فى الحقول سنابل .. وكانت عصافير .. وكان صنوبرا .. لمست أمانينا فصارت جداول .. وأمطرتنا حبا ومازلت تمطر.

إننى أعتقد أن تحية لا ترغب فى الزواج من ضابط.

قال جمال عبد الناصر:

ـ أسألها؟

وبعد شهرين من الخطوبة تم الزفاف .. وكان فى ٢٩ يونيو ١٩٤٤ .. وكانت هديته الأولى لها جهاز «فونوغراف» ومجموعة اسطوانات محفورٌ عليها موسيقى وطرب، كان بعضها لسيد درويش .. ويقال أن «دبلة» الزواج كانت تحمل تاريخ أول مرة رآها .. لا تاريخ عقد القران كما يجرى العرف .. إن ذلك دليل آخر على رومانسيته .. ولم تنشر صورة الزفاف إلا بعد رحيله .. وإن كانت قد نشرت فى الصحافة الأجنبية وهو على قيد الحياة .. وأول صورة تظهر فى الصحف لزوجته كانت فى سنة ١٩٦٠، وفى العام السابق اصطحبته فى أول رحلة خارج البلاد .. وكانت إلى يوغسلافيا.

إنها كانت زوجة «موظف» بدرجة رئيس جمهورية.

فى مسرحية «حفل كوكتيل» يتحدث ت.إس. إليوت عن القلق الذى يصيب الرجال .. فيشير إلى نوع من القلق المزدوج يتمثل فى «الخوف من فقدان شئ ما والإحساس بتوقع هذا الفقدان» .. «فالرجل الغليظ الطبع قد يعانى من فقدان قدرته الجنسية فإذا رق طبعه قليلا، عانى من خوف فقدان القدرة على أن يحب، ويصبح محبوبا، وشغل ذلك الخاطر نفسه، فدفع به إلى تجارب ليثبت لنفسه من خلالها أنه مازال قادرا على أن يكون عاشقا ومعشوقا».

لكن .. هناك نوع آخر من القلق يصيب الحكام .. هو الخوف من فقد السلطة ..

والإحساس بتوقع هذا الفقد .. لذلك .. فإنهم يندفعون إلى تجارب، يثبتون من خلالها لأنفسهم أنهم مازالوا قادرين على أن يكونوا حكاما .. إن شهوة الحكم عندهم تتجاوز شهوة الجسد .. والرغبة فى السلطة تتخطى الحرص على الحياة.

ومنهم من هو بلا مطالب غير عادية تقريبا .. لا تغريهم الثروة .. لا يثير شهيتهم الطعام المتميز .. لا يميلون للصخب والمرح .. كل شئ عندهم لا طعم له ولا لون ولا رائحة إذا ما قورن بمتعة السلطة!

وقد كان نصيب جمال عبد الناصر من متاع الدنيا .. قليلا .. أم كلثوم تطربه .. أفلام الكاوبوى تسعده .. والتنس والتصوير أقصى ترف فى حياته .. ولا حياة اجتماعية بالمرة .. اللهم إلا مناسبات العزاء والعرس التى تخص الضباط الأحرار .. هكذا اتفقوا رغم كل شئ.

وحاول المحللون النفسيون فى الغرب التسلل إلى طفولته من خلال عزلته الاجتماعية، واداعوا أن هذه العزلة متأصلة فى وجدانه منذ سنوات حياته الأولى .. وصوروه طفلا، ثقيل الظل، حزينا، سوداوى المزاج عنيدا، غير رقيق، يعانى من عقدة «أوديب» .. حيث كره الأب وأحب الأم .. واستخدموا ذلك فى تفسير إصلاحاته ..

كما أنهم ادعوا أن علاقته بالمرأة لم تكن على ما يرام .. لذلك كان يسعده إهانة الرجال .. وتعذيبهم .. وقتلهم فى السجون.

وقد استخدم هذا التحليل فى معركة الغرب النفسية والسياسية ضده .. لكن .. الوجه الأبيض لهذا التحليل هو أن علماء النفس يضعونه فى خانة الشخصية « أ » .. وهى شخصية توصف بالعناد والطموح والإصرار على النجاح والموت فى سبيل الشرف .. وتوصف بالميل إلى معرفة الأشياء الصغيرة لأنها تعتبر مثل هذه الأشياء مفاتيح لأشياء كبيرة .. ومع أن البعض يموت منتحرا، والبعض الآخر يمتد به العمر طويلا فإن أصحاب هذه الشخصية يؤمنون فى قرارة أنفسهم بأن حياتهم قصيرة .. وعندما يبدأون عمل أى شئ يتصورون ان نهايتهما ـ هم والعمل ـ ستكون واحدة.

وكان جمال عبد الناصر على يقين بأنه سيموت مبكرا قبل: أن يصل إلى الشيخوخة.

كان يقول:

إن الذى يعيش نوع الحياة التى أعيشها ليس له أن ينتظر الشيخوخة وإلا كان يخرف.

ولمزيد من الأدلة والتفاصيل، راجع كتابنا: «عبد الناصر ـ اسرار المرض والإغتيال».

فى صباح يوم ١٧ مايو ١٩٧٠ شيعت جنازة الفتاة التى أحبها ولم يتزوجها جمال عبد الناصر .. تزوجت من مدرس بكلية المعلمين .. وأنجبت ابنا كان طالبا بتجارة عين شمس يوم توفيت .. وآخر كان فى المدرسة الثانوية .. وقد قرأ جمال عبد الناصر النعى فى جريدة «الأهرام» فوضع على عينيه نظارة سوداء .. وقاد سيارة صغيرة بنفسه أسدل ستائرها .. وتحرك بها عدة أمتار خلف الجنازة .. ودون حراسة .. ودون أن يشعر به أحد .. فيفسد عليه ـ على حد قول شفيق أحمد على .. جلال اللحظة .. لحظة وفائه للأمس .. وإخلاصه للحاضر .. ووداعه الأخير للمرأة التى خفق لها قلبه .. زمان .. ولم يحدث «نصيب».

وبعد رحيلها بأقل من خمسة أشهر .. بعدها بأربعة أشهر وأحد عشر يوما بالضبط .. لحق بها فى الآخرة .. لعل وعسى؟!

٨

الرئيس فوق الشجرة
وعشيقته على الأرض

خلع الرئيس ثيابه .. تمدد على رمال الشاطئ .. تأمل شمس الغروب ـ قبل أن تسقط فى مياه المحيط ـ واشعتها البرتقالية تموت على الجسد الممشوق الراقد إلى جواره .. فسال لعابه .. وانفجرت أنفاسه .. واندفعت النيران تسابق الدم فى عروقه .. وراحت الكلمات تتساقط كثمار المانجو الشهية من لسانه .. عيناك مطر .. ولؤلؤ .. ومحار .. بسببهما يخرج الليل من النهار .. شعرك مسئول عن سفر الضوء .. وتحريض العواصف .. جسدك يزرع الزهور والأطفال .. ويشعل الحرائق فى الغابات .. ويجعل النباتات تتسلق الجبال وناطحات السحاب .. أنت مسئولة عن الطبيعة .. عن تواصل الحياة .. عن زفاف الكائنات التى تفرح بالحب.

والرئيس هو .. جون كيندى .. أصغر رئيس حكم أمريكا .. لكنه لم يبق فى الحكم سوى ألف يوم .. ثم مات قتيلا .. ولا يزال الفاعل مجهولا.

والمرأة التى استحقت هذه الأوصاف هى: مارلين مونرو .. الأنثى الخالدة .. التى شاركت كل نساء الأرض فى أزواجهن دون أن تدرى.

والمصدر: آرثر ميللر .. الكاتب المسرحى الأمريكى .. اشهر وأصعب أزواج مارلين مونرو .. فى حديث نشرته مجلة «تايم» فى خريف ١٩٦٩ .. صاغ فيه بأسلوبه المتميز ما سمعه من مارلين مونرو عما كان يجرى بينها وبين جون كيندى .. وقد استطرد: إنها لم تشعر بالأمان إلا عندما عرفت جون كيندى .. هو لم يعرف معنى الأنوثة إلا بعد أن دخلت حياته ..

وقد فوجئ الناس برومانسية جون كيندى .. وبكلماته التى تقطر شعرا .. فقد كان

مشهورا بالسخرية من كل شئ .. حتى من نفسه .. وكان يقول إن الناس تعامله وكأنه عامل أسانسير .. أو موظف استقبال فى فندق .. وكان يردد أنه أصبح رئيسا بالصدفة .. وزوجا بالصدفة .. ورجلا بالصدفة .. إن شخصيته المرحة، جعلت الناس لا تصدق ما نشره آرثر ميللر عنه .. وعن نعومته .. لكنهم سرعان ما استدركوا .. واستطردوا .. إنها مارلين مونرو .. التى تفعل المستحيل.

ويبدو أن آرثر ميللر اعجبه رد الفعل، فظهر على شاشة إحدى محطات التليفزيون الأمريكية - بعد اسبوع واحد فقط - وهو يتنهد قائلا: «لو كان عقلها فى جمال جسدها لحكمت مارلين مونرو العالم».

والمقصود .. أنها مجرد أنثى .. جسد من الزبد .. وعقل فارغ .. خلايا مثيرة تتفجر رغبة .. وجهل مزمن بقوانين الحياة.

وقد اخطأ آرثر ميللر .. فقد حكمت مارلين مونرو العالم وهى بلا عقل .. حكمت بصوتها وخصرها وساقيها ورموش عينيها .. حكمته بجسدها .. فقد سيطرت بهذا الجسد على جون كيندى .. وجون كيندى سيطر على أمريكا .. وأمريكا تسيطر على العالم .. إذن فقد سيطرت على العالم.

لقد أحكمت جسدها على رقبة جون كيندى .. فافقدته عقله .. وقد روت أنه كان يخلع ثيابه، ويقف على الفراش .. ثم يقفز مثل لاعبى الأكروبات، ويقول: أنا نسر يجب أن أحلق فى السماء قبل أن انقض على الفريسة .. وكان عليها أن تلعب دور الفريسة .. وتنام على البلاط لينقض عليها! ..

وكثيرا ما طلب منها أن تتسلق شجرة فوقها كوخ مثل العش .. وهناك .. فوق الشجرة كان يشعر أنه أقوى الرجال فحولة .. وهو لم يكن كذلك .. بل إنه لم يكن يعرف كيف يستمتع بالمرأة .. وإن كان يعرف كيف يصطادها .. كانت متعته فى المطاردة والقنص فقط .. مثل الصياد الذى يصيب غزالة ولا يتذوق لحمها .. لذلك .. قيل إنه ساحر على مائدة العشاء، فاشل فى الفراش .. وقيل إنه دخل فى ١٥٠٠ علاقة نسائية، وأنه كان يشعر بالصداع لو مرت عليه ٢٤ ساعة دون أن يغازل امرأة .. لكن .. امرأة واحدة تزوجته هى جاكلين بوفييه .. وامرأة واحدة أحبته هى مارلين مونرو .. وكانتا من ضحايا البرود الجنسى .. فالأولى كانت تقول: إن الجنس يتراجع أمام الإحساس بالوجاهة الاجتماعية .. والثانية كانت تعتبر ذروة الجنس فى الحنان والأمان ..

وسر حالة جون كيندى، ما جرى له فى سنة ١٩٣٤ .. أثناء الحرب العالمية الثانية .. كان قبطانا لزورق طوربيد، أغرقه اليابانيون، فظل عائما ١٥ ساعة، وجائعا ٣ أيام، حتى أنقذوه هو ورجاله .. وقد أدى الحادث إلى خلل فى العمود الفقرى .. فشل فى إعادته إلى ما كان عليه بالتدخل الجراحى ٤ مرات على مدى ١٠ سنوات .. ولم يعد أمامه سوى العلاج بالكورتيزون .. والكورتيزون يشعر من يتعاطاه بكثرة برغبة جنسية زائفة .. تدفعه إلى مطاردة النساء .. لكنه لا يدفعه لأكثر من ذلك .. بل على العكس .. يحطم ما تبقى من غروره الجنسى.

وذات مساء حاول الاقتراب من زوجته .. فإذا بها تعتذر قائلة: كف عن الكورتيزون .. وفى ذلك اليوم انفصلا تماما .. فقد واجهته بعجزه وأحس بالإهانة .. فلم يمانع أن تذهب إلى الجحيم .. وكان أن اندفع أكثر إلى مارلين مونرو .. إنها الوحيدة التى أعادت الثقة إلى نفسه .. وإلى ما تبقى من جسده ..

إنه نفس سيناريو فاروق .. وزوجته الأولى فريدة .. وعشيقته المثيرة كاميليا .. إن فريدة كانت حب فاروق الأول والأخير .. لكنها كانت أيضا أول من فضح عجزه .. فانقلب العشق الملتهب إلى كراهية بلا حدود ووصلت الكراهية إلى حد أنه أنكر أن صغرى بناته «فادية» ابنته وكتب ذلك فى مذكراته، ونشره ..

كان فاروق لا يذهب مع النساء إلى آخر المطاف .. وفى عيد ميلاد الأميرة فادية، قالت له فريدة إنه إذا اقترب منها كزوج فإنها ستستقبله كمتطفل .. وقبل الولادة لفظته .. وحسب التقرير الطبى الذى كتبه الطبيب البريطانى الدكتو ب. هنرى، فإن فاروق ليس عقيما، وإنما يفتقد مقومات الشباب .. وأن الخلل فى جسده ليس طارئا، وإنما يعود إلى فترة ما قبل الزواج.

وقد طلبت فريدة الطلاق، فاستدعى فاروق شيخ الأزهر، وطلب منه فتوى تحرم زواج فريدة بعد طلاقها منه لكن شيخ الأزهر رفض، ودخل مستشفى المواساه للعلاج من مرض القلب ووجدها فرصة ليكتب مذكراته، وقد اختفت المذكرات فور وفاته فى المستشفى بعد الوفاة ودخل غرفة شيخ الأزهر بحجة الصلاة والترحم على روحه، وعندما خرج اختفت المذكرات.

أما مارلين مونرو الملك فاروق فكانت كاميليا .. وهى كومبارس يهودية من الإسكندرية .. اسمها الأصلى ليليان كوهين .. وقد أصبحت فيما بعد نجمة سينمائية شهيرة، ومثيرة

.. وكانت فى السادسة عشرة من عمرها عندما اكتشفت بذكاء انثوى حاد عيب الملك فاروق .. وتجاوزته .. ونجحت فى إقناعه بأنه أشد الرجال فحولة .. فكان يجد نفسه عندما يسمع صوتها فى الفراش .. وكانت تجد نفسها عندما تأمر فيطيع .. وهكذا .. اختلط العجز بالعهر .. والجنس بالفساد .. والدعارة بالسلطة .. والسهر بالسياسة .. ولم يعد فاروق يعرف الخيط الأبيض من الخيط الأسود .. ولا الفرق بين جناح زوجته وأوبرج الأهرام .. ولا بين كاميليا وفريدة !! ..

وفى الفراش الذى كان يجمع فاروق وكاميليا، كانت المخابرات البريطانية ثالثهما ..

فقد جندتها المخابرات البريطانية، وتركتها ترصد أنفاس فاروق، وتحصيها، وكان أن أصبحت عميلة من الطراز الأول .. وأغلب الظن أنها كانت تعرف أكثر مما ينبغى .. ومن ثم كان لابد أن تموت .. وقد انفجرت طائرتها فى الجو .. وتناثرت بقاياها فوق رمال صحراء مصر الغربية.

إن طراز فاروق، وجون كيندى من الحكام ـ الذين يعوضون عجزهم الجنسى باصطياد النساء على هذا النحو ـ يسهل على أجهزة المخابرات الدخول إلى غرف نومهم بواسطة النساء .. إنهم فى الفراش لا يملكون سوى قوتهم السياسية .. ومن ثم يعبرون عنها .. ولا يكفون عن سرد التفاصيل اليومية .. فهم لا يملكون قتل الوقت إلا بسيف الكلام .. كما أنهم لا يملكون وسيلة للسيطرة على المرأة فى هذه الحالة سوى إباحة اسرار الدولة لإثبات أنهم أقوياء ..

وقد رصدت أجهزة المخابرات فى العالم حالة الرئيس جون كيندى .. واخترقته من نقطة ضعفه .. فى عام ١٩٦٢، جندت مخابرات المانيا الشرقية امرأة خارقة الجمال هى «إلين فيمال رومتش»، كانت تعرف كيف توقع الرجل الذى تريده فى دقائق .. بثيابها، وصوتها، ولمسات أصابعها وقد عملت مغنية فى نادى «كوروم» ... وهو مكان يلتقى فيه السياسيون والدبلوماسيون والصحفيون والنواب .. يرتادونه بانتظام .. وقد دخلت فى علاقات متنوعة مع بعضهم .. وبعد أقل من سنتين كانت فى فراش الرئيس ..

وشمت المخابرات الأمريكية الرائحة فقررت التكتم عل ما جرى، واكتفت بطرد إلين رومتش من البلاد ..

قبل ذلك بحوالى ٤٠ سنة تورط جون كيندى مع فتاة كانت ملكة جمال الدانمارك، اسمها فيجوس، وكان ضابط فى البحرية .. ولم يكتشف ـ إلا فيما بعد ـ انها زوجة لرجل

من أصل سويدى، مقرب من هتلر، ومن جوبلز.

فى ذلك الوقت أيضا عرف صحفية دانماركية اسمها أنجا أرفاد، حامت الشبهات حول علاقتها الخفية بالمخابرات النازية.

إن كل امرأة عرفها بعمق كانت جسرا لجهاز من أجهزة المخابرات .. بما فيها المخابرات الأمريكية المركزية التى جندت من نجمات السينما اللاتى دخلن حياة الرئيس .. جام كاميل، وأنجى ويكنسون، وجين ما نسفيلد .. ومارلين مونرو ..

وفى تقارير المخابرات المركزية عنه: أنه كان يفضل السباحة عاريا وأنه كان يطلب من صديقاته أن يفعلن الشئ نفسه .. إنه يكره الثياب .. ويفضل أن يتحرك الناس حوله كما ولدتهم أمهاتهم .. وقد وضعته واحدة من أشهر صديقاته هى مارى بنشوماير فى موقف لا يحسد عليه، عندما وضعت ملفا على المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض فى داخله قطعه من ثيابها الداخلية .. ومرة أخرى وضعت قطعة مشابهة تحت وسادة جاكلين .. التى امسكت بما وجدت، وفتحت الباب على زوجها وكان فى اجتماع للأمن القومى، بسبب أزمة الصواريخ فى ممر الخنازير، وألقت به فى وجهة قائلة: ابحث عن صاحبة هذا الشئ فهو ليس مقاسى ..

كانت أزمة الصواريخ تهدد بحرب شرسة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، وكان مثيراً للدهشة وللاضطراب أن يترك مجلس الأمن القومى هذه الأزمة ليواجه بأزمة أخطر .. ثياب إحدى عشيقات الرئيس الداخلية .. إن الشعوب كثيرا ما تثق فى رجال دولهم أكثر مما يثق هؤلاء فى أنفسهم .. إننا نسلمهم مستقبلنا وهم يسلمونه لنساء المتعة .. ويصعب علينا أن نصدق أن رجلا من رجال السلطة يجلس تحت قدمى راقصة، يستحلب الإلهام من أصابعها .. ويمكن أن يلعب دور ساعى البريد ليحمل منها رسائل إلى أصدقائها فى دول أخرى .. أو أن يضع كل إمكانيات الدولة فى خدمة امرأة جذابة وقع فى هواها .. ولا تزال ذاكرتنا تحمل الكثير من الوقائع والتفاصيل ..

ومارى بنشوماير، يهودية، مطلقة، قدمت خدماتها لإسرائيل، عندما أرسلت عدة صور لجون كيندى عاريا معها فى الفراش، وهما يدخنان الماريجوانا .. وحاولت إسرائيل استخدام هذا الخنجر فى تهديد جون كيندى وابتزازه ليأخذ قرارا يمنع المعونات عن مصر .. لكنه لم يستجب .. فقد كان يحب أن يعرف الناس عنه أنه زير نساء.

وبعد حوالى سنة على مقتل كيندى اعلنت مارى بنشوماير أنها ستذيع على العالم

أسرار علاقتها الخاصة بكيندى .. وسيكون ذلك فى صورة يوميات، ورسائل متبادلة للغرام بينهما .. ولكن .. ذلك لم يحدث فقد قتلت مارى بتشوماير قبل أن تكشف ما عندها .. وقد اختفت المذكرات والخطابات.

■ ■ ■ ■

مارلين مونرو كان مصيرها أيضا القتل .. وقد قيل أنها انتحرت .. والأدق أنها أجبرت على الانتحار .. حتى لا تكشف هى أيضا ما عندها.

إنها لعنة القتل .. أصابت جون كيندى .. وأقرب النساء إلى قلبه وجسده ..

ومارلين مونرو مأساة انتهت بمأساة ..

فهى طفلة يتيمة .. لقيطة .. مجهولة الأب .. أمها مجنونة .. مدمنة كحول .. وقد تربت فى ملجأ .. وتعرضت لاعتداء جنسى من أحد حراس الملجأ .. وكانت على عتبة الأنوثة .. وجربت الفقر فى أسرة متواضعة الحال أخرجتها من الملجأ وتبنتها .. والمذهل أنها كانت تبدو مثل الفتيان .. وكانت لا تلفت نظر الشبان إليها .. كانت أنوثتها لا تزال مغمضة .. وقد تفتحت فى فراش زوجها الأول جيمس دوجلر .. وكان مجرد عامل بسيط .. لم يستطع أن يحقق طموحها فى المال والشهرة .. فرفض أن تعمل موديلا للمجلات العارية .. ولأنها أصرت فقد طلقها.

وتزوجت من بطل كرة السلة چويانكى .. كان لا يفهم شيئاً سوى الكرة .. وكان لا يهتم بشئ سوى عضلاته ولياقته البدنية .. وقد قالت له مرة: قبلنى ياغبى .. وصارت العبارة شهيرة فيما بعد .. وفى كوريا ذهبا لقضاء شهر العسل فى سنة ١٩٤٥، وهناك اشتركت فى حفل للترفيه عن الجنود الأمريكيين، وبينما كانت ترقص رفع هواء هب فجأة بشدة ذيل ثوبها ورفعه حتى غطى رأسها .. والتقط المصورون صورة .. وطبعت .. وبيع منها مليون نسخة فى ساعة واحدة .. وكانت السبب فى طلاقها.

ثم .. كان آرثر ميللر.

كان العقل، وكان الجسد، وقد مضى رحيق الجسد ولم تستطع أن تلتقط إشارات العقل، وكل ما قالته: إنه رجل رزين لا يقاوم أما هو فقد قال: إنك عندما تكون معها تكره أن تموت قبلها، إنها امرأة، امرأة.

وقد حاول أن يسحبها للحياة بعيداً عن هوليوود .. لكنها لم تصبر على ذلك طويلاً .. فعادت إلى الكحول .. وإلى قزقزة الجنس مع كل من يطلب التسلية .. فكان لابد أن يقع الطلاق.

لقد غلبتها طبيعتها البرية .. البدائية .. الاستوائية .. المزاجية .. واقنعت نفسها بأنها لو تغيرت فلن تكون نفسها .. فلو أخذنا من الغابة النمور والأشجار فلن تكون غابة .. ولو أخذنا من البحر المياه والأسماك فلن يكن بحراً .. ولو أخذنا منها الجنون والتهور والاستهتار فلن تكون مارلين مونرو .. إنها تحيا حين تندفع ناحية الحياة المثيرة الخطرة الأقرب إلى الانتحار .. ولو ابتعدت عن ذلك فإن الملل يغرقها .. والضجر يقضى عليها .. فكان من الأفضل أن تموت بالصخب لا بالملل .. أن تنتحر بالكحول لا بالضجر.

لقد أسعدت العالم دون أن تعرف طعم السعادة.

إنها مثل النهر .. عطشان وهو غارق فى المياه .. عطشان والكأس فى يديه .. إنه قدره أن يرتوى الناس ويظل هو فى حالة ظمأ مزمنة.

■ ■ ■ ■

وعرفت چون كيندى.

عرفته فى حفل خيرى وهو مرشح للرئاسة .. فلم تنزل عيناه من فوقها .. وأحست به وهو يحرقها بنظراته عن بعد .. وفى طائرته الخاصة اكتشف انه اكثر رقة مما يعتقد .. ولم يتردد فى أن يبوح لها بما فى صدره .. أحبك .. لقد جعلته يشعر بأن طفولته امتدت إلى ما بعد الأربعين .. وانها تختبئ فى كل امرأة أخرى يعرفها .. وقد سألته مرة:

ـ ماهى مهمتى فى الحياة ؟

فقال:

ـ أن تحبينى .

وسألته:

ـ لماذا لا تشعر معى بأنك رئيس ؟

فقال :

ـ انا لا أشعر بأننى رئيس إلا معك.

ـ وچاكلين ؟

ـ إنها موظفة فى البيت الأبيض بدرجة زوجة رئيس.

ـ إنها تبدو مثل انثى الزرافة.

ـ خطأ .. بل هى مثل ذكر الزرافة.

ـ كيف تتعامل معها ؟

ـ هى تؤمن بنظام «الأوفر تايم» .. فى حياتها الزوجية.

ـ لكنك لا تطيقها.

ـ أنا لا أطيق الدنيا.

ـ وأنا ؟!

ـ أنت وضعت فى يدى علبة كبريت لأشعل النار فى كل ما حولى.

ـ هل تعرف أن المخابرات حاولت تجنيدى ؟

ـ أعرف أنهم جندوك !

ـ طلبوا منى أن أعمل ضدك ؟

ـ إنها وظيفتهم.

وقد نشر هذا الحوار فى أهم وأدق كتاب فى «حياة چون كيندى» كتبه توماس ويفز ومايكل بشلوس .. وفى الكتاب .. إن كيندى اضطر ـ تحت ضغوط من كل جانب ـ أن يقطع علاقته بمارلين مونرو .. واستبدل رقم تلفونه .. ولم يعد يستجيب لإلحاحها .. فكانت أشد صدمة عاطفية تعرضت لها .. فهو الرجل الوحيد الذى أحبته!

وقد غادرت الحياة قبل الأوان.

وهو أيضاً.

واستمر فيها الذين اخترقوا الرئيس من ضعفه .. ثم تخلصوا منه .. دون أن نعرف بدقة من فعل ذلك.

واستمر فيها الذين اخترقوا الرئيس من ضعفه .. ثم تخلصوا منه .. دون أن نعرف بدقة من فعل ذلك.

على أن ذلك ضاعف من جاذبية الأسطورة .. أسطورة الرئيس الدون چوان .. وأسطورة مارلين مونرو .. الأنثى الخالدة.

مهما كانت الحقائق .. فالناس تفضل الأساطير .. لذلك لن يؤثر كل ما يكتب ويقال فى صورة چون .. ومارلين .. فالخيال أجمل من الواقع .. والسحر يسبق الحقيقة .. ولا أحد يمكنه تجاوز ذلك.

٩

جيهان السادات :

الرئيس والبودى جارد

لم تكن تحلم بحب مثل غيرها .. أو زوج تخيط له ثقوب ردائه .. أو طفل ينام على ركبتيها .. كانت تحلم بالحب البرق .. بالرجل ـ السوبر .. بالزواج من القوة .. من السلطة .. من السيطرة.

على عتبة الأنوثة بدت مثل اللؤلؤة التى تخرج من محارة الطفولة .. لكن .. فى أعماقها كانت ترى الحب جداراً بارداً .. والشعر حبراً جامداً .. والعواطف تماثيل سحاب سرعان ما تبعثرها الرياح.

فى ذلك الوقت المبكر، وجدت نفسها تتساءل: هل يمكن فصل الحب عن التاريخ؟ .. هل لابد أن ينتهى الزواج بالمرأة إلى الطلاق أو الترهل؟ .. لماذا لا يكون الرجل أسانسيراً تصعد به المرأة إلى المجد؟ .. وفيما بعد حصلت على الإجابة التى كانت تتمناها .. وترضيها.

إنها چيهان صفوت رؤوف .. وشهرتها چيهان السادات.

لا توجد امرأة فى مصر ـ طوال تاريخها الحديث ـ أثارت الإعجاب والغبار مثلها .. فقد أثبتت ـ على حد رصد محمد حسنين هيكل .. أنها قوة ضخمة فى حياة زوجها عندما كان يحكم مصر .. «وكانت عاملاً دافعاً وراءه» .. و «كان استعداده الطبيعى الموروث للخضوع للقوة تعوضه كمية الطاقة المتحكمة الكامنة فيها».

إن الحب عندها لا يتسكع فى الشوارع أمام الفاترينات .. ولا يشرب عصير البرتقال على النيل .. ولا ينتظر فى قاعات الترانزيت عقد عمل فى إحدى إمارات النفط .. الحب عندها يفهم فى السياسة .. ويجيد لعبة السلطة .. ويهوى المناورة .. ولا يتنازل عن الحكم

إلا بالعنف .. برصاص الاغتيال.

وقد قابلتها بعد اغتيال زوجها .. كانت لا تزال بملابس الحداد .. بلوزة من الحرير، وجوب من الصوف، وچاكيت من التريكو .. منتهى الأناقة باللون الأسود .. مع طاقم من الفيروز فى لون السماء كسر الحزن، وضاعف الأناقة .. وكان لابد أن أسألها عن سر هذه القوة التى تسبق تصرفاتها .. وكان لابد أن تقول: إنها من عند الله.

لقد رفضت أن تصرخ لحظة إغتيال زوجها. وتركتهم ينقلونه إلى مستشفى القوات المسلحة فى المعادى، وراحت إلى بيتها لتجرى بعض الاتصالات التليفونية الخارجية .. وأصرت على أن يلقى أولادها نظرة أخيرة على جثمان أبيهم فى ثلاجة المشرحة وأن يقبلوه .. ورفضت أن تغطى رأسها فى الجنازة لأن تليفزيونات الدنيا ستركز عليها .. ولم تدفن زوجها ـ حسب وصيته ـ فى قريته «ميت أبو الكوم» ودفنته فى مكان أغتياله حتى لا ينساه الناس والزعماء.

إنها امرأة من طراز مختلف .. ولابد أن تكون عواطفها كذلك.

وچيهان اسم فارسى يعنى العالم .. ويبدو أن الاسم بهذا المعنى كان .. تعويذتها السحرية .. وخرزتها الزرقاء .. لكن .. الأهم من السحر والحظ .. القوة .. وقد ورثتها من أمها الإنجليزية جلاديس تشارلس كوتريل .. وورثت عنها الجمال أيضاً .. كانت الأم ترفض أسلوب التربية على الطريقة المصرية .. التى تفسد الأطفال من شدة الخوف عليهم .. كانت تصر على أن تقوم ابنتها وحدها إذا وقعت على الأرض، وكان لا تزال طفلة .. وكانت تجبرها على النوم بلا ضوء .. وكانت تدفعها كل ليلة إلى حديقة البيت المظلمة السوداء بمفردها، ثلاث مرات حتى تعتمد على نفسها وتتعلم الأتخاف.

كذلك ..

فإنها تعلمت من أمها ـ المولودة فى شيلفد ـ إن المرأة ليست عورة يجب سترها فى المطبخ أو تحت السرير .. وأنها ليست رهينة الرجل أو مطيته أو مزرعته الخاصة التى يمارس فيها عقدة «السيد» فى عصر الإقطاع .. وأن علاقة المرأة بزوجها ليست «علاقة عقارية» .. فيها استئجار وامتلاك ومبادلة بشقة أخرى .. وأن الرجولة ـ عكس ما هو سائد ـ لا تقوم على كسر ضلوع الأنثى أو كسر رقبتها.

إن أمها هى مفتاح شخصيتها.

لكن ..

شئ ما فى أعماق چيهان كان يشعرها بانها ستكون متميزة فى المستقبل .. وكانت وهى طفلة تقول:

ـ سوف أفعل شيئاً خارقاً عندما أكبر.

وفى مذكراتها تروى قصة أصبحت شائعة عن عراف أمسك بيدها، وتفرس كفها، ثم قال:

ـ ستصبحين ملكة مصر!

كانت قد تزوجت من أنور السادات .. وكانا يبحثان عن أجرة البيت فأغرقا فى الضحك .. ولم يمنحا العراف سوى القرش الأخير فى جيبها.

ولا يترك هيكل هذه الرواية تمر دون التعليق عليها .. فهو يقول: إن النبوءة التى سمعتها چيهان تركت أثراً على نفسها .. ليس معنى ذلك أنها صدقت ما سمعت «وإنما معناه أنها كانت فى أعماقها مستعدة للتصديق إذا واتتها الفرصة يوماً .. كانت چيهان دائماً طموحة، وكانت مستعدة أن تبذل كل جهد وراء طموحها، ومما لا شك فيه أنها كانت جميلة وكان جمالها يعكس ألوان أمها الأجنبية، ومن المحتمل أن تكون قد ورثت ذكاءها من والدها المصرى، وإن كان هذا الذكاء لم ينعكس كثيراً على غيرها من ذريته».

ويقول هيكل: إن چيهان لم تعجب أنور السادات لأنها فتاة جميلة فقط، وإنما كان أشد ما أعجبه فيها، أنها ناصعة البياض .. فقد كانت عقدة لونه ـ الأسمر الأقرب إلى السواد .. تتملكه بشدة!

أما چيهان فقد أعجبها أنور السادات لأسباب أخرى لا علاقة لها بالوسامة والأناقة ومواصفات نجوم السينما التى كانت البنات فى سنها تقتبسها من الأفلام وهى ترسم صورة فتى الأحلام فى ذلك العصر.

■ ■ ■ ■

كان عمرها ١٥ سنة عندما وجدته أمامها.

لم تصدق نفسها.

فهو بطل كل أحلامها قبل أن تراه .. وكانت تصوم من أجله قبل أن تعرفه .. كانت الصحف تنشر صورته وقصة محاكمته وهروبه بعد مشاركته فى عملية اغتيال أمين عثمان .. وزير المالية الأسبق .. الذى دفع حياته ثمناً لعبارته الشهيرة: إن علاقة مصر ببريطانيا مثل الزواج الكاثوليكى لا يمكن فصلها!

لقد أحبته وهو صورة مطبوعة على ورق الجرائد .. كان معلوماً مجهولاً .. مسكوناً بالأسرار .. قادراً على قلب النظام .. فوقعت فى هواه عن بعد .. إن الحب استنفار لمشاعر المرأة .. وخصائصها .. وقد وجدت جيهان نفسها مسكونة بذلك المغامر الجرئ الذى يقتل، ويهرب، ويرسل الإشارات اللاسلكية لروميل فى الصحراء الغربية .. سيطرت عليها صورة السوبر مان الذى يقفز فوق القطارات، ويختبئ فى صناديق سيارات الشحن، ويخترق نقاط الحدود، ويلبس طاقية الإخفاء، ويخدر فرقة من رجال الأمن بسحر كلامه.

هذه هى صورة أنور السادات التى سكنت عينى جيهان .. وهى صورة كانت تناسب إحساسها بالتميز .. وبالقوة.

كان السادات يكبرها بخمسة عشر عاماً. وكان متزوجا، ومعدما، وبلا وظيفة، لكنها احست أنه رجلها الذى تهواه .. كان متعبا .. مثل أسد عجوز .. مثل قرصان أرهقته الغزوات .. لكنها أصرت عليه .. اعترف لها بأن أحلامه جريمة .. وانتصاراته هزيمة .. وأنه ليس أكثر من جريدة قديمة، فتمسكت به أكثر .. أوحى لها بأن نصف حياته ستكون زنزانة .. والنصف الآخر سيكون تحت الحراسة .. فردت عليه .. إن الحياة أعلى درجات التورط .. والذى لا يتورط لا يعيش !.

ان من الظلم أن تكون عقدة اللون هى التى جعلت أنور السادات يختار جيهان .. بل هو تجاوز للحقيقة أن نقول أنه هو الذى اختارها .. والصحيح أنها هى التى اختارته .. ورفضت الارتباط بضابط آخر كان فى الخدمة وأصبح فيما بعد رئيسا لحزب معارض .. إن هذا الإصرار جعل السادات يشعر بالزهو .. وجعله يقاون بين زوجته وبين جيهان .. إن زوجته الأولى كانت قروية .. لم تحظ بقسط من التعليم .. وكانت ابنه عمدة «ميت أبو الكوم» وكبيرها .. كما كانت تكبره بسبع سنوات .. وأغلب الظن ان زواج السادات منها لم يكن لأسباب عاطفية وإنما لأسباب اجتماعية .. وقد قال السادات لجيهان وهما يمشيان على شاطئ الإسماعيلية فى أيام الحب الأولى ..

«لقد وددت كثيرا أن تشاركنى زوجتى حياتى وأحلامى لكنها لم تقدر أن تفهم، ولم تكن هذ غلطتها».«

وفى أثناء وجوده فى السجن عام ١٩٤٦ بتهمة إغتيال أمين عثمان احس بالحاجة إلى الحب .. فطلب من زوجته أن تكف عن زيارته .. كان يريد أن يعرف مشاعره .. ولون دمه .. وهوية قلبه .. وقد قرر بعد أن تحرر من السجن أن يتحرر من الزواج .. إن زوجته بدت

فى عينيه مثل عود النعناع الذى جف .. مثل بركة ماء راكده غطتها الطحالب الشيطانية المتطفلة .. وقد بحثت عنه فلم تجد منه سوى أجزاء من أجزاء .. وفى ذلك الوقت قدمت إليه چيهان أعواد النعناع الأخضر الطازجة .. فشمها بعمق .. ووضعها فى قلبه برفق.

جاءت چيهان لتبدد أحزانه .. لتدخل مثل السكين فى شريانه .. لترسم له خطوط ومنحنيات فنجانه .. وقد كانت أكثر جرأة منه .. إنها قادرة على التعبير عن مشاعرها بصراحة .. أما هو فظل حتى مات محافظاً .. فلم يستطع أن يقول لها: أحبك .. إنه لم ينطق بهذه الكلمة أبداً .. كانت تقول له فى عناد وإصرار:

ـ أريد أن أسمع هذه الكلمة منك ولو مرة!

لكن خجله كان يمنعه من أن يفصح.

وقبل أن تتزوجه لم تكن تتردد فى أن تقول لابنة عمتها!

إننى أحب هذا الرجل .. ماذا أفعل ؟.

وتستطرد چيهان فى مذكراتها : « لقد كنا أنا وأنور نفعل ما كان بعد أمراً غير مألوف فى مصر فى ذلك الوقت، فقد كنا على علاقة حب ونخرج معا بدون أى ارتباط رسمى .. لم نستطع السيطرة على أنفسنا ولا على عواطفنا .. وملأ الحب قلبينا» .

ذات مرة قال لها:

ـ اخشى أن تتورطى.

ـ سأبقى معك مهما كان الثمن.

ـ أنت صغيرة وعندما أصبح خريفا ستكونين ربيعا.

ـ أحبك بغض النظر عن الفارق بين عمرينا.

ـ أنا من حزب الجحيم والرماد .. لى زوجة وأطفال وأنت سنبلة ذهبية.

ـ أنت الذى اخترتك للحصاد.

ـ أنا خارج من السجن ولا عمل لى .. الحب وحده لا يكفى .. والجوع سيجعلك تكفرين به.

ـ سنكون شخصاً واحداً هذا كل ما يهم.

ـ لا عقد سأقدمه لك ولا أسورة ولا زجاجة عطر.

ـ فى يوم ما سأحصل على أكثر مما تحصل عليه النساء.

ـ لا مفر.

ـ لا مفر.

■ ■ ■ ■

أصرت جيهان أن تتزوجه فاستسلمت أسرتها بعد مقاومة .. وفى يوم الخطوبة ارتدى السادات ـ وكان لا يزال مطرودا من الخدمة ـ ملابسه العسكرية .. وكان تعليق أشقائه : «كيف عثر شقيقنا المحظوظ على فتاة بيضاء مثل چيهان؟» .. وفى ٢٩ مايو ١٩٤٩ أصبحت چيهان رؤوف ..چيهان السادات.

ـ وفى يوم زفافى صحوت فى الفجر أستمتع بالشئ الهادئ الوحيد الذى سيتحقق، وبدأت اقرأ سورة يس وأنا أرقب الشمس وهى تمزق الضباب فوق نهر النيل، ولم أتذكر أنى شعرت بمثل هذه السعادة من قلبى .. لقد تزوجت الرجل الذى أحبه .. وهذا شئ لا يعرفه إلا القليلات من صديقاتى .. وقد شعرت زميلاتى فى المدرسة بالدهشة حين أخبرتهن وعرضت عليهن صورة أنور السادات، وبدأن يسألننى:

ـ هل هو غنى ؟

ـ لا يجد قوت يومه.

ـ هل يتولى منصباً كبيراً ؟

ـ ليس عنده وظيفة.

ـ إذن لماذا تزوجتيه وهو اكبر منك سناً ؟

ـ لأننى أحبه.

اكثر من ذلك .. اقترض السادات ثمن خاتم الزواج من والد چيهان، ولم يدفع مهراً، وكان مؤخر الصداق ١٥٠ جنيه .. وهو ما جعل چيهان تقول للسادات فيما بعد: «لقد أخذتنى بلا ثمن» .. كررته هذه العبارة فى وقت كانت تحكم فيه مصر .. وتجلس على خزائنها .. وتمسك بمقاليدها .. وتسيطر على كل شئ فيها .. وكان كل ذلك مهرها الذى أخذته بعد ٢٢ سنة من الزواج .. لقد كسبت اليانصيب .. دفعت قرشاً وكسبت الملايين .. وحولت الحب إلى تاريخ ..

■ ■ ■ ■

وقفت كطفل عنيد أمام ثياب زوجها الراحل .. تأملت النياشين والزركشات والنسيج الذى شرب دماء القتيل .. جاء صوت شيخ يلقى خطبة الجمعة ليحاسبها على مافات ..

«إن زوجات الرسول التزمن بحرمة بيتهن، ينظفن ويطبخن، وأرملة زعيمنا تبعث بطائرات الهيلوكبتر لتحضر لها الخضروات والفواكه الطازجة» .. حمل سكرتيرها أحمد فوزى صحف المعارضة ووضعها أمامها .. العناوين صارخة .. تقول: إنهم أوقفوها فى المطار بحقائب مملوءة بالذهب .. وأنها سرقت آثار المتحف المصرى .. وأن عملها فى الجامعة غير قانونى .. وأنها تملك ١٥ بيتاً و ١٥ سيارة مرسيدس .. وكادت چيهان السادات أن تنهار .. راحت تتجول بشكل قلق فى جنبات البيت .. فقدت طاقة الخروج .. لم تعد قادرة على التركيز .. فرض مشهد الاغتيال نفسه عليه .. أصبح كابوساً .. ظلت تسمع صوت النفاثات تطير فوق رأسها، وصوت الرصاص، والصراخ .. وصوت كل ما حدث فى ذلك اليوم الحزين .. ووقفت أمام صورة زوجها .. وبصوت غاضب راحت تقول:

ـ أين أنت ؟ أين أستطيع أن أجدك ؟ أريد أن أتحدث إليك ! ثم .. فى أعماقها أضافت:

ـ إنى أحبك .. قبل وجود الحب نفسه.

وانهمرت دموعها كالرخام السائل .. وكان من الصعب أن توقفها.

وأحست لأول مرة أنها تريد أن تنطق، أن تحطم أحزانها، أن تجرب انفعالات الزمن القديم .. زمن البنات فى المدرسة الثانوية.

■ ■ ■ ■

بعد سنة من الأحزان سافرت إلى أمريكا .. لكنها .. لم تنج من الشائعات .. إنها لا تزال تسبب الأرتكاريا الصحفية .. لا تزال تغرى بالنميمة .. وكانت النميمة القاسية أنها تزوجت من حارسها الخاص أحمد سعودى .. وقد نفت ذلك .. وقالت: لقد زوجونى بالشائعات خمس مرات .. إننى لن أتزوج بعد أنور السادات.

لكن .. نفيها أغرى بمزيد من النميمة .. فأحمد سعودى يرافقها كظلها فى كل مكان تذهب إليه .. السوبر ماركت .. السينما .. مباريات البيسبول .. حفلات الأصدقاء .. ويبدو أن ذلك جعل خيال الناس يدور أسرع، ويتجاوز ماهو معلن إلى ما هو غير معلن .. ولأنها عنيدة فقد رفضت الاستجابة لأى فضيحة بتغيير هذا الوضع.

وقد نشرت صحف وكتب متنوعة أنها تزوجت .. «البودى جارد» سراً .. وأنها تتكتم الخبر حتى لا يتغير لقبها من چيهان السادات إلي چيهان سعودى .. وحسب ما نشرته هدى الحسينى فى مجلة «الصياد»: إن الذين يعرفون چيهان السادات يرجحون أنها تزوجته لأنها ذكية وحريصة .. ويقولون إنه إذا كان هذا الشخص يحتل جزءاً من الفيلا وهى غير

متزوجة منه فهذا أمر يسئ إليها.

من هنا يرجحون أن چيهان المشهورة بالعند والذكاء لابد أن تكون سمحت بالحلال للضابط الكبير المتقاعد بالدخول إلى الفيلا.

ويبدو أن هذه الشائعات قد وجدت صداها حتى عند أنصار السادات .. وهكذا .. طالب إبراهيم سعده ـ فى مقال شهير نشره فى «أخبار اليوم» ـ أبناء السادات أن يسارعوا بوضع «حد لتصرفات وأقوال» أمهم فى أوروبا وأمريكا وكندا .. «ولست أشك لحظة واحد فى أبناء الرئيس الراحل يعانون ـ فيما بينهم ـ من تلك التصرفات ومن صداها الذى يسئ كثيراً لذكرى والدهم العظيم ويعطى الفرصة كاملة لأعدائه لمحاولة تشوية تلك الذكرى والطعن فى أمجاده وتضحياته ومواقفه البطولية .. واعتقد أن ما أطالب به أولاد الرئيس الراحل الآن سوف يعفيهم من الحرج ويشجعهم على سرعة الاتصال بوالدتهم واقناعها بأن مكانها بينهم وأنهم يرفضون تصرفاتها وأقوالها وتصريحاتها حرصاً على ذكرى والدهم ومنعاً لإحراج الذين مازالوا يحرصون على سمعته وكرامته ومجده».

لكن ..

لم تستجب چيهان السادات لنداء إبراهيم سعده .. وعلقت على ما قال:

ـ ربما يكون عنده فراغ .. يمكن .. يمكن !

لقد استقرت چيهان السادات فى أمريكا .. وطن الكاوبوى والهوت دوجز والمخابرات المركزية .. خلعت السواد .. ارتدت الألوان التى تخطف الأبصار .. امتلأت كثيراً .. زحف الزمن على بشرتها .. لم يبق لها سوى الذكريات .. ذكريات ملكة فى العصر الجمهورى .. اسمها چيهان السادات .. وشهرتها شجرة الدر.

١٠

شريط جنسي

لماركوس فى الجامعة

حذفت اسمها من قائمة العشق ووضعته فى قائمة الطعام .. شطبته من دليل سيمفونيات الموسيقى واضافته إلى دليل متاحف الشمع حيث الزعماء والقتلة والأدباء واللصوص حيث مارلين مونرو .. وريا وسكينة .. وكيندى .. وديجول .. والسادات .. وآل كابونى .. حيث الشمع نهاية كل المشاهير.

إنها امرأة مثيرة ومسيطرة .. جذابة ومتسلطة .. من يلمس لحمها كمن يكبش جمرة مشتعلة .. والتورط فى علاقة معها كالتورط فى عملية تجسس، أو تهريب، أو اغتيال، أو سطو مسلح .. ينتهى فى محكمة الجنايات .. كل من عرفوها ذاقوا فى لحظة واحدة طعم الفراولة والليمون .. الكريز والكونياك .. الشيكولاتة والشطة .. كل من عرفتهم لوحتهم لخبطتهم .. لعبت بحاسة الوقت عندهم .. جعلت الظهر فجراً .. والسبت خميساً .. واكتوبر أمشيراً .. والخريف شتاء .. وعبثت بقواعد الحساب .. فالزائد إنقلب إلى ناقص .. والقسمة تحولت إلى ضرب .. والنسبة المئوية أصبحت عمولة .. أو عروسة .. أو سلطة تحكم الشعب فى الصباح .. وتلعب فى الفراش ليلاً.

هى .. إيميلدا ماركوس.

المرأة التى جمعت بين السحر، والغموض، والسلطة، والشهرة، والثروة، والجرأة، والقسوة .. وأعلنت أقوى حكومة فى غرفة نوم .. فى زماننا.

فى السبعينات كانت حكومة الصين تساعد ثوار الفلبين بالمال والسلاح، فطارت إلى بكين، وعانقت ماوتسى تونج .. وطبعت قبلة على خد شواين لاى .. وعادت إلى بلادها

وهى تحمل وعداً بألا تتدخل الصين فى شئون الفلبين الداخلية.

فى ديسمبر ١٩٨٠ تأزمت علاقات الفلبين بأمريكا، فطارت إلى نيويورك، ونزلت فى الشقة المجاورة لشقة رونالد ريجان ـ وكان على وشك تولى السلطة .. فى فندق «والدورف استوريا»، واجتمعت معه بحضور نائبه چورج بوش أربع ساعات، واتفقت معه على إعادة المياه بين البلدين إلى مجاريها .. لتصبح العلاقات كما كانت .. مثل السمن على العسل.

وبعد ٣ سنوات تأزمت العلاقات من جديد .. وبدت واشنطن كمن نفض يده من الرئيس الفلبينى فرناند ماركوس .. زوجها .. فدعت وزير الخارجية الأمريكية چورج شولتز للحضور إلى مانيلا .. العاصمة .. وفى المطار وأمام عشرات المستقبلين، انحنى شولتز على يد إيميلدا وقبلها .. ثم .. عانقها .. وبعد أن شعر بالدفء، قال للصحافيين: «إن صداقة أمريكا والفلبين لن تضعف ولن تتبدل.

ودعت البابا لزيارة الفلبين ليحضر الاحتفال بالعيد الفضى لزواجها وعندما ذهبت إلى الفاتيكان قالت للبابا بولس السادس:

ـ إن الرب هو المحبة .. وأنا أحب أنا أحب المحبة .. انا فى حب دائم .. لذا سأذهب بعد وفاتى إلى الجنة .. أليس كذلك ياسيدى البابا ؟.

واغمض البابا عينيه وقال لها وكأنه يداعبها :

ـ ما أحلى كلامك أيتها الطفلة.

إنها امرأة مشكلة .. والمرأة المشكلة هى التى تفرض حضورها .. إنها برق .. زلزال .. طوفان .. بركان .. فيضان .. وألف سؤال.

وصفها ناصر الدين النشاشيبى بأنها جميلة حتى السحر .. أنيقة حتى البساطة .. طموحة حتى الخطر .. جريئة حتى الموت .. تعمل بلا تعب .. وتتعب بلا سبب .. وتنظم الشعر، وتؤلف الأغانى، وتدبر المؤامرات، وترقص حتى مطلع الفجر.

وقد قالت له:

ـ إن حياة المرأة فى حبها .. وحبها فى حياتها!

ـ وأنت ؟

ـ حياتى أنا أيضاً هى الحب.

ـ هذه رومانسية ؟

ـ بل واقعية .. فالله خلق الحياة مناصفة بين الرجل والمرأة .. منح الرجل القوة .. ومنح المرأة الجمال .. ولا معنى للجمال بلا قوة .. ولا قيمة للقوة بلا جمال.

إن التى تقول هذه الجمل الأشبه بالشعر، والخطابات الغرامية .. هى أغنى امرأة فى آسيا .. وواحدة من أغنى ١٠ سيدات فى العالم .. وثروتها تزيد على ١٥ مليار دولار .. وتملك ٤٥ قصراً ومنزلاً فى الفلبين واستراليا وهونج كونج واليابان وأمريكا .. وتملك ٣ طائرات خاصة .. وحوالى ٣ آلاف زوج من الأحذية .. ومجنونة مجوهرات .. وعندما احتفلت بعرس ابنتها «إيرين» ـ فى سنة ١٩٨٣ ـ أحالت الزواج إلى عيد وطنى .. وأنفقت على الفرح ١٢ مليون دولار، وأقامت مدينة جديدة تليق بالمناسبة .. وأجلست العروس فى مركبة مصنوعة من الفضة الخالصة .. ويجرها عشرة خيول عربية نقلتها طائرة خاصة من المغرب .. وفى تلك السنة أشارت الإحصائيات إلى أن ٤٢ ٪ من سكان الفلبين يعيشون تحت خط الفقر .. وأن ١٥ ٪ من النساء يعملن فى الدعارة .. وأن ٧ ٪ من الأطفال غير شرعيين .. أولاد حرام.

إن عاصمة بلادها .. مانيلا .. هى مدينة الخطيئة والرذيلة فى العالم. لكن .. إيميلدا ترد على ذلك بقولها .. إنه الحسد الذى تحمله العواصم المجاورة لعاصمتنا .. إن مانيلا تشبه الفتاة الساحرة التى لها ألف عشيق وألف حسود.

وسألها النشاشيبى:

ـ وما هو سر هذا الجمال الساحر الذى تتمتع به فتاة الفلبين فى العالم ؟

فقالت :

ـ نحن خليط من الدم الأمريكى والأسبانى والصينى .. نحن عصارة أجناس التاريخ الطويل !

■ ■ ■ ■

ولدت إيميلدا فى چراچ وعاشت طفولة بائسة .. لكنها .. رغم الفقر كانت جميلة .. كانت مثل قطعة الماس فى كيس قمامة وقد التقطها بأصابع خبيرة رجل ثرى .. يشتغل بالمال والسياسة .. تبناها .. وعلمها .. وسمح لها أن تقول إنه عمها .. واكتشف أن صوتها سوبرانو .. مزيج من الفضة والأمطار الاستوائية .. فقدمها للغناء .. وفيما بعد قالت:

«أنا أغنى، لأننى أحب الحياة، وأكره النوم، لأنه يبعدنى عن الحياة» .. ثم .. استطردت:

«مايميزنى عن غيرى أننى .. أنا» !

قبل الصوت .. الصورة .. إنها أنثى ملساء كالبللور .. تحتمل حماقات الرجل .. وتحرض غريزته عليه .. وتغير خريطة الحلال والحرام .. وهى قادرة على فرض الإقامة الجبرية داخل جسدها .. ويمكن فى لحظات الغضب أن تصبح أظافرها مشارط .. وضفائرها مشنقة .. وعندما حكمت ٦٠ مليوناً فى الفلبين كان أدق وصف لها: إنها امرأة حديدية تدير الحكم بقفاز من حرير.

فى أبريل ١٩٥٤ كان عمها يرأس البرلمان وقد ذهبت لزيارته فى الجلسة المسائية التى امتدت إلى منتصف الليل وهناك قابلت ماركوس لأول مرة وبعد نصف ساعة من اللقاء طلب منها الزواج وبعد ١١ يوماً فقط تزوجا.

كان ماركوس فى ذلك الوقت زعيم الأقلية .. أو المعارضة .. وقد بدأ حياته السياسية مبكراً .. كان عمرة ١٨ سنة عندما اتهم بقتل منافس والده فى انتخابات البرلمان .. وقد قُبض عليه .. وفى السجن أكمل دراسته القانونية .. وتولى الدفاع عن نفسه .. وحصل على البراءة .. لكن .. دماء السياسى القتيل ظلت تطارد سمعته حتى آخر العمر.

تقول إيميلدا عن ماركوس .. إنه رجل مجرب.

ويقول هو عنها فى خطاباته الغرامية لها .. إنك امرأة تعطى الرجل الفرصة كى يمشى فوق الماء .. تجعلينه يدخل فى لحم الأشياء .. هذا اللحم الذى يتكلم سبع لغات ..أما أنا فاحترف الإصغاء .. أحبك .. لا أعرف لماذا ؟.. كيف أفسر ما لا يـُفسر؟

لكن .. رغم كل هذا الحب فإنه لم يتردد فى خيانتها .. وفى كتابه المـمتع، وراء كل ديكتاتور امرأة .. ينشر أنور محمد فضيحة ماركوس الممثلة الأمريكية دوفى بيمز .. جاءت إلى مانيلا لتمثل دوراً فى فيلم يروى قصة حياة ماركوس لتصبح صورته أجمل فى عيون العالم.. وفى اللقاء الأول صارحها بحبه .. ولم يوقع لها عقد البطولة إلا فى الفراش .. واحتفظ بها عشيقة فى فيللا بإحدى ضواحى مانيلا .. وأثناء سفر إيميلدا فى رحلاتها الخارجية كانت دوفى بيمز تنام على فراشها فى قصر الرئاسة «مالا كاتانج» الذى دخله ماركوس عندما تولى السلطة فى ٣٠ ديسمبر ١٩٦٥.

تقول دوفى بيمز فى مذاكراتها التى نشرتها مجلة «بيبول» الأمريكية .. إن ماركوس كان يجيد لعبة الفراش لكنه كان رغم براعته لا يجيد التعامل مع امرأتين فى فترة واحدة .. لذلك أعطى ظهره لزوجته عندما أصبحنا عشيقين .. وصل مع إيميلدا إلى نقطة الصفر

.. وصل معها إلى ذروة اليأس «حيث السماء رصاص .. والعناق قصاص .. والجنس أقسى عقاب» .. لم يعد يجيد القراءة فى شفتيها .. وفقد طريقة إلى فراشها .. وأصبحت علاقتهما خراباً.

لكن إيميلدا تريد السلطة لا المتعة .. تريد ماركوس الحاكم لا العشيق .. لذلك راحت تفتش عنه وعن دوفى بيمز .. وقد أزعجة ذلك فقرر التخلص من الممثلة الأمريكية التى قررت أن تفضحه .. اعتقلها البوليس السرى .. واعتدوا عليها جنسياً .. وعرضت عليها إيميلدا ١٠٠ ألف دولار كى تلتزم الصمت .. ولكن المبلغ لم يرضها .. خاصة أنها سجلت شرائط لماركوس وهو يمارس الجنس معها .. وأضافت هذه الشرائط إلى الوثائق والمستندات والتقارير السرية التى سرقتها من مكتب الرئيس إلى جانب بعض ملابسه الداخلية.

فى مؤتمر صحفى عالمى فى مانيلا أدارت دوفى بيمز شريطاً من هذه الشرائط .. إن من سوء حظ ماركوس أنه لا يمارس الجنس إلا بصوت مرتفع .. وهو يتحدث فى الشريط عن بقايا الأظافر .. ونزيف الفم .. وشظايا الأسنان على النهدين .. وهناك عبارة يكررها كثيراً .. «ماذا تفعلين؟ ماذا تفعلين؟» .. ولا نملك الجرأة على ترجمة نص الشريط الذى نشرته مجلة «لوى» الفرنسية .. لكن من السهل أن نقول إن طلبة الجامعة أذاعوا الشريط فى محطة إذاعتهم .. وإن المعارضة التى كان يتزعمها بنينو اكينو استغلته استغلالاً سياسياً وإعلامياً مذهلاً.

كادت أن تدفع دوفى بيمز حياتها ثمناً لما فعلت .. فقد أرسلت إيميلدا فرقة اغتيالات من ١٠ رجال لقتلها بعد أن سافرت إلى هونج كونج .. لولا انتباه البوليس البريطانى فى هونج كونج لكانت بيمز فى حساب القتلى.

أخطر ما فى إيميلدا أنها تستخدم أنوثتها المغطاة بالبراءة فى إسالة لعاب أقوى حكام العالم .. فهم فى النهاية بشر .. يفضلون التفاوض مع امرأة مثلها عن الجلوس منفردين فى حجرة مغلقة مع امرأة مثل جولدا مائير .. وتعرف إيميلدا ذلك جيداً .. وتقول «أنا لست جولدا مائير .. أنا امرأة جميلة .. جذابة» .. هكذا ببساطة وجرأة وصراحة .. وقد وصفت الرئيس السوفيتى الأسبق بريچنيف بأنه طفل «لقد رأيته سعيداً بأوسمته وهو يعرضها أمامى وكأنه صبى يداعب لعبته الملونة».

ووصفت وزير الخارجية الأمريكى الأسبق هنرى كيسنجر بأنه بلاى بوى «أهبل» ..

لقد تصور أن قبلة يخطفها من شفتيها هو ثمن باهظ تدفعه مقابل أن تدعم الولايات المتحدة زوجها «إننى قبلته كما يقبل الجليد النار .. وقد تصورت أنه لن يكتفى بذلك .. لكنه اكتفى فكان أن ضحكت فى سرى من تواضع رغباته».

وسألها النشاشيبى:

ـ وماذا عن الدئيس ماو ؟

أجابت :

ـ اعظم ما فيه إنسانيته، لقد تناولت معه الغداء فى بكين وعندما ودعته أخذت يده ورفعتها على رأسى، تماماً كما جرت العادة فى بلادنا عندما نودع رؤساء الدول .. وإذا به يرتعش، وعندما استعاد تماسكه أخذ يدى ووضعها على رأسه وقال ضاحكاً لقد تعلمنا هذه العملية من رؤساء دول أفريقيا عندما يزورون بلادنا .. إنهم يرفعون يدنا على رؤوسهم .. فنرفع أيديهم على رؤوسنا !

وبجانب الرؤساء كانت إيميلدا على علاقة مع نجوم الفن والسينما فى العالم .. كان أقربهم إلى قلبها نجم هوليود چورچ هاملتون.

ولكن .. مهما كانت هذه العلاقات فإنها كانت تصب فى النهاية فى غريزة السلطة التى كانت أشد التهاباً عند إيميلدا من غريزة الجنس .. فهى زوجة الرئيس .. وسلاحه السرى .. وتريد أن تكون نائبه الذى يرث الحكم .. وهى السيدة الأولى .. وعضو فى البرلمان .. ووزيرة الخدمات الإنسانية .. ومفتاح المقاولات والمناقصات والشركات وشبكات العمل السرى.

وقد انزعجت عندما انهارت صحة زوجها خلال السنوات الخمس الأخيرة من حكمه .. إنها أصعب سنوات مرت بها .. وهى تحكم من خلال زوجها فماذا تفعل وزوجها لم يعد قادراً على الحكم ؟ .. لم يكن أمامها سوى أن تشكل حكومة من حكومات غرف النوم .. فطلبت من زوجها تعديل المادة «٦١» من الدستور .. لتصبح القوانين بموجب المادة الجديدة قرارات .. أو تصبح القرارات بقوة القوانين .. وهكذا حكمت نيابة عن زوجها الذى كان يوقع على قرارات كانت تصدرها هى .. وكان عليها أن تواجه البرلمان والمعارضة والشارع الذى يمتلئ بالمظاهرات.

■ ■ ■ ■

كان بنينو اكينو أبرز معارض لماركوس وزوجته .. وقد قبض عليه فى خريف ١٩٧٢ .. بموجب الأحكام العرفية وفى السجن أضرب عن الطعام وكاد أن يموت ..

وفى خريف ١٩٧٧ حكموا عليه بالموت رمياً بالرصاص .. وقبيل التنفيذ تدخل الرئيس الأمريكى چيمى كارتر طالباً العفو عنه .. على أن يغادر البلاد .. وهو ما حدث .. حيث سافر هو وأسرته للعيش فى منفاه فى مدينة بوسطن الأمريكية .. وهناك بدأ يحرك المعارضة الفلبينية نحو أعمال العنف التى هزت نظام ماركوس كثيراً .. وتقول زوجته كورازون:

- إن أكينو لم يكن إرهابياً كم صورته إيميلدا فى الصحف والمجلات وشبكات التليفزيون التى اشترتها بالمال .. بل على العكس .. كان شاعراً يؤمن بالحرية ويغنى لها .. وقد كتب قصيدة طالبنى فيها أن أكف عن القلق .. لأنه:

سيأتى نهار أحبك فيه ..

لا تحزنى لو غربت الشمس ..

أو اختفى القمر ..

أو انقطع المطر ..

فلابد أن يتغير لون السماء ..

ولابد أن يستدير القمر ..

ولابد أن ينهمر المطر ..

ليروى أرض بلادنا العطشى للحرية ..

لكن الشعر وحده لا يكفى للتخلص من طاغية، فاسد، لم يهزمه المرض، بل زاده قسوة، وأثر على قواه العقلية، بعد أن امتد تأثير الفشل الكلوى المزمن الذى يعانى منه إلى المخ .. بجانب القصيدة لابد من القنبلة .. وبجانب الزهور لابد من الرصاص .. هكذا نفذ رجال أكينو عملية كبرى فى مانيلا، فى شتاء ١٩٨٠ كادت أن تقتل ماركوس نفسه.

واستمرت عمليات التفجير والاغتيال أكثر من ٣ سنوات .. راحت بعدها إيميلدا لتقابل أكينو سراً لتساومه .. وقد طلب منها العودة .. لكنها حذرته من القتل .. على أنه بتحريض من المخابرات الأمريكية قرر العودة .. وفى يوم السبت ٢٠ أغسطس ١٩٨٣، هبطت طائرته فى مطار مانيلا .. واكتشف رجال الأمن أنه يرتدى قميصاً واقياً من الرصاص .. وقبل أن تلمس قدمه الأرض انطلقت رصاصة من الخلف، لتصيب رأسه ..

فسقط غارقاً فى دمائه .. وانطلقت رصاصة أخرى لتقتل القاتل .. على طريقة اغتيال كيندى.

ويقسم مدير المخابرات الأمريكية الأسبق وليم كيسى أن ماركوس برئ من دم اكينو .. ولكن عندما سأله الصحفى المعروف بوب وود ورد عن دور زوجته إيميلدا فى الجريمة .. يقول: إنها امرأة جميلة .. والمرأة الجميلة لا تنسى الإهانة .. وقد أهانها اكينو، واتهمها بالفساد المالى والخلقى .. ثم إنها امرأة قوية .. والمرأة القوية لا تهدأ إلا إذا شمت رائحة الدم .. إنه أشد تأثيراً عليها من رائحة البرفان.

ـ هل يصل انتقامها إلى حد القتل ؟

ـ انتقام من ؟

ـ إيميلدا ماركوس ؟

ـ إننى أتحدث عن المرأة الجميلة .. القوية بشكل عام.

ـ فهمت !

فى سنة ١٩٨٥ كان على المخابرات الأمريكية أن تبحث عن بديل لماركوس، بعد أن أفقده المرض السيطرة على نفسه تماماً .. وكان البديل إما چنرال فى الجيش يقوم بانقلاب عسكرى لصالح واشنطن .. أو زعيم مدنى يقوم بانقلاب ديمقراطى من خلال الانتخابات لصالح واشنطن أيضاً .. واختار رونالد ريجان الحل الثانى .. واجبر ماركوس على إجراء إنتخابات الرئاسة فى فبراير ١٩٨٦ قبل موعدها بعامين .. وقرر أن تكون انتخابات نزيهة .. أى قرر أن يسقط ماركوس.

وحرمت المخابرات الأمريكية على إيميلدا أن تدخل الانتخابات بدلاً من زوجها التى توقعت هى الأخرى فشلة .. وفى مقر المخابرات المركزية فى لانجلى قابلها وليم كيسى .. واعتذر بنعومة عن الاستجابة لطلبها .. ولكنها غضبت .. وصرخت .. وضربت المكتب بيدها .. قائلة:

ـ لا أحد يمنعنى ولا الشيطان من ذلك.

فمد وليم كيسى يده فى هدوء إلى كيسى من البلاستيك فى داخله مجموعة شرائط فيديو قدمها لها قائلا:

ـ شاهدى هذه الشرائط قل أن تتخذى قرارك.

- هل .. فيها .. أو ..

- إنها ستسعدك فى الشيخوخة عندما لا يبقى للمرأة سوى ذكرياتها الحلوة القديمة.

- أنه ابتزاز .

- بل إنذار .

- لكن كورازون اكينو سترشح نفسها .

- يكفى امرأة واحدة .

- انا اكثر جمالاً وذكاء منها.

- هى أكثر براءة .

وخرجت «ملاك آسيا» ـ حسب وصف الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون ـ مهزومة من واشنطن .. وخرج زوجها ـ بعد فوز كورازون اكينو فى الانتخابات ـ مهزوماً من مانيلا .. سافر إلى منفاه فى الولايات المتحدة فى ٢٥ فبراير ١٩٨٦ .. وبعد حوالى ٣ سنوات مات فى هونولولو .. واحتفظت إيميلدا بالجثمان حتى توافق كورازون اكينو بدفنه فى الفلبين .. وفى صيف ١٩٩٣ جاءت الموافقة.

وسافرت إيميلدا والجثمان إلى مانيلا .. كانت ترتدى السواد، وإن لم تنس أن الموضة هى الميني چوب .. كذلك لم تنس أن تضع حول رقبتها كوليه من الماس ليبرق فى لون الليل أو لون الحزن الذى ترتديه .. إنها امرأة مثيرة مسيطرة حتى آخر العمر .. حتى القبر .. حتى نهاية الدهر.

١١

عشيقة نيكسون

التى هزت عبد الناصر

وصفها بأنها حورية من البحر، اختارت أن تعيش على البحر.

فقالت له :

ـ إن حوريات البحر فى حالة عرى كامل صيفاً وشتاءً .. لذلك فان الأساور والخواتم والساعات المطعمة بالماس لا تثيرهن .. ولا تعنى لهن شيئاً إن رشوة حوريات البحر مهمة مستحيلة.

كان قد اقترب منها وهى تجلس على ضفة نهر «بدرناليس» القريبة من مزرعته فى تكساس، ووضع يده على كتفها، وغازلها بصوته الخشن، المخنوق، الذى كان مثل صرير الأبواب الحديدية الصدئة، ثم فتح علبة من القطيفة الزرقاء لتبرق فى بطانة من الحرير ساعة من البلاتين، مرصعة بالماس، قدمها لها .. للحورية التى هربت من البحر واستقرت على البر.

لكنها .. رفضت الهدية الثمينة .. وتحدته أن يقدم لها الرشوة المستحيلة .. وقد استفزه التحدى .. فهو الرئيس الأمريكى ليندون چونسون .. الرجل الذى يحكم العالم .. ولا يعرف المستحيل .. ويشير إلى أى شئ فيأتى له راكعاً .. اما هى .. فعشيقته الساحرة .. التى تحب رائحة الشياط تحت ثياب الچنرالات والوزراء، ماتيلدا كريم.

كانت الرشوة التى تريدها ـ كحورية بحر تعيش على البر ـ أن تعود للبحر .. ولكن ليس أى بحر .. إنها تريد البحار التى تطل على سيناء التى تاه فيها اليهود أهلها .. والتى يحلمون بالسيطرة عليها .. وكان ذلك فى صيف ١٩٦٧ ، قبل أسابيع قليلة من هزيمة

يونيو .. إن سيناء كانت ربوة المتعة الذى طالبت به ماتيلدا الكاوبوى العجوز، القبيح الذى كان يحكم البيت الأبيض وكان عليه أن يدفع هذا الثمن لينال القبول.

وفى دراسته الهامة، المتأنية، المدعمة بالوثائق عن حرب يونيو يقول الباحث الأمريكى دونالد ديف: «إن من سوء الحظ أن الرئيس الأمريكى چونسون أسلم نفسه لمشاعر امرأة متحيزة هى ماتيلدا كريم فى ساعات عصيبة، ومعقدة بعوامل وأجواء أزمة دولية خطرة» .. المصدر: هيكل - الانفجار ص ٦٠٠.

وتصفها مجلة «بيبول» الأمريكية بأنها «امرأة خارقة الأنوثة .. جاذبيتها لا تقاوم .. تجمع بين الجمال والحيوية .. إنها امرأة مباشرة كطلقة المسدس .. متوهجة كالسيف .. لا يعرف الرجل الذى يهواها متى تعانقه، أو متى تخنقه».

أما مجلة «تايم» فقد اكتفت بالقول: إنها امرأة متعبة .. مزاجية .. متسلطة .. لا تقبل أن تعيد كلمتها مرتين.

وتجاوزت مجلة «بلاى بوى» حدودها كالمعتاد .. وقالت عنها: «إنها محاربة بالجنس .. مقاتلة بالإثارة .. تطلب اللجوء السياسى لغابات صدر الرجل .. وتنام بين صراخ العروق .. وصراخ الذئاب».

■ ■ ■ ■

ولدت ماتيلدا فى سنة ١٩٢٧ .. كانت فى الأربعين من عمرها يوم طلبت من چونسون أن يعلق شواطئ سيناء كعقد من الفيروز حول رقبتها .. لكنها .. كانت تبدو أصغر من ذلك بكثير.

الأب كاثوليكى سويسرى، والأم يهودية إيطالية .. وقد أخذت من الأب العقلية الدقيقة، المنظمة .. وأخذت من الأم الفتنة، والجاذبية، والدماء الساخنة، التى رشحتها للعمل فى هوليوود لمنافسة صوفيا لورين ولكنها رفضت وفضلت أن تعيش حياة مختلفة.

ويقول هيكل: إن تأثير الأب والأم معاً يبدو انه قد «منحها جاذبية لا تقاوم بشهادة الذين عرفوها عن قرب».

ويستطرد :

«وكانت حياتها حافلة .. فقد انفصل والدها عن أمها أثناء طفولتها، والحقت هى بمدرسة داخلية كاثوليكية .. ولم تقض غير سنوات فى هذه المدرسة حتى غادرتها

وظهرت فى روما .. ثم اختفت من روما لتظهر فى إسرائيل ملتحقة بمعهد وايزمان «لعلوم الطبيعة» وواقعة فى غرام شاب من أعضاء جماعة شتيرن ـ الانفجار ص ٦٠١.

الشاب اسمه ديفيد دانون، وكان الرأس المدبر لحادث اغتيال اللورد موين، وزير الدولة البريطانى فى الشرق الأوسط، والمقيم فى القاهرة، والمسئول عن توفير مطالب قوات الحلفاء كافة فى المنطقة، أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان عمره وقتها حوالى ٦٨ سنة .. وكان الهدف من الاغتيال إجبار بريطانيا على التسليم بالمطالب الصهيونية فى فلسطين.

لقد ساهم ديفيد دانون فى التخطيط لعملية الاغتيال، وكان قد فعل ذلك بتكليف مباشر من إرهابى سيصبح فيما بعد رئيساً لوزراء إسرائيل هو اسحق شامير، وقد نفذ العملية شابان كانا من أقرب الأصدقاء إلى قلب دانون هما إلياهو حكيم «وانتحل اسم بورنشنين ثم اسم موسى كوهين» وإلياهو بن تسورى «وانتحل اسم حبان» .. وقد تسللا من فلسطين بأوراق جنديين بريطانيين .. كانت مزورة .. ووصلا فى أول فبراير ١٩٤٤ .. وفى صباح يوم ٦ نوفمبر ١٩٤٤ استأجرا دراجتين، انطلقا بهما إلى دار اللورد موين بالزمالك. ووقفا بجانب الباب الخارجى للحديقة، وكل منهما يحمل مسدساً. وفى الساعة الواحدة والربع تقريباً أقبلت سيارة اللورد موين يقودها العريف آرثر فولر، وبجانبه الكابتن هيوزانسلو ـ ياور اللورد ـ وفى المقعد الخلفى مس دورثى أوزموند .. وبمجرد أن وقفت السيارة بدأ إطلاق النار .. وفى المستشفى، بعد ساعات، مات اللورد متأثراً بجراحه .. وبواسطة رجل بوليس شجاع اسمه محمد عبد الله أمكن القبض على الشابين اليهوديين، بعد مطاردتهما فى ضاحية الزمالك التى كانت هادئة .. وقد حُوكم القاتلان .. وحكم عليهما بالإعدام .. وبالفعل شنقاً.

كان ديفيد دانون قد أصر على متابعة المحاكمة وتنفيذ الإعدام فى سجن الاستئناف بالقاهرة .. وقد أصيب بصدمة نفسية حادة جعلته يعتزل العمل الإرهابى السرى.

ويتفرغ للدعاية السياسية للقضية الصهيونية.

ويقول هيكل: «وفى ظروف معركة فلسطين ١٩٤٨ عاد دانون إلى الخدمة فى قوات الهاجاناه .. وفى ذلك الوقت تزوج من ماتيلدا التى تركت الدين الكاثوليكى وأصبحت يهودية ومقاتلة صهيونية متحمسة».

ويواصل هيكل الرواية :

ـ ومات دانون بعد ذلك فى ظروف غير معروفة، وبعد سنوات قليلة ظهرت ماتيلدا فى

نيويورك، واستقرت فى الولايات المتحدة .. وهناك تزوجت من رجل أعمال أمريكى يكبرها سناً بكثير هو آرثر كريم .. وتحولت المقاتلة الجميلة إلى سيدة مجتمع .. بدأ نجمها يلمع فى نيويورك وواشنطن.

وتعرف ليندون جونسون على الزوجين فى الفترة التى كان فيها نائب رئيس لكيندى .. وربما كان أول ما جمعهما معاً هو الحماسة الزائدة لإسرائيل .. فقد كان معروفاً أن جونسون صديق حميم لإسرائيل، كما أن ماتيلدا كانت تعتبر نفسها صهيونية بالكامل .. وقد روت مرة أن جونسون قال لها فى أول مرة قابلها بعد اغتيال كيندى:

«إننى أعرف أنكم تعتبرون كيندى صديقاً لإسرائيل .. وهذا صحيح ولكن قولى لأصحابنا أن إسرائيل فقدت صديقاً فى البيت الأبيض وربحت صديقاً أفضل منه فى نفس المكان».

ولم يتضح عمق العلاقات بين جونسون وبين ماتيلدا إلا عندما أصبح جونسون رئيساً .. وتركزت جميع الأضواء عليه وعلى حركاته وسكناته، وعلى الذين يقابلهم ويختلط بهم باعتبار أن الرئيس هو بؤرة الاهتمام وملتقى الأضواء فى العاصمة الأمريكية .. وكانت ماتيلدا فى ذلك الوقت تقترب من الأربعين .. وقد وصل جمالها إلى ذروته وأكسبتها التجارب المتنوعة خبرة فى ترويض الرجال.

وكان أصدقاء جونسون، وكذلك صفوة من معاونية يعرفون تأثير ماتيلدا عليه .. وكانت هى وزوجها معه على الغداء أو العشاء أكثر من مرة فى الأسبوع فى البيت الأبيض .. كما أن إجازاته بما فيها أيامه التى يقضيها فى مزرعته فى تكساس كانت جميعها فى صحبة ماتيلدا .. وكان مغرماً بركوب الخيل معها .. وكان يقوم بنفسه باعداد الباربكيو «شواء اللحم» ويترك نفسه على طبيعتها.

وكان مكتب الاتصالات فى البيت الأبيض وكل العاملين فيه يعرفون أن تليفونات ماتيلدا للرئيس لا يمكن ردها أو تأجيلها مهما كانت مشاغل الرئيس .. وتسجل دفاتر المحادثات التليفونية فى البيت الأبيض أن تليفونات ماتيلدا كان لابد من تحويلها إلى الرئيس حيث هو حتى ولو كان فى اجتماعات مجلس الأمن القومى، وكذلك كانت هى الشخص الوحيد - إلى جانب مستشاره للأمن القومى - الذى يملك سلطة إيقاظ الرئيس من نومه إذا طلبت ذلك.

وفى معظم الليالى التى كان جونسون غير مرتبط فيها بعشاء رسمى فقد كان موعده

المفضل لتناول العشاء مع ماتيلدا .. وعندما تقتضيه الظروف أن يذهب إلى نيويورك فقد كان يذهب كل ليلة ليكون فى صحبة ماتيلدا .. فى الشقة الفاخرة التى تعيش فيها مع زوجها فى مانهاتن ـ المصدر السابق ص ٦٠١ ، ٦٠٢.

■ ■ ■ ■

فى البيت الأبيض، كانت زوجة جونسون لا تعترض على تصرفات زوجها .. فهى لا تصدق أنها السيدة الأولى .. ولا تصدق أنها أصبحت أخطر وأقوى امرأة فى أمريكا .. وقد قالت عن نفسها: إنها مثل متفرجة حملوها إلى خشبة المسرح لتقوم بدور البطلة فى مسرحية لم تتدرب عليها .. بل ولم تقرأ النص.

ويكشف أنيس منصور فى كتابه «السيدة الأولى» ما يضيف إلى هذه الصورة الكثير من الألوان والظلال .. ويقول «ص ١٤٦ ـ ١٥٠» إنها عندما ولدت وصفها الأطباء بأنها صغيرة الحيوية كالخنفساء .. والتصق بها هذا الاسم: ليدى بيرد .. ولكنها كانت تكتبها كلمتين بدلاً من كلمة واحدة: ليدى .. بيرد.

وعندما أصبحت السيدة الأولى ندمت على أنها لم تغير شيئين: اسمها وأنفها.

وهى طفلة يتيمة احتضنتها خالتها .. وعلمتها قراءة الأدب وتذوقه ولكن لم تعلمها كيف تسوى شعرها أو ترتدى فستاناً تمشى ألوانه مع الحذاء والحزام .. لذلك .. لم تكن أنيقة .. ويوم اغتيال كيندى استعارت فستاناً أسود من إحدى صديقاتها .. ثم أعادته إليها دون غسيل أو مكوى .. فهى حريصة أو بخيلة .. تحسب كل شئ بالورقة والقلم .. والألم أيضاً.

وكانت هى التى تكتب خطاباتها على الآلة الكاتبة وهى التى تلقى بالخطابات ـ فى مكاتب البريد ـ أيضاً.

وكانت تحتاج إلى أن ينبهها أحد إلى أنها سيدة البلاد وليس عليها إلا أن تشير فتفتح أبواب السماء والأرض، ويصبح البعيد قريباً والمستحيل ممكناً، وكانت تطلب من سكرتيرتها أن تقرصها من حين إلى حين لكن تعرف من هى وماوصلت إليه.

وكان من أحلامها أن تكون صحفية .. ولكن لم تعجبها الصحافة لأنها «تلخبط» حياة المرأة .. وتجعلها مشردة فى الشوارع ليلاً ونهاراً .. وتجعلها تعيش على السندوتشات، وهى ـ على عكس الشعب الأمريكى كله ـ لا تحب السندوتش .. إنها تحب أن ترى الطعام

فى الأطباق على المائدة .. وأن تجلس، وتأكل، وتمضغ، وتستطعم على مهل . ولكن دراستها تؤهلها لأن تكون مدرسة .. واختارت مهنة التدريس لأنها من الممكن أن تعيش بعيداً .. فى الشمال .. فى الآسكا .. أو فى أقصى الغرب .. وفى جزر هاواى .. وبعد أن تعمل بعيداً .. وفى هدوء سوف تختار زوجها على مهل .. وفجأة فشل كل هذا التخطيط .. فقد تحدث إليها شاب فى بلدها .. طويل .. عريض .. كان يعمل سكرتيراً لأحد أعضاء الكونجرس .. قابلها .. جلست إليه .. استعرض كل تاريخ حياته .. قال: إنه فقير .. وغلبان .. وعنده طموح .. وبسرعة أدخلها فى حياته .. فوجدت نفسها تفكر فيه من أجله .. وبعد ثلاثة شهور من المكالمات التليفونية .. والخطابات .. طلب إليها لقاء عاجلاً .. وقال لها:

ـ نتزوج غداً ؟

ثم استطرد:

ـ ما رأيك ؟

ووجدت نفسها تقول:

ـ موافقة .

ولم تعرف بالضبط ما الذى أعجبها فى جونسون ولكنها معجبة به عموماً.

إنه مثل كل رعاة البقر ملئ بالحيوية والخشونة .. قوى الذاكرة .. لا ينسى الإهانة .. ويتذكرها دائماً ويتوعد .. ثم ينتقم فى هدوء .. وهو يعتبر أن جمال عبد الناصر قد أهانه عندما أعلن أن على أمريكا أن تشرب من البحر .. وأن أمامها البحر الأحمر إذا لم يكفها البحر الأبيض .. فسجل اسمه فى نوتة صغيرة، كان يكتب فيها أسماء من سيرد لهم الإهانة.

لكنه .. لم يتردد فى إهانة الآخرين .. حتى أقرب الناس إليه ..زوجته .. كان ينتقدها أمام الناس .. فيقول لها: جوربك سقط إعدليه .. أو يقول لها: هذا الفستان يجعلك كالفيل .. غيريه!

وفى مؤتمر صحفى قال:

ـ عندى صداع .. فقد أمضيت لية وردية مليئة بالأظافر الحادة فى كتفى وظهرى!

واندهش الصحفيون .. ولكن هذه الصراحة غير العادية شجعتهم أن يسألوها عن الورد والشوك فى فراش الرئيس .. فقالت: إن نكت الرئيس مثل نكت رعاة البقر خشنة!

لكنها أحست بالألم .. فلم تكن الليلة الوردية معها .. ولم تكن الأظافر التى حفرت كتف وظهر زوجها أظافرها .. وإنما أظافر امرأة أخرى أغلب الظن .. إنها ماتيلدا كريم .. التى أحست بأن جسدها لا يساوى أى شئ مقابل أن تكسر أنف جمال عبد الناصر .. وتحتل إسرائيل سيناء.

■ ■ ■ ■

فى أيام الذروة من أزمة مايو ١٩٦٧ .. والتى سبقت الحرب بقليل كان كل أصدقاء إسرائيل فى مؤسسات القرار الأمريكية يعرفون الطريق إلى قلب ليندون چونسون .. وكان تركيزهم على ماتيلدا شديداً .. ولم تكن هى بدورها فى حاجة إلى من يقنعها .. وهكذا .. فإنها كانت تعيش فى صورة الأزمة دقيقة بدقيقة .. وعلى اتصال مستمر ودائم بچونسون.

ويضيف هيكل:

ـ وكان چونسون قد شرح لـ ماتيلدا خطته فى الأزمة وكيف أنه يريد أن يبنى موقفه على توافق عام مع الكونجرس ووسائل الإعلام والرأى العام الأمريكى، وأن هذا يتأتى بأن يبدو أمام الجميع أنه اتخذ كل المسالك المتاحة له بالسياسية والدبلوماسية قبل أن يلجأ إلى العمل المباشر.

ولعدة أيام كانت ماتيلدا على اقتناع بصواب رأيه ولكن صبرها راح ينفد بسرعة مع مرور الساعات وتزايد الإلحاح عليها لدرجة أن دونالد نيف ينقل عن الذين عرفوها فى تلك الفترة أنها حذرت چونسون من وزير خارجيته «دين راسنك» ومن بعض كبار المسئولين فى وزارة الخارجية، قائلة له:

«إن هؤلاء ليست لديهم مقومات المقاتلين فى أزمة، وأن أعصابهم مستهلكة وهى تخشى من أنهم يخدرون عزمه وتصميمه بكل هذا الذى يقترحونه عن ضرورة تهيئة الجو لتوافق عام».

• بل إن ماتيلدا مست صميم حيرة چونسون الذى كان لا يعرف كيف يخرج من مستنقع فيتنام مباشرة حين قالت له أثناء مناقشة بينهما فى حضور أيب فوريتس وهو أحد قضاة المحكمة العليا ويهودى : «إنه يستطيع أن يكسب فى الشرق الأوسط كل ما خسره فى الشرق الأقصى».

• وقد أضاف بن واتنبرج وهو رجل أعمال من أصدقاء چونسون وماتيلدا إلى ذلك قوله موجهاً كلامه للرئيس : «إن الحمائم فى فيتنام صقور فى الشرق الأوسط، وإذا استطعت

أن تعطيهم ما يطلبونه فى الشرق الأوسط فسوف يعطونك ما تطلبه فى الشرق الأقصى».

وكان واتنبرج يشير إلى حقيقة أن عدداً كبيراً من المثقفين اليهود كانوا يعارضون حرب فيتنام ذات الوقت الذى كانوا فيه يطابون چونسون بشن الحرب فى الشرق الأوسط ـ المصدر السابق ص ٦٠٢.

■ ■ ■ ■

وكسبت ماتيلدا.

ووافق چونسون على دعم إسرائيل فى الحرب. وأصبح من الممكن أن تذهب ماتيلدا إلى شواطئ سيناء لتستحم عارية مثل حوريات البحر .. لكن بشرط أن ترسل الصور إلى چونسون فى البيت الأبيض .. وعليها توقيع بشفتيها !

١٢

امـــــرأة بـالمـايـونـيـز

لـــزعـــيـــم بـــلاد الـــكـــارى

طلب منها أن تصرخ .. أو تغضب .. أو تقتلع أعمدة الأرض .. أو تسبح عارية فى النهر .. طلب منها أن تدخل الفراش معه لكى يخرجا من تحت الجليد .. ويشعلا النيران فى الطفولة .. طلب منها أن تغير صوتها .. وعمرها .. واسمها .. وجلدها .. لكى يلتهب الورد بعطر الجنس المتوحش .. ويرتفع البحر بأمواج الرغبة الشرسة .. لكنها .. لم تستجب .. فقرر الصوم عن النساء .. وأمرها أن تسكت .. فأصبحت فى واد .. وأحزانه فى واد .. وراح يبحث عن وطنه تحت رماد الاحتلال .. ولم يتردد فى جلد نفسه لأنه فكر فى المرأة وكاد أن يضيع تاريخاً .. وأهلاً .. ومجداً.

إنه غاندى.

الزعيم الروحى للهند الذى حارب بريطانيا عندما كانت إمبراطورية عظمى بالزهد والنحافة والبخور .. بمقاطعة اللذة .. لذة اللحم على المائدة .. وفى الفراش .. وقد بدء بالفراش .. بدأ بالأصعب .. فالرجل يمكن أن يقاوم رائحة الشواء، لكنه لا يقدر بسهولة على مقاومة رائحة المرأة .. إنه الجهاد الأكبر.

وقد تزوج غاندى بعد شهر واحد من بلوغه .. أدرك أبوه أنه أصبح مراهقاً فأخذه من يده وزوجه .. إنه زواج طفولى .. لعب عيال .. جاءت فتاة اسمها كاسترى لتلعب معه لعبة الرجل والمرأة والفراش .. لكنه لم يفهم أصول اللعبة .. وكانت كاسترى أشد منه جهلاً .. ولم يدرك أبوه الصدمة التى سببها له .. ولا المأساة التى فرضها عليه .. وكيف يدرك ذلك وهوحاكم لمقاطعة بورباندار فى غرب الهند، ويجيد التعامل مع زوجاته الأربع فى وقت واحد .. ولا يعرف عدد أطفاله .. ولا يعرف أن غاندى هو أصغر الأبناء من آخر الزوجات.

يقول غاندى فى مذكراته: «لقد جاءوا بفتاة غريبة لكى ألعب معها» .. لم يقصد لعبة الزواج .. وإنما قصد ألعاب الأطفال البريئة .. وقد كانت كاسترى مكنجى فى مثل عمره بالضبط .. فى الثالثة عشرة .. ولم تكن جميلة .. ولا مثيرة .. وكانت عنيدة .. ومسترجلة .. وتميل إلى العنف .. كانت مثل ثمرة المانجو الخضراء التى قطفت قبل الأوان .. فلا طعم ولا رائحة .. لا لون ولا مذاق.

وكان عليها أن تتعلم الجنس .. وأن تمحوا أمية جسدها .. وأن تتكلم لغة الأنوثة .. ولأنها طفلة فإنهم تولوا تدريبها .. وذهبوا بها إلى نفس المعلم الذى تركوا غاندى بين يديه .. زوجة شقيقة .. إن الطرف الثالث فى اللعبة وعليه يتوقف الكثير .. مفاهيم الجنس وأساليبه والعقد النفسية التى تحكمه.

■ ■ ■ ■

وفى المكتبة البريطانية أكثر من كتاب عن الجنس عند الهندوس .. وعن خطوات تدريب الأزواج ـ الأطفال عليه .. وحسب هذه الكتب ـ التى وضعها رحالة جنرالات ولوردات عشقو الهند وضاعوا فى سحرها وغموضها ـ فان الجنسْ عند الهندوس متعة مقدسة، تحرص عليها لوحات المعابد المحفورة على الجدران .. وتعاليم رجال الدين التى تدعو إلى الإفراط فى اللذة حتى يذهب الإنسان إلى العبادة وهو خال من ضغط الجسد على الروح والمعنى .. أن الجنس هو سنة أولى سمو .. والطريق إلى المعبد يبدأ بالفراش، وحساب الأخلاق لا يكون إلا بعد سداد حساب المرأة.

إن أشهر تعاليم كهنة الهندوس للرجل:

«هى فى انتظارك، فأذهب بين أحضانها، لتعرف فضل السماء»

«أيها المتعبد .. شكراً .. نحن نتمنى لو وجدت التى تحبك مثلنا» ولأن الجنس ليس عيباً فإن المرأة لها الحق فى أن تتقدم للرجل، وتطلب يده للزواج .. إنها المساواة الجنسية فى الحضارات القديمة.

على أن الهندوس الذين يقدسون الجنس المبكر، يميلون إلى الزهد بعد الأربعين، والزهد يكون فى الطعام والشراب والمرأة .. فالسمو لا يعرف الأجساد الثقيلة .. وكلما جف الإنسان كلما حلق فى السماء أسرع .. وتُعرف هذه الفلسفةُ بفلسفة الهضم وفضلات الطعام .. فالروح تنتعش بعيداً عن الانتفاخ والهضم المضطرب .. وتشمل هذه الفلسفة ما يُسمى بعبادة «المنى» .. فهم يعتبرونه القوة الدافعة والمحركة فى الحياة .. وفقدانه يؤثر

على الجسم والعقل .. لذلك يحافظون عليه كلما تقدموا فى السن .. وفى المعابد القديمة توجد غرف خاصة يمارس فيها الرهبان الجدد الجنس حتى الاكتفاء ليشعروا بالملل منه، فإذا ما دخلوا الغرفة المقدسة أصبح الجنس خطيئة، وأصبح التفكير فى المرأة جريمة .. وفى هذه الغرف تماثيل فاضحة .. أشبه بالتوابل الحارقة .. تلهب أعصاب من يراها .. ولم يعد مسموحاً بدخول هذه الأماكن الآن إلا لكبار الزوار .. مثل الرؤساء والوزراء .. وإن كانت بعض لقطات فيلم «ممر إلى الهند» قد صُورت هناك .. وهذه اللقطات قد أشعلت النار فى خلايا بطلة الفيلم .. الفتاة الانجليزية المحافظة .. فراحت تحرض مرافقها الهندى على إطفائها .. وعندما رفض، اتهمته باغتصابها، وكاد أن يدفع حياته ثمناً لهذه الأكذوبة.

ويراقب الهنود أطفالهم الذكور فإذا ما ظهرت علامات البلوغ، سارعوا بتزويجهم .. وبعد الزواج يبدأ التدريب على الجنس .. والمرأة هى التى تقوم بهذه المهمة .. ومنعاً للخجل يفضل أن تكون المعلمة امرأة عجوزاً، لاتمت لأحد الزوجين بصلة قرابة .. وهى تبدأ مع كل منهما بمفرده ثم تجمعهما معاً .. وتستمر هذه الدورة التدريبية ٤٠ يوماً تنقل خلالها كل الخبرات .. وتكشف كل الأسرار.

■ ■ ■ ■

وقد تدرب غاندى على يد زوجة شقيقه الأكبر من كبرى زوجات أبيه .. وكانت امرأة صارمة .. تعاملت معه وكأنه ثور عليه معاشرة بقرة .. وقد أزعجه ذلك كثيراً .. وأصابه بالاضطراب .. كذلك فإن زوجته كانت تنفر منه .. ولم تكن تخفى هذا الشعور .. وبعد أكثر من عامين ـ من الشد والجذب ـ وقبلت أن تدخل فراشه .. وقد خرجت منه وهى حامل.

وفى اليوم الذى عرف فيه أنه سيصبح أباً، مات والده فأحس بالذنب، والقهر، وكأن هذا الطفل ما كان ليأتى، لو لم يرحل جده .. إنها الهند وطن الحكمة والفلسفة والخرافة.

لقد شعر غاندى أن اللذة هى التى أفقدته الأب، وأنها ستسبب له اللعنة، فقرر أن يسمو مبكراً فوق شهوات الجسد .. وساعده على ذلك أن زوجته لم تكن تحبه .. ولم تكن تميل إليه .. إنها هى التى دفعته ـ فيما بعد ـ إلى تبنى فلسفة «إنكار الجنس» .. وإلى إعلان سياسة ضبط النفس لتحديد النسل .. فبعد أن أنجب خمسة أطفال، توقف عن معاشرة زوجته، وكان لا يزال تحت الثلاثين .. وقد وصُف بالشذوذ .. وتعرض لسخرية أصحابه الذين يباهون بالجنس والإنجاب.

ويقول غاندى فى مذكراته: إنه استوفى فلسفته الخاصة بالمقاومة السلبية من زوجته كاسترى التى لا تقهر .. فمقاومتها العنيدة الصلبة لإرادتى جعلتنى أخجل من نفسى وشفتنى من غباء التفكير بأنى وُلدت كى أحكمها.

لقد أصبح قديساً .. زاهداً .. وقرر أن يغسل بمقاومة المتعة وجه الواقع القبيح .. وأن يحول نار الجنس المؤقتة إلى نار أبدية .. تقاوم الشر .. وتقرب العدل .. وتوصل شرايينه إلى القمر.

إن كل امرأة كان يفكر فيها تصبح زهرة أو فكرة أو ثورة .. وقد فكر فى ألف امرأة وامرأة .. لكنه لم يختر، من بين نساء الأرض إلا الحرية.

■ ■ ■ ■

لكن ..

فى حياة غاندى امرأة أخرى غير زوجته .. علمته معنى الرجولة.

لقد سافر إلى لندن وهو فى الثامنة عشرة من عمره لدراسة القانون .. وجد نفسه فجأة فى عاصمة الدنيا .. حيث الشيطان يسكن كل شئ .. الطعام .. الموسيقى .. الثياب .. قاعات الدرس .. والفندق الصغير الذى نزل فيه .. وفى هذا الفندق وجد امرأة صغيرة فى فراشه .. إنها قد سمعت عن سخونة الهند ورائحة الشياط التى تبعث ـ مع العرق ـ من خلايا الرجال هناك .. وفجأة وجدت واحداً منهم أمامها .. جاء بنفسه إليها .. وفر عليها أيام السفر وثمن الرحلة .. فقررت أن تتذوق لحمه .. لتعرف طعم الجنس بالكارى .. والشطة .. والفلفل الأسود.

وحاول غاندى إقناعها بأنه ليس الوليمة التى ستسد جوعها .. لكنها لم تصدق أنه عاشق مهزوم .. أفقدته زوجته القدرة على التعبير بالجسد .. جعلت جسده مصاباً بالخرس .. قال لها:

ـ الصمت جميل .

قالت:

ـ الحلم أجمل.

ـ إنى رجل لا يحترف التمثيل ولا الرقص .

ـ سأحتملك .

ـ لا أتاجر بالأوهام.

ـ الأوهام مثل الندى عمرها قصير.

ـ أخرس اللسان .

ـ الحب كلام ليس يـُشابه أى كلام.

وفى تلك الليلة عرف بحق طعم المرأة، لكنه عرف أيضاً طعم الخطيئه، والرجل فى هذه الحالة يكون مضطرباً .. يتردد مثل بندول الساعة بين النشوة والغثيان .. بين الحرام والحلال .. بين انتصار الجسد وانكسار الروح.

فى تلك الليلة أقسم غاندى بألا يقرب النبيذ والنساء واللحوم .. وبأن يعترف لزوجته بما فعل .. إن التوبة فى الفلسفة الهندوسية تبدأ على الأرض .. بالاعتراف .. والاعتراف يكون لمن اعتدت الخطيئة على حق من حقوقه .. فالسارق يعترف للمسروق .. والقاتل يعترف لأسرة القتيل .. والزوج الخائن يعترف لزوجته .. إن حساب السماء لا يبدأ إلا بعد تصفية حساب البشر.

ويسهل على الرجل أن يعترف بأى جريمة إلا الخيانة .. فالزوجة لا تسامح ولو قتل الزوج نفسه بين يديها .. وهى تفضل الكذب لا الصراحة .. فالصراحة معناها أنها امرأة لا تستحق هذه الصفة .. وهذا منتهى الإهانة لها .. فالأسهل تجريد المرأة من جنسيتها لا من جنسها .. أو تجريدها من مجوهراتها لا من أبرز خصائصها.

وقد اعترف غاندى بما فعل .. فعرف معنى الجحيم .. وعاش جهنم فى بيته .. وحياته .. لكن .. المثير للدهشة أن كاسترى العنيدة، التى لا تـُقهر بدأت تحبه كرجل .. وبدأت تشعر بالغيرة .. وتطارده .. وتحاسبه .. وتسأله عن كل امرأة تقترب منه فى العمل .. وفى السياسة .. فهل أراد غاندى باعترافه أن يتوب ويتطهر أم أنه أراد أن يلعب مع زوجته هذه اللعبة الخطرة ؟!

■ ■ ■ ■

وسافر غاندى إلى جنوب أفريقيا للعمل هناك.

كان يشعر بأنه فى منفى .. وبدأ يعبر عن هذا الشعور فى رسائله إلى أصدقائه.

قال :

ـ إن الوحدة هى طعام الغربة .. والخوف شرابها .. واليأس أقرب الناس إليك فيها ..

والموت هو الحلم الوحيد المتاح ؟!

وكاد الاكتئاب أن يعصف به .. وراح ذات ليلة يهذى من الضعف والحمى .. ودون أن يدرى وجد نفسه يستنجد بجارته فى السكن .. فجاءت ابنتها وكانت مراهقة فى السابعة عشرة .. وهى ما كان يريدها .. لأنه كان يحبها .. إنها ابنة مزارع انجليزى جاء ليسرق الأرض من السود .. ويستعبدهم بالكرباج .. ويحتقرهم بالنظرات .. إنه الاستعمار يكرر فى كيب تاون ما يفعله فى مدراس، والقاهرة، وبغداد، والقدس.

إن الغربة كانت تدفع غاندى للمرأة .. والرحيل كان يقربه منها .. والسفر كان يعيدها إليه.

لقد كان يواصل الصيام فى بلاده، لكنه كان يفطر بمجرد أن يجد نفسه فى بلاد أخرى .. لكنه هذه المرة فشل فى التعامل مع هذه المراهقة الصغيرة .. وكان هذا الفشل على ما يبدو هو محطة النهاية فى علاقته بالمرأة .. وبوفاة زوجته ـ وهى لا تزال شابة استسلم تماماً للزهد .. وقاطع الدهون واللحوم والنشويات والنساء .. وعاش على حليب الماعز .. وخيوط الكتان التى حولها إلى نصف ثوب يرتديه .. وحلق شعره مثل الكهنة .. ونام على فراش خشن .. وأصبح مثالاً للقسوة على النفس .. وقاوم المحتل بعد أن قاوم مطالب الجسد .. لقد بدأ الجهاد الأصغر بعد أن فاز فى الجهاد الأكبر.

وقد تغيرت رسائله إلى أصدقائه بعد أن نفاه الإنجليز .. إن المنفى هذه المرة كان للجسد لا للروح .. والحزن هذه المرة كان على الوطن لا على المرأة .. إنه يقول: إن المستعمر يخاف طلوع الشمس .. ورائحة الورد .. ويلقى القبض على عشاق الحرية ويرسلهم إلى المنفى .. إنه يطلب منهم أن يكفوا عن الضحك، والبكاء .. عن النطق والعشق .. ألا يلمسوا كف امرأة .. ألا ينجبوا أطفالاً .. ألا يرسلوا خطاباً .. ألا يقرأوا كتاباً!

ويتساءل غاندى:

كيف أبشر بالحرية والمستعمر يأخذ الشمس إلى مقصلة الإعدام ؟

كيف أكون كبيراً فى عصر القرود والأقزام ؟!

كيف أفتح نفقاً تحت البحر وأثقب حيطان المنفى ؟!

والإجابة قدمها غاندى بنفسه فى كلمات لخصت فلسفته .. الزهد .. السمو .. الصوفية .. الحرية.

إن الحاكم يجب أن يتحرر من ضغوط المتعة .. إن هذه الضغوط هى التى تحرضه على النساء .. وتحرض رجاله على استنزاف موارد الدولة .. وتحول الحكومة إلى عصابة ..

تسرق فى وضح النهار .. وفى حماية الشرطة .. والقانون .. تحول الكبار إلى رجال يأكون ولا يمضغون .. فلا وقت للمضغ .. ويلتهمون النساء ولا يستمتعون .. فلا وقت للاستمتاع .. إنه قانون الاغتصاب الذى يفرض نفسه على كل شئ فى المجتمع .. على الثروة .. والمرأة .. والموهبة .. والكفاءة .. والخير .. والتفاؤل .. والمستقبل.

لقد دخل غاندى التاريخ عندما خرج اللحم من حياته.

فكتب فصلاً من نور فيِ كتاب مظلم اسمه المتعة والسلطة.

13

نيمري الذى سقط

بسبب ولد

الحب أحياناً ليس امرأة.

لكن .. الحب دائماً طفل .. طفل نشخبط معه على الحائط بألوان .. «الفلوماستر» الملونة، فنرسم شجرة، وزهرة، وبالونة، وقوس قزح .. نصنع له طائرات من الورق، تطير بقوة مشاعرنا وحدها .. نلعب معه بقطارات من «البلاستيك» الأسود لا تتوقف إلا في محطة عينيه .. طفل يعيد إلينا أيام البراءة، والشقاوة، والشيكولاته .. يصبح امتداداً لأيام مضت .. وسفيراً لأيام قادمة لن نراها .. فهو سيعيش المستقبل نيابة عنا .. سيقرأ ما لم يكتب .. سيلعب بما لم يُخترع .. وسيطير إلى كواكب لم نصل إليها بعد .. إنه نحن في الغد.

ولو كان الحب امرأة .. فالزواج طفل .. والمقصود أنه بدون طفل أو ثمرة لا يستمر الزواج إلا بمعجزة .. فهو يعيد صياغة علاقة الرجل والمرأة، ويرسم لهما هدفاً .. ويحول الجنس إلى لحم ودم وحياة وكتاب ومدرسة وطبيب ودواء وشورت وحذاء وقلق وترقب وفرح .. وأحفاد.

والمرأة التي يحرمها الله من الطفل هي مثل شجرة زينة .. ناعمة، ومثيرة، لامعة، وجذابة .. لكن بلا ثمرة .. أما الرجل .. فحاجته إلى الطفل اجتماعية لا غريزية .. الفقير يريده سنداً .. والغني يريديه وريثاً .. لكن .. هناك من يريد الطفل ليحافظ على السلطة .. فالملك فاروق تزوج مرتين، وأنجب ثلاث بنات قبل أن ينجب ولي العهد .. وقد طار في السماء فرحاً عندما تحققت أمنيته، وبعد ٦ شهور سقط وانكسرت رقبته هو وعرشه .. ويمكن أن يشعر بما كان فيه الملك فاروق أي حاكم ديكتاتور .. إنه يتغرغر بوطنه كل صباح

قبل أن يغسل أسنانه بمعجون الأسنان .. ليحافظ على بياض الأنياب .. أما عقله فأسود، مظلم .. يخشى ضوء الحرية ولا يتصور أن يترك السلطة لغيره إلا إذا كان من صلبه.

وهو قادر على أن يسيطر، ويبطش، وينهب، ويصادر الكحل من العين، والفرحة من القلب، والفكرة من الراس .. لكن ذلك لا يشبعه لا يرضيه لو عجز عن إنجاب طفل .. إن ذلك يهزه، ويؤلمه، ويوقظ ضعفه البشرى .. فيتصرف باضطراب وتهور .. ويفقد السيطرة على نفسه .. ويفقد السلطة.

■ ■ ■ ■

إدار الرجل قرص التليفون فى مكتبه، وطلب زوجته فى البيت :

ـ بثينة .. الجماعة عندى هنا يرغبون فى أكلة سودانية .. ما رأيك ندعوهم إلى طبق «وريج» ؟

والمقصود بالجماعة .. الكاتب اللامع صلاح حافظ .. والفنان المعروف هبه عنايت .. و «الوريج» ـ بضم الواو ـ طبق يشبه الملوخية ولكنه يُصنع من ورق نبات البسلة .. والمتحدث مواطن سودانى بسيط، ودود، اسمه محمد جعفر نميرى .. رئيس جمهورية السودان!

كان ذلك فى صيف ١٩٨٠، قبل سقوط نميرى بحوالى خمس سنوات .. وقد علق صلاح حافظ على مكالمة نميرى لزوجته:

ـ إن مثل هذا التصرف يثير عادة دهشة الزائرين ويتصورون أن الرئيس النميرى قد اختصهم برفع الكلفة لسبب ما .. ولكن السودانيين لا يدهشون .. فكلهم هذا الرجل البسيط .. وجعفر نميرى يمثلهم بكل معنى الكلمة .. وليس فى العالم العربى رئيس يعيش حياة أبسط من حياته .. أو يسكن فى بيت مثل بيته، يتسرب من سقفه الماء فى موسم الأمطار!

ومثل كل السودانيات، لا تحب السيدة بثينة ـ زوجة الرئيس ـ أن تكون فى بيتها أكثر من مضيفة طيبة، بدون ألقاب رسمية، ولا تظهر خارج بيتها إلا فى المناسبات الضرورية، ولا تلبس إلا «التوب» الوطنى السودانى، ومع اهتمامها فى وطنها إلا أنها لا تحب أن ينعكس هذا الاهتمام على صفحات الجرائد.

وهى تقول:

ـ أنا أفضل أن أسهر على راحة الرئيس وتهيئة مناخ يعينه على أداء مهامه، ويحافظ

على صحته .. واعتقد أننى بهذا أؤدى دوراً لابأس به .. إننى لا أحب المشاركة فى العمل السياسى .. فالسياسة عمله هو .. والحكم مسئوليته هو .. وهو فى هذه المسئولية يتعامل مع عشرات القوى والمؤسسات والمنظمات، ولا أحب أن يعود إلى بيته ليجد مؤسسة أخرى تناقشه.

وسألها صلاح حافظ :

ـ هل كانت حياتك ياسيدتى أسعد قبل أن يتولى زوجك أعباء الحكم أم أن حياتك الآن أسعد؟

قالت :

ـ بصراحة .. قبل أن يتولى الحكم كنت سعيدة جداً .

ـ والآن ؟

ـ سعيدة أيضاً .. ولكنى أكثر قلقاً بسبب أعبائه .. لم أكن أعرف أن الحكم عمل شاق إلى هذا الحد .. ولو أن جعفر كان مجرد زوج وأنا مجرد زوجة لكنت شقية بما يعانى من متاعب .. لكننى أعرف كم يحب السودان، وكم يحلم له بمستقبل سعيد، وأعرف كم أصبحت سعادته الشخصية متوقفة على تحقيق هذه الأحلام.

ـ تقصدين أن سعادتك أصبحت مرتبطة بنجاحه فى أداء رسالته السياسية ؟

ـ بكل تأكيد.

ـ ألا تضايقك الأعباء التى تتحملينها كزوجة رئيس ؟

ـ لا أشعر بأنى تحملت أعباء جديدة منذ تولى زوجى الحكم .. فالمناسبات التى تلزمنى باستقبال الضيوف الرسميين وزوجاتهم لا تختلف عن المناسبات التى تلزم كل زوجة سودانية باستقبال ضيوف بيتها وزوجاتهم .. وأنا شخصياً لا أشعر بأن شيئاً تغير منذ تولى زوجى الحكم.

ـ وكيف تم زواجكما ؟

ـ كما يتم كل زواج فى السودان .. خطبة عن طريق الأهل .. وإيجاب .. وقبول .. واحتفالات زفاف .. ولم نتكبد ما يتكبده الشبان اليوم .. لم نتعب .. تزوجنا بتكاليف معقولة .. واحتفلنا عدة ليال تطوع باحيائها شباب العائلتين والجيران.

ـ هل تطبخين بنفسك أحياناً طبق زوجك المفضل؟

ـ ليس أحياناً وإنما دائماً فالزوج فى السودان لا يحب أن يأكل طعاماً لم تطبخه زوجته، والزوجة لا تحب له أن يأكل طعاماً لم تصنعه بيديها.

ـ ما هو طبقة المفضل ؟

ـ أعتقد أنكم تعرفونه.

ـ تقصدين الوريج ؟

ـ نعم وإلا ما كان اختاره لكم ؟

وسأل صلاح حافظ الرئيس النميرى:

ـ بم تحلم للسودان ؟ وبم تحلم لنفسك ؟

فقال :

ـ السودان بلد شديد الكرم .. وليس فى أهله جميعاً رجل بخيل .. ولو أتيح له الثراء لكان هذا من حسن حظ جيرانه .. ومن حسن حظ العالم .. وأنا لهذا أحلم للسودان بالرخاء والثروة .. وأتمنى أن أرى الذهب يتدفق على أرضه .. لمصلحته ومصلحة جيرانه:

أما ما أحلم به لنفسى .. فهو أن يواصل السودان بعدى تدعيم ما وفقنى الله إلى غرسه فى أرضه .. الوحدة بين طوائفه، وقبائله .. والاحساس بالانتماء إليه .. أمنيتى الوحيدة هى أن يعيش هذا الحكم بعدى .. ويتحقق ما لم يتحقق منه بعد.

ـ نحن نسأل عن حلمك الشخصى .. فهذا الذى تقوله ـ حلم سياسى ؟

ـ حقاً ؟ لم الاحظ ذلك !

فى سبتمبر ١٩٨٣ بدأت هذه الصورة للرئيس نميرى تتغير .. فقد أعلن رسمياً تطبيق الحدود بالطريقة التى يراها .. لكن .. قبل هذا الإعلان طلب من المسئولين والوزراء فى حكومته أن يمتنعوا عن شرب الخمر، وإلا تركوا منصابهم .. واستجاب أغلبهم .. وفضل الباقى الخمر عن السلطة، وانسحبوا من الحياة العامة بعد أن أحسوا أن نميرى نقد حكمته .. ومن ثم سيفقد حكمه .. فالسودان دولة متنوعة الأجناس، والأديان، والحضارات .. الوثنية فيها بقوة الأديان السماوية .. والحس الزنجى ينافس الحس القومى .. والانتماء الأفريقى لا يقل عن الانتماء العربى .. فى السودان ستجد الرمح والمرسيدس .. الحربة والبوينج .. العراة وزبائن بيير كاردان .. القبلية والطائفية والسلطة المركزية .. الجنس الحلال والجنس المباح.

فى الجنوب مثلاً .. ينفصل الجنس عن الزواج .. وعن الأديان، والحرام، والحلال .. وقد حضرت فى مدينة «جوبا» زفافاً كانت العروس فيه «حاملاً» فى شهرها التاسع .. كانت على وشك الوضع فى ليلة الدخلة.

فى الجنوب أيضاً يمكن أن يغير الناس دياناتهم كما يغيرون ثيابهم .. فهم ينتقلون من الإسلام إلى المسيحية .. أو العكس .. أكثر من مرة .. ولأسباب تافهة .. لذلك يمكن أن تجد مسيحياً اسمه «محمد» .. أو مسلماً اسمه «چورچ» .. ويقسم الناس ـ هناك ـ كذباً وهم يضعون أيديهم على الكتب المقدسة .. لكنهم لا يجرؤون على ذلك عندما يقسمون على «الحربة» !

وقد خدم نميرى ـ وهو ضابط صغير ـ فى حامية الجنوب .. ففهم ـ بعد أن أصبح حاكماً ـ السودانى على الطبيعة .. وتحمس لسياسة الحكم الذاتى لكل إقليم .. ونجح .. واستمر .. فهو أول رئيس للسودان يتعامل مع بلاده على أنها خليط غير متجانس من البشر .. والألوان .. والعادات .. والتصرفات .. والمعتقدات.

لكن .. ما استوعبه نميرى، تراجع عنه .. وسر صعوده كان سبب سقوطه .. ففى ١٠ يونيو ١٩٨٤ قرر تعديل الدستور ليصبح إماماً مدى الحياة لا تجوز مساءلته أو محاكمته .. وحول صلاحيات مجلس «القضاء العالى» إلى سلطاته .. واعتبر من ينقض «البيعة» للإمام «خيانة عظمى» .. فراحت محاكم الطوارئ تجلد، وترجم .. وتقطع الأيدى، دون أن تراعى الالتزام بالشروط اللازمة التى فرضها الشرع .. ومن شدة التسرع فى تنفيذ الأحكام .. وقعت أخطاء لا حصر لها، فقد قطعت أيدٍ ثبت أن أصحابها أبرياء لم يسرقوا .. باعتراف الجناة الحقيقيين الذين ارتكبوا الجرائم .. وسُحب رجال ونساء عرايا من غرف نومهم لتطبيق حد الزنا عليهم، وثبت فيما بعد أنهم أزواج.

ولم يفهم أحد سر هذا الانقلاب الحاد فى شخصية نميرى .. فقد كان «ابن حظ» يهوى السهر، والسمر .. أو «الونسة» بالتعبير السودانى .. وكان ضد التيارات الإسلامية .. وأعدم أحد قادتها وهو محمد محمود طه، زعيم «الجمهورية» .. وهم حركة إسلامية مستنيرة، تضم مئات الألوف من الأتباع، وتجذب الشباب بصفة خاصة .. ولها مطبوعات تعبر عن وجهة نظرها فى كل ما يجرى فى العالم من أحداث سياسية.

قال البعض: إن السر هو أن نميرى يغازل الدول النفطية لتزيد من دعمها المالى

لنظامه الذى يعانى من اختناقات مزمنة.

قال البعض الآخر: إنه يلعب بورقة جديدة بعد أن احترقت أوراقه الأخرى .. من ورقة الشيوعية إلى ورقة الناصرية .. ومن ورقة المؤسسة العسكرية إلى ورقة كامب ديفيد.

لكن ..

مهما كانت وجاهة هذه التفسيرات فإنها لا تصيب كبد الحقيقة .. والحقيقة أن نميرى كان يتوق إلى الإنجاب .. إنه بالرغم من كل ما يملك من سلطة وثروة كان يشعر أنه فى حاجة إلى طفل .. لكنه لم يستطع أن يحقق هذه الأمنية الغالية.

إننا لا نكشف ذلك من باب التطفل .. أو التدخل فى الحياة الخاصة .. وإنما لاستيعاب التاريخ .. فأسرار الحاكم الشخصية تؤثر فى قراراته .. وقراراته تؤثر فى ملايين من الناس ليس لهم ذنب سوى أن القدر وضع على رؤوسهم مثل هذا الطراز من الحكام.

لقد شاءت إرادة الله أن تحرمه ـ هو وأحد أشقائه ـ من نعمة الأطفال .. ولم ينجح الطب فى إقناع السماء .. لكن بعض المشعوذين نجح فى إقناعه بأن السبب هو غضب الله عليه .. وأنه لو عاد إلى الله فإنه سيمنحه ما يريد .. وضعوا أيديهم على نقطة ضعفه .. وتحولت النقطة إلى ثغرة .. والثغرة إلى بوابة دخل منها أفراد جماعات دينية سياسية، وجدت أنه حان الوقت لأن تضع الرئيس فى أحد جيوبها .. وراح هؤلاء يلعبون على أوتاره المشدودة .. وعزفوا عليه لحن «الورع» .. ثم راحوا يغذونها بأضواء النيون التى رسموا بها صورة لم يستطع أن يقاوم إغراءها .. صورة الإمام الذى يرتدي أبيض فى أبيض .. وعلى رأسه عمامة خضراء، ويمشى على أرض خضراء، وتبتعد عنه جهنم الحمراء .. إنها الصورة التى أقنعوه بأنهم يرونها له كل ليلة فى المنام .. وظلوا على هذا النحو حتى سيطروا عليه .. وتمكنوا منه .. وعندما تأكدوا من ذلك سعوا إلى إقناعه بأن من الممكن أن يحققوا حلمه فى الإنجاب، بعد أن تلقوا البشرى أو الإشارة .. وحددوا فتاة بعينها .. وقالوا له: إنه لو تزوجها هى بالذات سينجب !! .. وكاد أن يستجيب، ويقع فى الشرك لولا أن حذره بقسوة أحد المقربين منه .. وصارحه بحقيقة مرة .. وكان ذلك فى حضور زوجته السيدة الفاضلة بثينة أبو الحسن .. فتراجع فى اللحظات الأخيرة .. وأنقذ نفسه .. ولم يتزوج الفتاة.

أغلب الظن أن فى أعماق نميرى مساحة لا بأس بها لتقبل الأمور غير المرئية .. التى تتجاوز حدود العقل .. وقد راحت هذه المساحة تتسع مع تقدم العمر .. وكانت قد بدأت وهو ضابط فى الجنوب حيث ولـدت الأسطورة التى أحاط بها نفسه، والتى تقول إنه فوجئ بشخص يظهر له من بين الأشجار، ويتنبأ له بالجاه والسلطان .. وكما ظهر هذا الشخص فجأة .. اختفى فجأة.

وبعد فترة من الزمن سافر نميرى من جوبا إلى الخرطوم وهو غاضب من قيادته لأنها لم تستجب لمطالب رجاله .. وفى معسكر «الشجرة .. مقر قيادة الجيش فى العاصمة لم يتحمس أحد لهذه المطالب، فكان أن سعى نميرى إلى تغيير القيادة بتحريك عدد من الدبابات، ونجح انقلابه، وساعده على ذلك طقس الخرطوم الحار .. الذى لا يطاق فى شهر مايو .. والذى يدفع بعض المسئولين للسفر خارج البلاد .. ويدفع غيرهم للكسل وسرعة الاستسلام .. وهو ما كان .. وهكذا أصبح نميرى على رأس السلطة فى السودان.

وتمضى الأسطورة تقول .. إنه فوجئ بعد أن تولى السلطة بالرجل الذى ظهر له فى الجنوب، يظهر من جديد فى بيته .. وقبل أن يختفى ترك «عصا» اقتنع نميرى بأن استمراره فى الحكم يرتبط بسلامتها والحفاظ عليها .. وفيما بعد .. قيل أنه كان يستعد للنزول من قصره إلى الاتحاد الاشتراكى السودانى، ففوجئ بالعصا تنكسر .. فخلع ملابسه، وقرر البقاء .. ولم يذهب إلى الاجتماع السياسى الهام .. وقيل أيضاً إن رجاله اكتشفوا مؤامرة انقلاب عليه .. وأن المتآمرين ـ الذين قـُبض عليهم ـ اعترفوا بأنهم كانوا سيقتلونه وهو فى مبنى الاتحاد الاشتراكى.

هذه هى الأسطورة التى حكمت نميرى وتحكمت فيه وسيطرت عليه ودفعته إلى ما وصل إليه .. إنها أسطورة، أو خرافة تتعلق بأهم ما فى حياته .. السلطة .. ومع ثغرة الطفل الذى لم يأت .. والحلم الذى لم يتحقق .. والأمنية الغالية التى لم تر النور .. أصبح نميرى بين قوسين .. وبين القوسين حاصروه وحصروه .. فمشى بأستيكة على كل ما فعل .. فرض الشريعة بدون أصول فبدأت الطائفية تعود من جديد .. تراجع عن الحكم الذاتى للجنوب فاشتعلت الحرب الأهلية هناك!

إن الحب فى السودان ـ كما يقول نزار قبانى ـ يشتعل كالشطة الحمراء على ضفاف الفم .. ويتساقط كثمار المانجو على بوابة القلب .. ويسافر كرمح إفريقى بين العنق والساعد .. لكن نميرى نسى ذلك مع تجاوزه مرحلة الشباب .. وتصور أنه سيغير هذه الخصائص .. وسيضع الصمغ بدل الشطة .. والحنضل بدل المانجو .. والطائفية بدل

التسامح .. قام بانقلاب على نفسه .. ففقد السلطة وفقد نفسه.

■ ■ ■ ■

فى إحدى زيارات نميرى إلى واشنطن، لم يتردد الرئيس الأمريكى وكان رونالد ريجان .. فى إبداء رأى فيما يحدث فى السودان .. بطريقة لا تخلو من الابتكار .. فعلى مائدة العشاء .. ولكن قبل تقديم الطعام .. قدم ريجان لنميرى جراحاً أمريكاً شهيراً .. وعندما طارت عصافير الدهشة من وجه نميرى، قال رينجان:

ـ انتظر يافخامة الرئيس .. إن صديقنا الجراح الشهير نابغة فى الطب وسيقدم لنا عرضاً جراحياً سنستمتع به أكثر من الموسيقى والرقص.

لم يعلق نميرى .. ولم يسترد دهشته التى حلقت فى قاعة الطعام بالبيت الأبيض .. وبعد أن أطفأوا الأنوار، راح الجراح الشهير يعرض على ضيوف العشاء شرائح مصورة «سلايد» تشرح قصة عامل فى أحد المصانع فقد «عقلة» من أحد أصابع يده .. والجراحة الدقيقة البارعة التى تمت لإعادة العقلة إلى مكانها، بعد توصيل عشرات من الشعيرات الدموية الرفيعة جداً، وتوصيل الأعصاب بمراكز الاحساس.

ومرة أخرى لم يفهم نميرى سر هذا العرض الجراحى غير المثير .. لكن .. بعد أن اضيئت الأنوار قال له ريجان:

ـ الآن يافخامة الرئيس .. لقد رأيت أن الطب تقدم إلى هذا الحد المذهل .. إنه نجح فى إعادة جزء من إصبع مقطوع ليد بأكملها كالتى تقطعها فى بلادك .. فلماذا تصر على أن تفعل ذلك إذا كان العصر قد تجاوزه .. ومعجزات الطب أصبحت قادرة على أن تعيد ما قُطع إلى ما كان عليه ؟

وبهت نميرى .. وحاول أن يشرح حكمة الشرع فى قطع اليد .. وحاول مساعدوه إنقاذه .. لكن ريجان ـ الكومبارس المغرور الذى أصبح حاكماً لأقوى بلاد الدنيا ـ لم يشأ أن يسمع .. أو تظاهر بأنه يسمع لكنه لم يفهم .. أو فهم ولم يستوعب .. فالعقل الأمريكى البارد يعجز عن استيعاب مثل هذه الأمور.

وحتى يغير ريجان من حالة التوتر المكتوم التى خيمت على ضيوفه أعطى إشارة تقديم الطعام .. ولكن لا أحد من الوفد السودانى تناول طعامه بشهية .. وكان صوت ارتطام «الشوك» و «السكاكين» بالأطباق هو الصوت الوحيد الذى يمزق الصمت الذى ساد.

واغلب الظن أن «الأمريكان» قرروا التخلص من نميرى فى ذلك الوقت .. لكن .. كان عليهم أن يأكلوا لحمه قبل أن يلفظوا عظامه .. كان عليهم امتصاصه حتى النخاع .. وهكذا فاتحوه فى عمليه «الفلاشا».

كان ذلك فى الأسبوع الأول من يناير ١٩٨٥ عندما أعطى نميرى موافقته على العملية لجورج بوش نائب الرئيس ـ والمدير الأسبق لوكالة المخابرات المركزية ـ وعلى المكشوف شرح بوش تفاصيل العملية التى تُعرف باسم عملية موسى والتى دبرتها المخابرات الإسرائيلية لنقل يهود الفلاشا من أثيوبيا إلى إسرائيل عبر السودان، بطائرة النقل الحربية الأمريكية العملاقة «هيرا كليوز» .. وقد راحت هذه الطائرات تنقل فى اليوم الواحد ٥٠٠ يهودى من مطار الخرطوم .. وساعد نميرى فى هذه العملية الفريق عمر محمد الطيب رئيس المخابرات السودانية الذى حُكم عليه ـ فيما بعد ـ فى أبريل ١٩٨٦ بالأشغال الشاقة المؤبدة وغرامة ٢٤ مليون جنيه سودانى لدوره فى هذه العملية.

أما نميرى فلم يُحاكم .. فقد هبطت طائرته القادمة من واشنطن فى القاهرة .. فبقى فى مصر، ورفضت السلطات المصرية تسليمه للحكم الجديد فى السودان لمحاكمته هناك .. بقى كلاجئ سياسى وانضم إل نادى الحكام المخلوعين.

■ ■ ■ ■

قبل يومين فقط من سقوطه كان نميرى يتناول العشاء الرسمى الأخير على مائدة الرئيس ريجان فى البيت الأبيض .. ولا يذكر رجال نميرى الذين حضروا العشاء أصناف الطعام التى قُدمت لهم .. ولكنهم يذكرون أن ريجان تعمد أن يتحدث عن شرائح لحم «الخنزير» التى يفضلها .. وكان ذلك نوعاً من الجليطة لا تجوز، خاصة وأنه يستضيف حاكم دولة إسلامية، يحرم دينها هذا الطعام.

والحقيقة أن هذه الجليطة كانت متعمدة .. فقواعد البروتوكول فى البيت الأبيض تقضى بمراعاة ممنوعات الطعام الدينية والصحية لكبار الضيوف .. ولم يحدث مثل هذا التصرف الشاذ من قبل مع حاكم أو رئيس دولة .. ولكن .. نميرى لم يعد فى يقين الإدارة الأمريكية حاكماً أو رئيس دولة، فقد قرروا التخلى عنه .. وبعد ساعات عندما يغادر قاعدة «أندرسون» الجوية لن يعود إلى بلاده .. وإنما سيبقى فى القاهرة.

ولم يفهم نميرى الإشارة .. ولم يفكر فى فك رموزها .. كذلك لم يفسر سر تجمع هذا

العدد الهائل من المراسلين والمصورين عند سفره .. ولم يخطر بباله أنهم يلقون عليه نظرة الوداع، ويلتقطون له الصورة الأخيرة .. وتعجب من سؤال لمحرر إحدى شبكات التليفزيون الأمريكية:

ـ هل أنت عائد إلى بلادك ؟

ـ نعـــم .

ـ هل أنت متأكد ؟

ـ طبعاً .

لم يكن السؤال ساذجاً كما تصور .. ولم تكن إجابته صحيحة.

كان ذلك في يوم ٥ أبريل ١٩٨٥ .. اليوم الذي تخلى فيه الأمريكان عن نميري، بعد أن انتهت عملية الفلاشا .. كانت مكافأته مالية .. ولم يقبلوا أن يستمر في السلطة .. فردود أفعاله لم تعد محسوبة أو متوقعة .. وحالته النفسية ـ بسبب الرغبة المستحيلة في الإنجاب ـ لم تعد مستقرة .. كذلك فإن أموره الصحية .. التي كشفت عنها الفحوص التي أجريت له في الولايات المتحدة وحصلت على نسخة منها المخابرات المركزية ـ ليست كما ينبغي .. فهو يعاني ضيق الشرايين الرئيسية التي توصل الدم إلى المخ .. وهو ما يسبب له حالة من الأرق المزمن أحياناً .. وحالة من الغيبوبة أحياناً أخرى .. ولم يستبعد الأطباء في أمريكا أن يؤثر مرضه على سلامة قراراته .. وبالتالي لم تتردد الإدارة الأمريكية في استبعاده .. لقد خشيت أن تقع في نفس الخطأ الذي وقعت فيه من قبل في إيران، عندما تصورت أن الشاه ـ رغم إصابته بالسرطان ـ كان قادراً على الإمساك بزمام الأمور ثم اتضح أن ذلك ليس صحيحاً.

ولم تشأ واشنطن أن تكرر في الخرطوم فشلها في طهران وتخلصت من نميري بيدها لا بيد غيرها .. وقد أرسلته إلى منفاه في القاهرة ليعيش مع وحدته وأحزانه كما كان قبل أن يعلن الشريعة .. وانفض عنه من كانوا حوله إلا زوجته التي كان سيتزوج عليها من أجل طفل كان مستحيلاً أن يأتي.

١٤

بروفيمو وكيلر: رئيس الحكومة

آخر من يعلم

لندن

مطار هيثرو .. قصر بكنجهام .. حى السوهو .. ساعة بج بن .. الأتوبيس الأحمر .. ميدان بيكاديللى .. متحف مدام توسو للشمع .. صحيفة تايمز .. ماركس آند سبنسر .. برنارد شو .. وستمنستر .. الملك .. البوب .. هارودز .. البرلمان .. وفضيحة چون بروفيمو وكيريستسن كيلر.

إن الفضيحة لا تزال من ملامح «عاصمة الضباب» البارزة، والمميزة .. وهى كذلك الفضيحة ـ النموذج بين الفضائح التى تؤرخ للعلاقة بين الجنس والسياسة .. بين المتعة والسلطة .. بين العهر والوزارة .. ففيها شبق، وتوتر، وقتل، وتجسس، وإستجواب، وغبار، وإنتحار .. وقد انهت حكم المحافظين بعد ١٣ سنة متصلة فى السلطة .. وكشفت عورة الأمن فى بريطانيا .. وعاشت على تفاصيل الفضيحة .. الصحف، والكتب، والأفلام، ومسلسلات التليفزيون .. ولا تزال.

وچون بروفيمو كان وزير الدولة لشئون الدفاع فى حكومة هارولد ماكميلان .. وهو مجنون نساء .. تشتعل الحرائق الكبيرة فى جسده بمجرد أن ينظر إلى امرأة .. حلوة .. تنطلق صقور الرغبة من عينيها إلى جسده تنقره بنشوة .. فيشعر أن جزءاً ما فى جسمه يؤلمه بشدة .. ويفقد ما تبقى من عقله .. ويعجز عن التحكم فى نفسه .. ويلف فى مكانه كالمجنون .. كأن فى حذائه شوكة، أو حصوة، أو قطعة زجاج.

كان يقول:

ـ إن الجنس هو عاره .. عاره الجميل .. هو صليبه الذى يرفض النزول عنه!

إن المرأة العاهرة ذوقه مزاجه، قدره، اختياره الذى لا حيلة له فيه.

وقد أوقعه هذا الاختيار فى ممثلة الإغراء فاليرى هوبسون .. شاهدها فى لقطة مثيرة على الشاشة فلم يستطع أن يتمالك نفسه .. وفعل المستحيل حتى أقنعها بقضاء ليلة شتاء باردة، ممطرة فى فراشه . ووافقت بشرط .. أن يتزوجها .. ووافق . استسلم بعد أن أصبح بينه وبين الفراش نصف خطوة.

وكان تبريره فيما بعد :

ـ ما الذى كان على أن أفعله .. لقد رأيت شعرها ملقى على كتفيها مثل ليل مبعثر .. ونهدها تحت القميص شهى .. شهى .. كطعنة خنجر .. وساقيها كأن بينهما مرآة.

■ ■ ■ ■

أما كريستين كيلر، فكانت راقصة «ستربتيز» فى ملهى «موريه» الليلى .. كانت تخلع ثيابها وهى تتلوى ـ على أنغام الساكسفون ـ قطعة، قطعة .. وقد اكتشفها د. ستيفن وارد .. إنه فى الخمسين من عمره .. فنان بوهيمى .. يعالج مرضاه بجلسات الاعتراف .. وبالتدليك الذى تقوم به عاهرات تحت الطلب مثل كريستين كيلر .. وكان معظم مرضاه من كبار القوم .. أثرياء ووزراء .. ولوردات .. وكان يدخن بشراهة .. ويشرب حتى الإغماء .. ويأكل قليلاً .. ويرسم لوحاته حسب المدرسة التأثيرية، الفرنسية .. ويهوى معاشرة الفتيات، المراهقات اللائى يلتقطهن من الشوارع والملاهى الليلية والحانات، ويفرض عليهن طقوساً من نوع خاص .. تبدأ بالحمام .. ومنه إلى حجرة مبطنة بالمرايا .. ومنها إلى حجرة التعذيب .. وأخيراً الفراش!

وكان من زبائنه اللور آستور الذى يملك صحيفة «ديلى تلغراف» ويملك مقاطعة فى كليفون .. منح فيها كوخاً لستيفن وارد منذ سنة ١٩٥٠ رداً على خدماته العلاجية .. والجنسية والتى كان منها إحضار كريستين كيلر، لتفعل أمامه ما كانت تفعله فى الملاهى الليلية.

وكان من أصدقاء ستيفن وارد أيضاً .. السير كولين كوت المحرر فى «ديلى تلغراف» وقد عالجه من ألم فى ظهره .. وكان عليه أن يرد له ذلك .. فقد طلب ستيفن منه المساعدة فى الحصول على تأشيرة دخول الاتحاد السوفيتى ليرسم لوحات فى موسكو .. وقد

تذكر كولين كوت هذه الخدمة أثناء زيارة وفد من الملحقين العسكرين للصحيفة، وكان من بينهم يوجين إيفانوف مساعد الملحق البحرى السوفيتى، وعميل المخابرات العسكرية السوفيتية الخفى .. ورحب إيفانوف بالمساعدة .. وسرعان ما أصبح هو وستيفن صديقين .. وتكرر لقاؤهما فى نادى «جاربك» .. وهو أحد مراكز لقاءات رجال المخابرات البريطانية .. ونجح إيفانوف فى تجنيد ستيفن مستغلاً شذوذه .. وعرف إيفانوف عن طريقه كريستين كيلر وسيطر عليها بالجنس سيطرة كاملة .. وكان عمرها لا يزيد عن ٢٠ سنة .. وفى الوقت نفسه لم يتردد ستيفن فى أن يعمل كذلك فى خدمة المخابرات البريطانية ويقول كل ما يعرفه أولاً بأول.

■ ■ ■ ■

فى إحدى أمسيات صيف ١٩٦١ .. كانت كريستين كيلر تسبح عارية فى قصر اللورد آستور .. إنها حسب وصف اللورد نفسه: قطعة من الجاتوه .. فراش من الحرير وريش العصافير .. جسد ممشوق مثل السيف أو السهم .. مباشر مثل قطعة الرصاص .. لا ينام إلا بين صراخ الدماء فى العروق، أو بين صراخ الذئاب .. امرأة تجيد قراءة لغة الخلايا والأعضاء.

فى تلك الأمسية استقبل اللورد آستور مجموعة من ضيوفه، وسار أمامهم فى اتجاه بوابة السور المحيط بحمام السباحة .. وما أن دخلوا من البوابة حتى وجدوا حسناء عارية تخرج من الماء، وتبعد بيديها شعرها الأحمر الطويل عن عينيها .. وبينما اتسعت ابتسامة الغرباء، صرخت الحسناء العارية مطالبة بملابسها التى رماها رفاقها بعيداً عنها.

كانت كريستين كيلر هذه الحسناء العارية، وكان بين الضيوف چون بروفيمو .. وكان هذا المشهد هو المشهد الافتتاحى فى الفضيحة .. أما المشهد التالى فكان سقوط بروفيمور فى هوى كريستين .. لقد أفقده جسدها العارى، السمع والبصر والفؤاد .. ولم يعد ينتبه لما يدور حوله.

لم يعرف بروفيمو فى ذلك اليوم ٨ مايو ١٩٦١ علاقة كريستين بالجاسوس السوفيتى إيفانوف . ولا علاقتها بالعميل المزدوج ستيفن وارد .. كل ما أحس به هو أنه يريدها .. وأنه مستعد للتضحية بكل شئ فى سبيل الحصول عليها .. وفيما بعد، قالت كريستين كيلر فى التقرير الرسمى عن الفضيحة:

ـ إن إيفانوف كان يعجبها اكثر .. لأنه مثل «الفحل» .. أما بروفيمو فكان يهوى الجنس

لكنه لا يقدر على «امرأة تفهم فى الرجال» مثلى.

واستطردت :

- إن بروفيمو كان يتصرف معى فى الفراش مثل الزهرة .. أما إيفانوف فكان مثل البلطة.

وفى اللحظة التى كان فيها إيفانوف «البلطة» يشطر جسد كريستين كيلر إلى نصفين .. كان يحرضها على العمل كجاسوسة لبلاده .. وفى اللحظة التى كان فيها بروفيمو «الزهرة» ينثر أوراقه الملونة على جسد كريستين كيلر .. كان يتحول إلى جاسوس للسوفيت دون أن يعرف .. فقد راح يتحدث عن نفسه وعن عمله كثيراً .. ولم يتردد فى أن يُخرج ما فى جوفه من أسرار .. إن ضعفه فك عقدة لسانه .. وعجزه عن توصيل كريستين كيلر إلى بر المتعة جعله يفتح خزائن عقله، ويكشف ما عنده .. جعله يتعامل فى الفراش كوزير بعد أن اهتز كرجل .. ومن ثم تحدث عن خطط التسليح النووى فى أوروبا وخرائط نشر القوات الأمريكية فى ألمانيا الغربية .. لقد فشل فى السيطرة على نفسه بعد أن فقد السيطرة على كريستين كيلر.

إن الجنس هو مفتاح هذه الشبكة المعقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية .. كريستين كيلر أشهرت جسدها فى وجه بروفيمو فأصابته وأسقطته .. لكن جسدها خانها أما بلطة إيفانوف .. الذى تحكم فى مفاتيح رغباتها .. فكان قادراً على أن يفتحها ويغلقها كما يشاء، وأصبح جسدها كالعجينة اللينة بين أصابعه .. والمقصود .. أن الجنس ليس سلاح المرأة فقط، وإنما سلاح الرجل أيضاً .. ولو لم تكن امرأة مثل كريستين كيلر قادرة على استعمال هذا السلاح فإنه يصبح على رقبتها.

■ ■ ■ ■

المذهل .. أن المخابرات البريطانية كانت على علم بما يحدث .. فقد أبلغ ستيفن وارد عن حفلات الجنس الجماعية التى يحضرها بروفيمو، وقدم تقريراً شفهياً إلى السير روجر هوليس المسئول عن مكافحة الجاسوسية الذى كان يعرف بالأدلة أن إيفانوف جاسوس سوفييتى محترف .. كذلك فإن المخابرات البريطانية كان لها عميلة عارية فى هذه الحفلات اسمها ماندى رايس رديفيس كانت تنقل كا ما يجرى .. وكانت ماندى تلاحظ أن بعض رجال المخابرات يميلون إلى سماع أدق التفاصيل الجنسية .. وأنهم كانوا يستمتعون بهذه التفاصيل .. وأن ملامحهم كان تضطرب .. وأنفاسهم تتلاحق .. لقد كانوا هم أيضاً

يأخذون نصيبهم من المتعة.

ويبدو أن الغيرة أكلت قلب ماندى لأن كريستين كيلر تجذب كل الرجال الكبار إليها .. وأنهم يتقاتلون عليها .. فوجدت ماندى نفسها فى لحظة غضب تطلق الرصاص عليها .. لكنها لم تصب .. على أن أصوات طلقات النار جعلت الفضيحة بجلاجل.

وحاول السير روجر تجنيد إيفانوف ليصبح عميلاً مزدوجاً، وأقنع ستيفن وارد بأن يقوم بالمحاولة مستغلاً حب إيفانوف للشراب والنساء .. لكن المحاولة فشلت .. وسر الفشل ـ كما جاء فى التقرير الرسمى عن الضحية ـ هو أن إيفانوف كان «شيوعياً ملتزماً ببلاده» .. كما أنه كان جاسوساً مدرباً فلم يبتلع الطعم، بل كشف المحاولة، ولم يتردد فى استثمار كل من حوله لصالحه .. فقد حصل من ستيفن وارد على ثلاثة البومات من الصور، التقطها لأشخاص مهمين وهم يضاجعون العاهرات اللاتى أتى بهن إليهم من خلال مرايا عاكسة .. وعندما اكتشف أن كريستين كيلر وچون بروفيمو من ضحايا ستيفن وارد، قال له: إنه لن يواجه مصاعب فى الحصول على تأشيرة دخول موسكو لو استطاعت كيريستين كيلر، أن تعرف من بروفيمو إجابات على بعض الأسئلة العسكرية.

ولم يكتف المسئول عن مكافحة الجاسوسية بذلك بل ذهب إلى بروفيمو نفسه، وكشف له ما يعرفه بالصوت والصورة .. وقبل أن يبتلع الوزير أنفاسه، ويجفف عرقه، فوجئ برجل المخابرات الكبير يطلب منه الابتعاد عن كريستين كيلر، والسعى إلى تجنيد إيفانوف ليكون عميلاً مزدوجاً .. ولم يستطع بروفيمو أن ينفذ شيئاً من طلب هوليس .. وشعر أنه يريد إبعاده عن كريستين كيلر ليفوز هو بها.

ومن جانبه قرر بروفيمو أنهاء علاقته بكريستين .. لكنه فعل ذلك بخطاب أرسله إليها، بدأه بكلمة «حبيبتى» .. فكانت هذه الكلمة مسماراً آخر يدُق فى نعشه السياسى.

وتورطت كريستين كيلر مع رجلين من الهند الغربية فى وقت واحد .. واعتقل أحدهما لأنه عض الآخر بدافع الغيرة وأطلق عليه الرصاص فى منزل ستيفن وارد .. وبعد هذا الحادث بدأت كريستين كيلر تعانى من ضائقة مالية .. فراحت ـ فى أوائل يناير ١٩٦٣ ـ تعرض تفاصيل ما جرى بينها وبين بروفيمو، ودعت روايتها بالخطاب الذى كتبه بروفيمو .. وسعت إلى الصحف لتبيع القصة .. وعرف رئيس الحكومة هارولد ماكيلان فحاول التدخل لمنع النشر بحجة الحفاظ على الأمن القومى، وأسرار الدولة العليا .. لكن لا أحد استجاب لهذه الحجة .. وقامت الدنيا ولم تقعد بعد النشر .. وقبضت كريستين من

صحيفة واحدة ٢٣ ألف جنيه .. واضطرت الحكومة إلى فتح التحقيق الذى كشف عن تورط أكثر من ٥٠ شخصية مسئولة فى الدفاع والمخابرات، عرفوا بالفضيحة، وتستروا عليها، على أمل أن ينالوا كريستين كيلر ولو مرة واحدة.

ولم يجد بروفيمو أمامه سوى الإنكار .. وفى ٢٢ مارس ١٩٦٣ اضطر للكذب فى خطاب ألقاه أمام مجلس العموم .. ولكن ستيفن وارد كتب رسالتين إلى مجلس العموم أثبت فيها كذب الوزير .. فقد كان المطلوب تدميره وتدمير حكومته.

وسافر بروفيمو لقضاء أجازته فى مدينة البندقية الإيطالية .. هناك قرر أن يريح ضميره .. وأفضى إليها بسره .. وعاد على الفور إلى لندن .. حيث قدم - فى ٤ يونيو - استقالته من الحكومة ومن البرلمان .. وكان عضواً فى البرلمان لمدة ٢٥ سنة متصلة .. واكتملت الفضيحة بشطب اسمه من عضوية حزب المحافظين لمحاولته تضليل الرأى العام.

ووقف ستيفن وارد أمام المحكمة .. ووصف أثناء المحاكمة .. بأنه «شخص قذر للغاية» .. و«مخلوق حقير جداً» .. لكن السير كولين قال: «إننى أشك أن شخص وضيع مثل ستيفن وارد قد أحرج حكومة كاملة من قبل» .. على أنه قبل أن تنتهى المحاكمة مات ستيفن وارد .. وقيل أنه تناول جرعة زائدة .. لكن .. بعض الاتهامات الخفية نسبت وفاته إلى المخابرات البريطانية .. والبعض الآخر نسب الوفاة إلى المخابرات السوفيتية .. والمعنى أن موته أو قتله كان ضرورة لإسكاته لأنه يعرف كثيراً .. خاصة وأنه مع مرور الوقت اتضح أنه وكريستين كيلر كانا ترسين يتحركانِ فى لعبة خطرة من ألعاب التجسس.

فى ١٧ يوليو جاء الدور على رئيس الحكومة هارولد ماكميلان ليدفع الثمن .. كان فى مجلس العموم عندما هاجمه النواب بكلمات جارحة .. منها «أن رئيس الوزراء مثل الزوج المخدوع، آخر من يعمل .. فقد أُجبر على الاعتراف بأن أحداً لم يخبره بما حدث .. وكان ذلك تصريحاً مذهلاً من المسئول عن السلطة التنفيذية فى بريطانيا .. فكان أن استقال من منصبه بعد ١٢ شهراً .. ولم يستطع خلفه السير دوجلاس هوم أن يكسب الانتخابات العامة أمام الزعيم العمالى هارولد ويلسون.

وتقاعد أيضاً بعد حوالى السنة السير روجر هوليس المسئول عن مكافحة الجاسوسية فى المخابرات البريطانية .. جاء التقاعد بعد اللوم الذى وجهته إليه لجنة اللورد دينينبغ التى شكلها مجلس العموم لتقصى الحقائق فى فضيحة بروفيمو .. وقد صدر تقريرها فى سنة ١٩٦٤، وجاء فيه:

«لقد قام الكابتن إيفانوف بدور جديد فى الأسلوب السوفيتى، كان سيؤدى إلى قطع العلاقات بين لندن وموسكو بأساليب ملتوية .. فإذ تعرض الوزراء والأشخاص البارزون للشبهة أو أصبحوا فى موقف يدمر سمعتهم، وإذا ظهرت مخابراتنا فى صورة متردية، فإن ذلك يمكن أن يضعف ثقة الولايات المتحدة بأمننا .. ومن ثم لا تعتمد علينا .. وإذا كان هذا مقصد الكابتن إيفانوف ـ الذى استخدم ستيفن وارد كأداة لتنفيذ مخططه ـ فقد نجح نجاحاً مطلقاً فى مسعاه».

والمثير للدهشة أن الولايات المتحدة ـ التى كان يخشاها اللورد دينينبخ ـ قد تورطت فى فضيحة بروفيمو بطريقة غير مباشرة .. فقد كان للمخابرات المركزية عميل سوفيتى فى الأمم المتحدة أخبرها عن حوار دار بين إيفانوف وقيادته فى موسكو ادعى فيه إيفانوف بأنه تنصت على ما يدور فى غرفة نوم كريستين كيلر، وحصل على أسرار قيمة فى خلال حديثها مع بروفيمو وهم مستلقيان يتحدثان فى الفراش.

ودقد رفع مسئول المخابرات الأمريكية فى ذلك الوقت إدجار هوفر هذه المعلومات فى تقرير إلى الرئيس الأمريكى چون كيندى الذى تقاعس عن إرسالها إلى لندن قائلاً:

«تكفى سير ماكميلان مشاكله».

وعندما انفجرت الفضيحة فى لندن أدركت واشنطن أن لا أحد يستفيد من معلومات الجواسيس الذى يكلفون الميزانية الأمريكية الكثير من الأموال.

■ ■ ■ ■

اعتزل بروفيمو الحياة العامة .. انسحب من دائرة الضوء جامعاً ما يستطيع من كرامته المبعثرة .. وأرسل زوجته للعمل فى إحدى منظمات الأمم المتحدة بعيداً فى أمريكا اللاتينية .. وغادر إيفانوف لندن باعتباره غير مرغوب فيه .. ونقلت كريستين كيلر نشاطها إلى أسبانيا .. ودخلت التاريخ من أسوأ أبوابه.

إن المرأة .. سر الحياة .. يمكن أن تكون سبب الموت.

١٥

الجنس والتجسس

العرى من أجل الوطن

الدعارة .. أقدم مهنة فى التاريخ .

والجاسوسية .. هى المهنة التالية .

هكذا .. يقول مؤرخو أجهزة المخابرات فى العالم .. فالمرأة باعت جسدها لتأكل .. ثم باعته لتحصل على الأسرار.

وفى الأصحاح الثانى من سفر يشوع، أن يشوع بن نون أرسل جاسوسين سراً إلى أريحا فى فلسطين ليكتشفا الأرض المقدسة قبل غزوها .. وأرشدهما عن بيت زانية اسمها رحاب أو راحاب .. فذهبا إليها .. وناما فى فراشها .. وعرف ملك أريحا بأمرهما فطلب منها أن تخرجهما .. لكنها .. خبأتهما فى الظلام فوق السطح، وغطتهما بعيدان الكتان .. وقبل أن يغادرا بيتها طلبت منهما رد الجميل بأن لا يقتل جنود يشوع أسرتها إذا ما غزوا الأرض المقدسة .. فوعداها بذلك .. أنزلتهما بحبل من السطح، وقالت لهما: اذهبا إلى الجبل واختبئا هناك ٣ أيام .. فقالا لها: ضعى علامة حمراء على بيتك حتى لا يقتل يشوع وجنوده أهلك.

وفى الأصحاح السادس .. أن يشوع وجنوده بعد أن أسقطوا أسوار أريحا قلتوا بحد السيف «كل ما فى المدينة من رجل وامرأة وطفل وحتى البقر والغنم والحمير».

وقال يشوع للرجلين اللذين تجسسا الأرض، ادخلا بيت المرأة الزانية واخرجا من هناك المرأة وكل مالها كما حلفتما لها، فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها وإخوتها وكل مالها وأخرجا كل عشائرها وتركاهم خارج محلة إسرائيل وأحرقوا

المدينة بالنار مع كل ما بها.

واستحى يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها وكل مالها .. وسكنت فى وسط إسرائيل إلى هذا اليوم .. لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكى يتجسسا أريحا.

إن رحاب الزانية أقدم امرأة اشتغلت بالتجسس، وسجل الكتاب المقدس قصتها، ورفعها إلى مرتبة القديسات.

■ ■ ■ ■

ولو كانت رحاب هى الأقدم، فإن ماتاهارى هى الأكثر شهرة.

وماتاهارى أسمها الحقيقى مرجريت جرترود .. وهى الأنثى النموذج فى تاريخ التجسس .. وهى التى أطلقت على نفسها ماتاهارى .. ومعناه «عين الصباح» .. فالرجال كانوا يرون النهار - فى عز الليل والظلام - إذا ما خلعت ثيابها.

وقد كانت تحترف الرقص المتوحش الشهوانى . تفك ضفائرها .. تطلقها .. تجعل شعرها الغجرى، المجنون، يسافر إلى كل الدنيا .. وتحرك أساورها .. إنها من الذهب والياقوت .. ترتطم ببعضها البعض فتخرج نغمات من لحن خاص، مميز .. يمتزج بعطرها القوى المستخرج من زيوت الشرق .. ومع الموسيقى الاستوائية الصاخبة يتلوى جسدها .. فتخرج عيون الرجال من مناجمها .. وهؤلاء الرجال كانوا جنرالات ورجال مال وزعماء .. وما إن تنتهى الرقصة حتى يسارعوا بإلقاء المجوهرات والأسرار الثمينة - مثل القرابين - تحت قدميها.

وُلدت هولندية، وعندما غادرتها فى سنة ١٩٠٣ إلى باريس، تركت وراءها طفلة من رجل آسيوى، لا يزيد عمرها عن ٣ سنوات .. اسمها باندا ماكلويد .. أو زهرة عباد الشمس.

فى باريس جندها ضابط مخابرات المانى .. أحبته .. منحته جسدها .. لكنه لم يتردد فى استغلال هذا الجسد لصالح بلاده .. فبدأت تعمل لحسابه .. ودخل فراشها كبار قادة بريطانيا وفرنسا .. وخرجوا وقد أفرغوا ما فى جعبتهم من أسرار .. إنها شهريار الأنثى .. كل ليلة برجل تعريه من ثيابه ومن أسراره .. وفى اليوم التالى يلبس الريح ثوباً .. كان كل جنرال يدخل فراشها مستعداً أن ينقل لها البحار والجبال والغابات من أماكنها .. مستعداً أن يبيع العالم مقابل درهم واحد من أنوثتها .. مقابل أن يشم رائحة البخور والكافور والبهار من ثيابها .. وكانت تتركهم - واحداً بعد الآخر - بعد أن يأكلهم الغبار.

وعندما انكشف أمرها .. أعدمت رمياً بالرصاص فى فرنسا .. فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٧.

لكنه .. ابنتها الوحيدة باندا لم تعرف ما جرى لأمها حتى بلغت العشرين من عمرها .. لقد ظلت باندا فى جاوه مع والدها الأندونيسى وزوجته .. كانت تجمع بين نضارة أوروبا .. وطن أمها .. وحيوية آسيا .. وطن أبيها .. فاستحقت أن توصف بزهرة الشمس.

تزوجت باندا من موظف كبير، سرعان ما توفى بالحمى الاستوائية .. فكان أن انغمست فى الحياة الاجتماعية والأدبية للمجتمع الأندونيسى .. وعندما احتل اليابانيون أندونسيا .. وطردوا منها الهولنديين، طلب منها ضابط فى مخابرات «الكمبتاى» ـ المخابرات اليابانية ـ أن تتعاون معهم مستغلة جمالها، وصالونها الثقافى .. وهددوها بالقتل .. وبكشف حقيقة أمها .. فاستسلمت لهم .. لكنها فى الوقت نفسه قررت الانتقام منهم .. ووجدت فى صديقها وحبيبها الكولونيل الشاب عبد الله شريكاً لها فى الانتقام من اليابانيين .. وكان الكولونيل عبد الله عضواً بارزاً فى منظمة سرية لمقاومة الاحتلال اليابانى .. وقد أمدته باندا بملعومات حيوية عن تحركات وعمليات الجيش اليابانى فى الجزيرة .. التقطتها من الضباط اليابانيين الكبار الذين كانوا يصفونها فى الفراش بثمرة جوز الهند.

ونجحت معلومات باندا فى تجنيب الثوار العديد من الضربات الموجعة .. بالإضافة إلى كشف عدد القوات اليابانية وأسلحتها، وأماكنها .. مما مهد لهبوط الجنود البريطانيين فى اندوسيا عام ١٩٤٥.

وخرج المحتل اليابانى .. وعاد المحتل الهولندى .. ووجدت باندا نفسها فى مأزق .. فقد طلب حبيبها عبد الله الاستمرار فى التعاون مع منظمته السرية لطرد الاحتلال الهولندى أيضاً .. فقالت له:

ـ هل نسيت أننى هولندية؟

ـ وهل نسيت أنك أندونسية؟

ـ لم أنس ما هو أهم .. أننى أحبك.

ـ الحب فى وطن محتل .. هو حب ملوث بأنفاس غليظة .. وجلود سميكة .. وأحذية سوداء ثقيلة.

ـ هنا وطنى .. وأنا أحبك بدون تلوث.

وتظاهرت باندا بأنها تحتقر الأندونسيين، حتى يطمئن إليها الهولنديون، ونجحت فى تجنيد أحد الموظفين فى مكتب الحاكم العام الهولندى الذى راح يمدها بكل ما تريد ـ وما يريد الثوار ـ من معلومات.

ولكن .. هذه المعلومات لم تنقذ حبيبها الكولونيل عبد الله من الموت .. فقد قتل فى معركة مع القوات الهولندية.

وشعرت باندا بالحزن .. وقاطعت الحياة .. وأعلنت الصيام عن الرجال .. وقررت أن تنسى أنها امرأة، وأنها جاسوسة، وان البنت لأمها .. لكن ذلك لم يستمر طويلاً .. فقد عادت إلى ما كانت عليه .. غلبتها أنوثتها .. والصفات الوراثية .. والجاذبية، وحب المال، وشهوة الجنس، وجنون التوتر والمغامرة.

واستخدمتها المخابرات الأمريكية فى التجسس على ثورة ماوتسى تونج فى الصين .. وبعد تدريب مكثف على أعمال الجاسوسية استمر ٣ شهور، ظهرت فى ثوب ممرضة فى شنغهاى، ثم ساقية فى بار، ثم موظفة فى مقر الزعيم الصينى .. وراحت ترسل للأمريكيين تقارير وافية عن الحركات الشيوعية فى جنوب شرقى آسيا .. ولم يكشفها سوى الكوريين الشماليين .. وطلبوا أن تعمل فى خدمتهم .. لكنها رفضت قائلة:

ـ لم أعد أستطيع .. لم أعد قادرة.

وفى يوم ٢٤ مايو ١٩٥١ أعدمت فوق ثلوج كوريا ـ مثل أمها ـ رمياً بالرصاص .. وفوق الجليد الأبيض سقطت زهرة الشمس.

■ ■ ■ ■

وملكة الإغراء فى تاريخ الجاسوسية هى آمى ثورب .. إنها أمريكية .. تجمع بين جاذبية مارلين مونرو .. وذكاء مرجريت تاتشر .. وثقافة سيمون دى بوفوار .. لكنها لم تعاصرهن .. فقد تزوجت فى الثلاثينات من دبلوماسى بريطانى، خشن، وشرس، ومغرور، وأكبر منها بعشرين سنة هو آرثر باك .. لم يكن يليق بأنوثتها الخارقة .. ولم يناسب امرأة صغيرة لها مثل تطلعاتها وحبها الهائل للمغامرة .. ولم يقدر قيمة النعمة التى ترقد فى فراشه .. فعاملها بجليطة .. ومع ذلك بقيت معه .. واقتضى عمله السفر إلى تشيلى وأسبانيا .. ثم بولندا .. ففى عام ١٩٣٧ دعتها المخابرات البريطانية للعمل معها فوافقت على الفور.

لقد وضعت المخابرات البريطانية فى طريقها شاباً يفهم فى النساء، ويعرف كيف يعامل المرأة، وكيف يجعلها تتبعه وتستسلم لإرادته .. وقد فاتحها فى العمل .. فسارعت بالموافقة .. ولم يكن السبب انه سيطر عليها بالجنس، وإنما كان السبب هو رغبتها العارمة فى المغامرة.

وعُرفت آمى ـ خلال الحرب العالمية الثانية ـ باسم سينثيا .. وفى وارسو أصبحت عشيقة وكيل وزارة الخارجية البولندية .. فأخبرها عن آخر التطورات فى المانيا وتشيكوسلوفاكيا .. وكانت هذه المعلومات مهمة للبريطانيين .. لكن الأهم أنها نجحت فى الحصول على الشفرة الألمانية السرية .. مما جعل من السهل التنصت على اتصالات هتلر، وتعطيلها.

وفى سنة ١٩٤١ عادت آمى إلى نيويورك .. فطلبت منها المخابرات البريطانية السفر إلى واشنطن والإقامة فى شقة فاخرة، ومريحة فى أرقى أحياء العاصمة الأمريكية .. وفى حفل كوكتيل أوقعت فى شباكها الأدميرال البرتو لايس الملحق العسكرى لموسولينى فى الولايات المتحدة.

والمذهل .. أنها لم تبق نواياها سرية .. وبصراحة مباغتة قالت له:

ـ أنا جاسوسة !

وبعد أن أفاق لايس من الصدمة وجد نفسه يقول لها:

ـ وأنا أحبك.

كان مأخوذاً بجمالها .. فلم يمانع من تصوير ما تطلبه منه .. وجن رجال المخابرات البريطانية وقال أحدهم: «إنه شئ مذهل أن رجلاً مثل البرتو لايس له خبرته وحكمته ويعتبر ضابطاً ثورياً بالغريزة والتدريب والاقتناع يمكن أن ينقاد وراء عواطفه لهذه الدرجة.

قدم لايس الشفر الإيطالية .. فساعدت على تدمير سفن المحور فى البحر المتوسط .. ومهدت لحملة الحلفاء على شمال أفريقيا .. وبعد أن استنفدت آمى اغراضها من لايس أخبرت مكتب المخابرات الفيدرالى عما كان يعرفه عن أعمال التخريب فى الموانئ الأمريكية، فأعادوه إلى وطنه باعتباره شخصاً غير مرغوب فيه.

كان هدفها التالى السفارة الفرنسية التى كانت تابعة آنذاك لحكومة فيشى العميلة للنازية والتى وضعت بعد احتلال هتلر لفرنسا .. فركزت على الكابتن تشارلز بروس ..

الطيار الحربى السابق .. والملحق الإعلامى .. ولم يأخذ منها سوى ليلة واحدة .. أصبح بعدها مثل الخاتم فى أصبعها .. ولم يغد يستطيع الابتعاد عنها، حتى إنه طلب منها أن تقيم فى الفندق الذى يقيم فيه هو وزوجته .. ثم أخبرها عن كنز من السبائك الذهبية الفرنسية مخبأ فى جزيرة مارتينيك فى البحر الكاريبى، فاستولت عليه المخابرات البريطانية، ثم استخدمته كضمان للحصول على قروض أمريكية لتمويل الحرب.

على أن المهمة الأصعب كانت حصول آمى على الشفرة الفرنسية، وكانت فى غرفة مغلقة فى السفارة، ولا يستطيع بروس نفسه الوصول إليها، فكان لابد من خدعة للحصول عليها.

فى إحدى ليالى واشنطن الباردة توجهت آمى وبروس إلى حارس السفارة الليلى وتوسلا إليه أن يسمح لهما بقضاء ليلة غرامية داخل المبنى .. قال بروس إنه متزوج ولم يجد ماكاناً آخر ليكمل فيه موعده الغرامى .. وأعطاه رشوة سخية .. وزجاجة شمبانيا .. وتركهما الحارس يدخلان، وبعد قليل تسلل على أطراف أصابعه حتى باب الغرفة التى كانا بداخلها واسترق النظر بفضول من ثقب الباب، فوجد آمى ممدة على الأريكة عارية بإغراء، فابتسم فى بلاهة وعاد أدراجه ليشرب زجاجة الشمبانيا .. فى اليوم التالى تكررت الصفقة مع الحارس الذى اطمأن إليهما .. ولكن زجاجة الشمبانيا هذه المرة كانت تمتلئ بمخدر قوى المفعول .. وما أن استغرق الحارس فى سبات عميق حتى تسلل إلى السفارة - من باب جانبى - خبير فى فتح الأقفال، فتح غرفة الشفرة، ونسخ صورة منها.

وغيرت هذه الشفرة مسار الحرب .. وفى سنة ١٩٤٥ قالت الصحف البريطانية: إن سيطرة آمى القوية التى دوخت الرجال فتحت طريق تحرير فرنسا .. وغزو ألمانيا .. وسُئلت آمى:

- هل شعرت بالخجل فى علاقاتك الجنسية؟

فقالت :

- الخجل .. بالتأكيد لا .. لأن رؤسائى قالوا لى بأن عملى أنقذ أرواح الآلاف من جنود الحلفاء.

وانتهت الحرب .. وطلق بروس زوجته .. وتزوج آمى بعد أن وُجد زوجها مقتولاً فى الأرجنتين .. وعاشا فى قصر فى جنوب فرنسا .. وفى سنة ١٩٦٣ ماتت أكثر الجاسوسيات نجاحاً وفتنة فى العالم بعد صراع مع مرض السرطان الذى فتك بها .. وبعد ١٠ سنوات مات بروس.

على الجانب الآخر كان النازيون أول من نظم شبكات المتعة لمعرفة الأسرار .. ففى عام ١٩٣٩ أمر رينهارد هايدرتيش، وكان رئيس الجستابو، والترشيلنبرج أن يدفع فتيات جميلات للتسلل إلى الفنادق والملاهى وبيوت الدعارة، ليدخلن فى علاقات خاصة، فيعرفن الآراء المختلفة بصراحة من خلال أحاديث الفراش.

فى ذلك الوقت قال هتلر :

«إن المرأة الألمانية أنفع بكثير من الرجل فى عالم التجسس وأننى شديد الإعجاب بذكائهن وخططهن النسائية نظراً لتفوقهن بسلاح الإغراء، وقدرتهن الهائلة على وضع الطعم القاتل لفريستهن فى جو هادئ .. حقيقة إن النساء لأعظم قوة كامنة فى حزبنا السياسى».

وأدارت شبكة النساء النازية امرأة اسمها كيتى شميث، وزرعت فتياتها على أشهر ملاهى برلين فى شارع جيسبرخت .. ورغم الأسعار كانت مرتفعة، فقد تدفقت إلى غرفها أكثر شخصيات البلاد شهرة ونفوذاً .. وما أنجزته هذه الشبكة كان مذهلاً .. كشفت عمليات تهريب أموال يهود ألمانيا إلى الخارج .. وكشفت الكثير من القوى المعارضة لسياسات هتلر .. على أن كيتى نفسها سعت إلى تهريب أرباحها إلى لندن .. وفى ٢ يونيو ١٩٣٩ حاولت الهرب .. لكن رجال الجستابو كانوا فى انتظارها على الحدود الألمانية الهولندية .. فعادت لتعلب الدور نفسه .. وزرعت أجهزة التنصت فى الغرف .. أما أجهزة التسجيل فكانت فى قبو تحت الأرض.

كان عدد فتيات كيتى ٩٠ فتاة وقد أُختير هذا العدد بين مئات من المومسات خضعن لاستجوابات صارمة من رجال المخابرات والأطباء النفسيين .. وأخذ البعض منهن برنامجاً مكثفاً للتدريب على اللغات الأجنبية، والرتب العسكرية، والحيل النفسية لاستخلاص المعلومات والأسرار السياسية.

وفى خلال شهر واحد سجل الجستابو من غرف النوم ما يقرب من ٣٠٠ اسطوانة شمعية، ومع نهاية عام ١٩٤٠ كان أكثر من ١٠ آلاف شخص قد دخلوا شبكة كيتى، التى استمرت حوالى العامين، وقد أغارت طائرات الحلفاء على مقر كيتى وضربته بالقنابل وحتى ماتت سنة ١٩٥٤ ـ عن ٧١ سنة ـ حافظت كيتى على أسرارها .. بالرغم من وقوع ٢٥ ألف أسطوانة فى يد الحلفاء بعد الحرب .. وكانت هذه الاسطوانات مخزنة فى مقر الجستابو فى شارع مينيك!

استفادت المخابرات السوفيتية من شبكة كيتى، وكونت فيما بعد شبكة على نفس

الطراز، عرفت باسم طيور الحب .. أو طيور السنونو.

إن طيور السنونو، فتيات روسيات جميلات إلى حد الإبهار، تدربن فى معسكرات خاصة على إغواء الغربيين بمنتهى الثبات من أجل تجنيدهم أو وضعهم تحت السيطرة .. وتضع المخبرات الروسية الفتاة المناسبة فى طريق الرجل المناسب .. بحيث لا تخيب الفتاة من أول مرة.

وفى كتابه «التجسس والجنس» يروى المؤلف ديفيد لويس تجربة إحدى فتيات السنونو التى إنشقت وطارت بعيداً، اسمها فيرا، وقالت: إن فتيات السنونو تختارهن المخابرات الروسية من فتيات المدارس والجامعات الجميلات والذكيات ويتم إغراؤهن بالمال والامتيازات مقابل مهام غير محددة يقمن بها لصالح الدولة .. وهن يذهبن إلى معسكرات فى مناطق نائية عليها حراسة مشددة ليتدربن على التجرد من العيب والحياء، والبرنامج صمم خصيصاً لتخليصهن من الكبت .. فيشاهدن فى البداية أفلاما تصور جميع النشاطات الجنسية بما فيها الشذوذ والإنحرافات .. ثم يؤمرن بخلع الملابس ويتعانقن وينتقدن أجساد بعض .. وبعدها يصل عدد كبير من الجنود، يضاجعون الفتيات بلا قواعد و ترتيب مسبق .. وتصور عمليات الجنس، وتناقش الأفلام جماعياً .. وبعد حوالى الشهر تكون الفتاة قد فقدت حياءها تماماً وتصبح جاهزة لتنفيذ أى مهمة مهما كانت.

وقالت فيرا :

«لقد أخبرونا بأن علينا أن نتذكر أننا جنود نحارب على خطوط الجبهة الأمامية لمعركة أيدلوچية مريرة .. وفى زمن الحرب يتلقى الجنود عادة أوامر للقيام بأشياء يجدونها كأشخاص مدنيين منفرة .. لكن .. التضحيات الصعبة كانت أساسية، كنا قد أصبحنا فتيات قاسيات القلوب، سوداويات النظرة ومعقدات نفسياً وقادرات على مضاجعة أى رجل طبيعى تختاره السلطة لنا، فنجعله يمضى أمتع أوقات حياته» .. لكن .. الثمن الذى يدفعه يكون غالياً .. حياته أو حياة بلاده.

إنهن جواسيس الإثارة.

حيث الجنس هو الوجه الآخر للتجسس.

وفى هذه الحالة تتجاوز غرف النوم الحكومات لتصبح غرف عمليات حربية ومخابراتية، تُرسم فيها سياسات، ويُحطم فيها رجال، وتشترى فيها الأسرار .. كل ذلك تحت دعوى شريفة .. مصلحة الوطن العليا .. لكن .. كم من الجرائم تُرتكب باسم المصلحة العليا والقيم العليا.

١٦

وغاص المشير عامر إلى شوشته

فى أكتوبر ١٩٥٦ ـ بعد حرب السويس ـ انضم إلى المخابرات العامة .. فولدت الأسطورة.

فى أكتوبر ١٩٦٧ ـ بعد حرب يونيو ـ دخل السجن الحربى .. فانفجرت المأساة.

إنه صلاح محمد نصر النجومى .. وشهرته صلاح نصر.

إن مصر هى أرض النبوات والمعجزات .. لكن صلاح نصر أضاف: وأرض المخابرات أيضاً.

لقد أخرس حوار المقاهى .. وقهقهات التلاميذ وهم يعبرون الشوارع .. واشترى بالوعد والوعيد بنات الهوى ورجال القلم .. وجعل المبدعين فى بلادنا يطفون على بحر من النميمة .. وجعل البشر العاديين يرددون ما قاله نزار قبانى: ياربى .. إن الأفق رمادى .. وأنا أشتاق لقطرة نور .. إن كنت تريد مساعدتى ياربى .. فاجعلنى عصفور.

فى صيف ١٩٧٦ رحت إلى بيته فى حى «مصر الجديدة» لأجرى معه حواراً صحفياً .. تأملت كثيراً .. وسرحت بعيداً .. هل هذا هو «الرجل» الذى جعل الخوف عادة قومية مزمنة؟ .. هل هذا هو «الفك المفترس» الذى وضع وطناً بأكمله بين أسنانه وأنيابه؟

إنه يبدو مثل دب عجوز .. يلتقط انفاسه بصعوبة وكأنه فى حالة ربو دائمة .. فقد مخالبه .. لم يبق له سوى الخوف والشكوى .. والدفاع المميت عن نفسه .. وهو يحدثنى عن يوم سقط فى مكتبه مطعوناً فى صدره بخنجر الذبحة .. وكيف نقلوه إلى مستشفى

«القوات الجوية» فى العباسية .. وخوفه من القتل .. أو من الاختفاء وراء الشمس كما كان يفعل مع ضحاياه .. حتى إنه وقف كالمجنون فى شرفة بالمستشفى ليصرخ فى المارة .. إنه صلاح نصر .. وإنهم سيقتلونه .. لقد ذاق الكأس نفسه الذى شرب منه المصريون.

ثم .. حدثنى عن رجال الأمن الذين اقتحموا بيته وقلبوه رأساً على عقب وفتشوا دولاب زوجته وابنته، وأخذوا يفحصون ملابسهما الداخلية ووجدوا ٧٠ جنيها أخذوها وتركوا البيت بلا نقود .. لقد جاء عليه الدور.

أصبحت فضيحته على كل لسان .. توالت الصحف والكتب التى تنهش سمعته .. ومدت السينما يدها لتأخذ نصيبها من الفضيحة .. وقيل أن خالد صفوان رجل الأمن فى فيلم «الكرنك» ـ المأخوذ عن قصة نجيب محفوظ ـ هو صلاح نصر .. ولعب الدور فى الفيلم كمال الشناوى .. واعترض صلاح نصر .. ورفع اعتراضه إلى القضاء .. فعقدت المحكمة إحدى جلساتها فى قاعة عرض «ميامى» .. وكنت هناك أجلس مباشرة وراء صلاح نصر لأسجل انفعالاته .. واعترف أنه كان متماسكاً لا يهتز.

إن الفيلم يتحدث عن القهر، والتعذيب، والاغتصاب، وإجبار الشباب على كتابة التقارير الأمنية .. وكان السؤال الذى شغلنى .. هل كنا نعيش هذا الكابوس فعلاً؟ ورحت لسنوات طوال أفتش عن الإجابة.

■ ■ ■ ■

فى ٨ أكتوبر ١٩٢٠ وُلد صلاح نصر فى إحدى قرى الدلتا .. والده مدرس .. وأمه توفيت وعمره ١٧ سنة .. تمنت أسرته المتوسطة الحال أن يصبح طبيباً لكنه فضل أن يدخل المدرسة الحربية ليتخرج ضابطاً .. ويدعى البعض أنه «كان يشكو من عقدة نفسية تجاه النساء زادت من انحراف سلوكه .. وترجع إلى زواجه من زوجة عمه المتوفى عبد الله نصر والتى كانت تكبره بحوالى ٣٠ عاماً وتعاملـه كتلميذ وكابن من أبنائها فحول هذه العقدة إلى إذلال لكل الناس خاصة النساء».

لكن صلاح نصر يقول :

ـ إننى لم أشعر بالنجاح فى حياتى إلا بفضل زوجتى، وحينما واجهت المحنة كانت شجاعة واستطاعت أن تدبر نفسها.

وسأله الكاتب الصحفى حسنين كروم :

ـ ألم تنتب الشكوك زوجتك حينما قالت اعتماد خورشيد إنك تزوجتها عرفياً؟

قال :

ـ لم تشك زوجتى فى يوماً فالعلاقة بيننا علاقة ثقة كاملة .. وحينما شاهدت صورة العقد المزيف تأكدت من تزوير التوقيع باسمى.

فى ٢٣ أكتوبر ١٩٥٦ استدعاه جمال عبد الناصر وطلب منه أن يذهب إلى المخابرات العامة ليصبح نائباً للمدير .. وكان المدير على صبرى .. وبعد عدة شهور أصبح على صبرى وزير دولة .. وتولى صلاح نصر رئاسة الجهاز.

ولا جدال أن صلاح نصر جعل المخابرات المصرية مخابرات قوية، يحسب لها العالم ألف حساب .. لكن هذا الجهاز القوى جعل رجاله أقوياء .. وقد تجاوزت قوة بعضهم حدود العمل .. وامتدت إلى خارجه .. فولدت ما أسماه جمال عبد الناصر فيما بعد بدولة المخابرات.

لكن .. صلاح نصر يقول: إن المخابرات هى المخابرات .. وينقل عن هانسون بولدوين قوله:

«إن نظام المخابرات الصحيح عبارة عن منشأة ذات إمكانيات هائلة لكل من الخير والشر، ويجب أن تستخدم كل الرجال والنساء وكل الوسائل، فهى رقيقة وشرسة، وتتعامل مع الخونة، والأبطال، وهى ترشو وتفسد وتختطف وأحياناً ما تقتل فى وقت الحرب .. إنها تقبض على قوة الحياة، والموتى، إنها تستغل أسمى وأدنى العواطف، وتستخدم فى نفس الوقت الوطنية فى أعظم معانيها والنزوات فى أحط مداركها .. وهى تبرر الوسائل التى تحقق أغراضها .. إن مثل هذه المنظمة ذات الأهمية العظمى، والقوة المخيفة يجب أن تصالح أمورها بكل عناية وأن يبقى عملها داخل نطاق مرن تبيح سير هذا العمل بكفاءة».

ويستطرد صلاح نصر :

إن رجال المخابرات لا يحظون بأدنى فخر عند نجاحهم وتنهال عليهم أشد اللطمات حينما يخفقون.

وجاء فى البند الثالث من قرار اتهام صلاح نصر ـ فى قضية انحراف المخابرات بعد

الهزيمة ـ أنه ارتكب جنايات هتك باستغلال وسائل التصوير الفوتوغرافى والسينمائى السرية فى استدراج بعد النساء والتقاط صور فاضحة لهن بطريق الخديعة فى مكان أعد لهذا الغرض للتوصل بذلك إلى تهديدهن والسيطرة عليهم ليتمكن من إخضاعهن لشهواته الخاصة.

وأمام المحكمة ـ التى يرأسها حسين الشافعى ـ قال محامى صلاح نصر .. الدكتور على الرجال: إن هناك فارقاً له وزنه، هو أنه لا يجوز الخلط بين العمل المباح وغير المشروع، فقد يكون العمل مباحاً ولكنه غير مشروع، كالدفاع الشرس مثلاً .. فهو فى الأصل عمل غير مشروع ولكن القانون أباحهُ .. إذن فهناك فرق بين الإباحية والمشروعية .. وأولئك الذين يعيبون على المخابرات استخدام الجنس فى أعمال التجسس أو أعمال السيطرة على العملاء، يقعون فى الدرك فى الخطأ، ذلك أنهم يتناسون هنا الفارق بين المباح والمشروع، وبين مصلحة الدولة التى يباح من أجل سلامتها كل شئ».

■ ■ ■ ■

فى سنة ١٩٦٣ تقرر تشغيل النساء فى المخابرات المصرية .. اتخذ صلاح نصر هذا القرار بعد أن وجد كل أجهزة المخابرات فى العالم تستخدم الجنس فى عملها .. فالمعروف نفسياً أن الرجل يفقد توازنه وهو مع المرأة بل وقد ينسى نفسه ويتفوه بأحاديث سرية .. كان هذا مبرر استعمال سلاح الأنوثة فى مصر .. ولكن هذا السلاح ذو حدين .. فقد ينقلب ضد من يستخدمونه، إذا لم يحسنوا استخدامه، فالمرأة بطبيعتها متقلبة العواطف، كثيراً ما تغلب أنوثتها على الواجب، وقد تصبح عميلة للطرف الآخر إذا ما وقعت فى حبه أو غمرها بالمال .. وهذا ما قاله صلاح نصر لعبد الله إمام .. ثم استطرد:

«كان هذا من بين أسباب إحجامنا عن استخدام النساء فى بادئ الأمر ولكن ظروف الأمن أجبرتنا على ذلك».

وأضاف :

«إن بعض الزوار الذين كانوا يحضرون هنا لمباحثات سياسية سرية على مستوى القمة يتصلون بنساء .. وفى اليوم التالى كانت أجهزتنا تأتى بكل أسرار المحادثات من أفواه هؤلاء النسوة اللواتى يرددنها فى كل مكان .. ففكرنا أن يكون لدينا طاقم مدرب يمكن السيطرة عليه لا يفشى الأسرار .. هؤلاء اللواتى عملن معنا حصلن على تدريب أمن وفرق توعية، نجحنا بواسطتهن فى عدم نشر الأسرار السياسية .. كان هذا أساساً

هو المنطق الذى جعلنا نستخدم أسلوب النساء لكنه تطور بعد ذلك .. فكرنا فى استخدامه فى بعض قضايا التجسس .. ونجحت بعض النساء العميلات لنا فى الكشف عن قضايا تخابر لم يكن فى استطاعة الرجال أن يصلوا إليها.

■ ■ ■ ■

كان من بين الرؤساء الذين صُوروا فى أوضاع خاصة الرئيس الأندونيسى الأسبق احمد سوكارنو .. كان مولعاً بالنساء .. وكان يسقط فى أحضان اى امرأة توضع فى فراشه .. ولم يصور فقط فى القاهرة، بل صورته المخابرات الروسية أيضاً فى موسكو .. لكن .. عندما أرادوا ابتزازه وعرضوا عليه الصور الفاضحة، طلب نسخة منها ليأخذها إلى بلاده وينشرها علناً .. ثم قال:

«سيكون شعبى فخوراً بى بالتاكيد».

فلم يتابعوا محاولة تجنيده.

وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، عرضت إسرائيل على الأسرى المصريين صوراً لمسئولين مصريين وهم فى أوضاع جنسية مخجلة، وكان المقصود تحطيم ما تبقى من روحهم المعنوية، وتحريضهم على السلطة السياسية.

■ ■ ■ ■

المشكلة ليست فى استخدام النساء لخدمة المخابرات وإنما المشكلة فى استخدامهن لخدمة الأغراض الشخصية تحت غطاء المخابرات .. ومواجهة الأعداء .. والدفاع عن الوطن.

وقد اعترف صلاح نصر بأنهم استعملوا ١٠٠ فتاة، وأنهم كانوا يلجأون لتصويرهن من باب السيطرة وخوفاً من تقلب عواطفهن .. كذلك اعترف بأن بعض الفنانات كان لهن دور .. لكنه لم يعترف بحفلات السمو الجنسى على طريقة الهنود .. أو على طريقة فتيات السنونو .. والعبرة فى النهاية بما حدث .. الهزيمة .. وسقوط الأحلام.

■ ■ ■ ■

استمرت صداقة عامر وعبد الناصر ٤٠ سنة .. منذ خدما معاً فى منقباد سنة ١٩٤٧ إلى أن هزما معاً فى سيناء سنة ١٩٦٧ .. ويكاد المؤرخون أن يجمعوا على أن هذه الصداقة

هى نقطة ضعف نظام يوليو .. فقد خسر النظام فى ٦ ساعات ما كسبه فى ١٥ سنة .. إنها ساعات الهزيمة التى سحقت سنوات الإنجاز .. ويقول محمد حسنين هيكل:

إن عامر نصف فنان، نصف بوهيمى، لطيف جداً، عسكرى لا يصلح لقيادة جيش، تكفيه كتيبة .. ولم يكن يقرأ .. أو يتابع الجديد فى فنون الحرب .. ولم يكن لديه الوقت ليكون قائداً للجيش .. لقد توقفت معلوماته العسكرية عند رتبة الصاغ .. ولم تزد معلومة واحدة حتى مات.

وقد راح عامر يدلل الضباط إلى حد أفسدهم .. فتحول رجال مكتبه إلى تجار ومهربين .. ففى ١٩٦٦، كانوا يجيئون ببضائع وثلاجات وأجهزة تكييف وتليفزيونات من عدن عن طريق اليمن ويبيعونها فى السوق السوداء فى القاهرة وقتها أثار عبد الناصر الموضوع مع عامر .. قائلاً: «إنه لا يريد أن يدخل فى هذه القضية بسلطته أو سلطة الحكومة حتى لا يحرج المشير، ولهذا فهو يطلب منه شخصياً تصفية هذه الانحرافات ومعاقبة المسؤلين عنها فوراً» .. ثم قال عبد الناصر لعامر: «إننى أريد أن تأمر بنفسك بالتحقيق فى هذه الموضوعات ولا أريد أن تتصرف بمنطق الصعيدى الذى يتصور أنه مكلف بحماية رجاله فهذا منطق مشايخ غفر لا يليق بك»[1].

وواضح أن عبد الناصر كان يعرف أن أسلوب عامر هو أسلوب العمد وشيوخ البلد، ومنطقه هو منطق الصعيدى والمصطبة .. لا هو أسلوب مؤسسة منضبطة لها تراث وتقاليد .. ولا هو منطق القائد الذى يلتزم باللوائح والقوانين .. إن فضيحة المشير كانت نموذجاً لأخطاء السلطة الأبوية فى المؤسسة العسكرية .. وهى السلطة التى ضيعت الجيش فى يونيو ١٩٦٧ قبل أن تضيع أعصاب قائده .. بل إن الهزيمة لم تعلمه كيف يتخلص من هذا الطراز من السلطة .. فعندما اتفق مع عبد الناصر على الاستقالة، رشح شمس بدران أحد رجاله المخلصين ليصبح رئيساً للجمهورية .. إنه كان مستعداً لأن يُلدغ من نفس الجحر مرتين.

وبعد سنة ـ تقريباً ـ على فضيحة مكتب المشير .. انفجرت قنبلة زواجه السرى من .. نفيسة عبد الحميد حواس، وشهرتها برلنتى عبد الحميد، وهى ممثلة سينمائية عُرفت بتقديم أدوار الإغراء والإثارة .. ولعل قصتها مع المشير صورة من صور الولاء للسلطة الأبوية .. إن الضباط يردون الدين للأب القائد .. إنه يمنحهم الحماية والميزات،

---

(١) هيكل ـ الإنفجار ـ ١٩٦٧ ـ ص ٣٩٥.

ويغفر الذنوب والتجاوزات، ولابد أن يحصل على الثمن .. ولاء وطاعة وخدمات أخرى شخصية .. لا مانع.

والمعروف أن الذى دبر اللقاء الأول بين عامر وبرلنتى هو مدير المخابرات الأسبق صلاح نصر، فى أواخر سنة ١٩٦٠، وقد تطورت العلاقة إلى زواج عرفى وقع عليه حسن ومصطفى عامر شيقيقا المشير فى أوائل عام ١٩٦٥ .. وفى ٢٠ فبراير ١٩٦٧ ـ وحسب ما قاله هيكل[٢] ـ قرأ عبد الناصر تقريراً كان بمثابة صدمة .. كان التقرير عن زواج عامر وبرلنتى، وأنهما ينتظران مولوداً نتيجة لهذا الزواج .. ورأى عبد الناصر أن ينتظر أياماً قبل أن يفاتح عامر فى الموضوع .. حتى لا تملكه انفعالات الغضب وتصعب المناقشة الجادة فى تصرف يصعب السكوت عليه.

وكان شعور عبد الناصر لأول وهلة أن عبد الحكيم عامر يجب أن يبتعد عن منصبه ومادام قد اختار أن يغلب ضعفه الإنسانى على شعوره بالواجب فإن الأمور تقتضى حسماً، وقام عبد الناصر باستدعائه لمقابلته يوم أول مارس ١٩٦٧، وكانت مشاعره مختلطة بين الأسى والغضب، فقد كان عبد الحكيم عامر أقرب الناس إليه منذ كانا فى عز الشباب ضابطين بالقوات المسلحة، ثم خدما معاً فى السودان قرابة عامين .. ثم كان عبد الحكيم عامر ساعده الأيمن فى تنظم الضباط الأحرار، وكان هو الذى يتولى الإشراف على شئون التنظيم بما فيها الاتصال مع الضباط الذين انضموا إلى صفوفه وكان عبد الحكيم عامر بطبيعته إنساناً ودوداً قادراً على كسب ثقة زملائه والاحتفاظ بودهم .. وليلة الثورة كان بجانب عبد الناصر طوال الوقت .. وفيما بعد ولصلته بتنظيم الضباط الأحرار، ولمعرفته الواسعة بهم، وبغيرهم من المتعاطفين مع الثورة أو الذين ساعدوا على قيامها واستقرارها ـ رقى إلى رتبة اللواء وأصبح قائداً عاماً للقوات المسلحة وقد ساعده فى هذه المهمة وتولى وزارة الحربية بعد شمس بدران.

ومع أن عبد الحكيم عامر لم يكن فى أحسن أحواله أثناء معركة سنة ١٩٥٦ إلا أن ظروف العدوان الثلاثى كانت تغلب على أعصابه، ثم إن تجربته فى سوريا لم تكن ناجحة .. وبرغم ذلك فإن عبد الناصر كان دائماً على استعداد لأن يعطيه فرصة أخرى وكان عبد الحكيم عامر من ناحيته يشعر بهذه الحقيقة ومن ثم فإنه أصبح فى بعض الأحيان حساساً بأكثر من اللازم.

---

(٢) المصدر السابق ـ ص ٣٩٤.

وحين وصل عبد الحكيم عامر إلى مكتب جمال عبد الناصر فى بيته فى منشية البكرى فإنه أحس على الفور بأن هناك شيئاً غير عادى فى الجو، وبدا من بعض تصرفاته أن لديه فكرة عن الموضوع الذى استدعى من أجله.

كان أسلوب عبد الحكيم عامر المعتاد عندما يواجه إليه أى تساؤل عن تصرف من تصرفاته أن يبدأ بإثارة زوابع صغيرة ويتخذ مظهر الغاضب المجروح المعتدى عليه، وهكذا عندما سأله جمال عبد الناصر فى موضوع زواجه السرى بدا غاضباً ومتألماً وقائلاً: «إنه سئم هذه الحملات الموجهة ضده والتى تثور من وقت لآخر وإنه لم يعد يطلب غير أن يبتعد وإنه يفضل أن يعود إلى قريته «أسطال» بالمنيا ويعيش هناك فلاحاً عادياً، يزرع ويقلع ولا يكون نائباً لرئيس الجمهورية أو نائباً للقائد الأعلى للقوات المسلحة .. وانتظره جمال عبد الناصر حتى أفرغ ما لديه ثم كان تعليقه أن كل ما سمعه من المشير خارج الموضوع، وأن سؤاله كان سؤالاً محدداً، وليست هناك جدوى من تجنب الرد عليه مباشرة .. وهكذا هبط عبد الحكيم عامر فوراً من الغضب إلى التظاهر به دفاعاً عن النفس، واعترف بعلاقته مع السيدة برلنتى عبد الحميد، ولم يجد ما يبرر به تصرفه سوى أنه وجد أخيراً إنسانة تستطيع أن تفهمه .. وكانت الدموع تلوح فى عينيه وهو يحاول أن يكتمها .. ثم لم يتمالك نفسه وراحت دموعه تجرى على خديه فى صمت .. وسأله جمال عبد الناصر عن الظروف التى تعرف فيها عليها .. وكان رد عبد الحكيم عامر أنه تعرف بها عن طريق صلاح نصر[٣].

لم يبتعد عبد الحكيم عامر عن منصبه كما أراد .. وكان ما كان فى يونيو ١٩٦٧ .. وفى تلك الأيام السوداء جرى لقاء بين عبد الناصر وصلاح نصر .. يمكن تلخيصه على النحو التالى:[٤]

صلاح نصر: صدقنى يا سيادة الرئيس إننى أحاول بكل جهدى أن أساعد على حل مشاكل كثيرة دون أن ازعج سيادتك.

عبد الناصر: مشاكل إيه؟

صلاح نصر: إننى كنت طوال الوقت أخشى من انفلات عبد الحكيم عامر إلى تصرفات لا تحمد عواقبها.

---

(٣) المصدر السابق ـ ص ٣٩٤.

(٤) المصدر السابق ـ ص ٨٧٥.

عبد الناصر: إنك أنت شخصياً أحد المسئولين عما جرى لعبد الحكيم عامر .. إنه كان قطة مغمضة حتى توليت أنت فتح عينيه على مالم يكن يجوز أن يتورط فيه.

صلاح نصر: أقسم لك أنا لا ذنب لى فيما تورط فيه عبد الحكيم عامر .. إننى أعترف بحقيقة أننى أنا الذى قدمت إليه برلنتى، لكن لم أكن أتصور أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

عبد الناصر: لماذ أخفيت الأمر عنى وأنت مدير المخابرات العامة؟

صلاح نصر: لقد تصورت أن المشير سوف يفوق بعد وقت قصير، وينتهى الأمر وننسى الموضوع كله .. لكن ما توقعته لم يحدث، وغاص المشير فى ورطته إلى شوشته.

عبد الناصر: هذا لا ينفى انك أخطأت:

صلاح نصر: إن عبد الحكيم عامر كان تحت ضغط عنيف فى ظروف بداية النكسة .. فقد أنجبت برلنتى منه طفلاً وراحت تطالبه بأن يعلن زواجه منها لكى تجعل وضعها فى المجتمع محتملاً .. وكانت على استعداد لأن تذهب إلى أسرته وتشرح موقفها وتطلب قبولها فى الأسرة بحق الشريعة التى لا تحول بينها وبين هذا الطلب.

ووُلد الطفل والبلد مهزومة، ولم ير والده، الذى ذهب إلى الموت بقدميه .. ولم يبق من القصة سوى نهايتها الحزينة .. السوداء .. التى دفعنا جميعاً ثمنها.

■ ■ ■ ■

لقد بدأنا بمشير.

وانتهينا بمشير.

وسبحان من له الدوام.

الفهـــرس

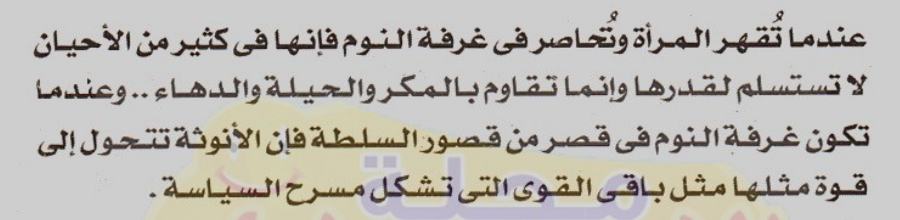
حكومات غرف النوم

المرأة بين لعبة المتعة ولعبة السلطة



هـذا الكتـاب

عندما تُقهر المرأة وتُحاصر فى غرفة النوم فإنها فى كثير من الأحيان لا تستسلم لقدرها وإنما تقاوم بالمكر والحيلة والدهاء .. وعندما تكون غرفة النوم فى قصر من قصور السلطة فإن الأنوثة تتحول إلى قوة مثلها مثل باقى القوى التى تشكل مسرح السياسة.



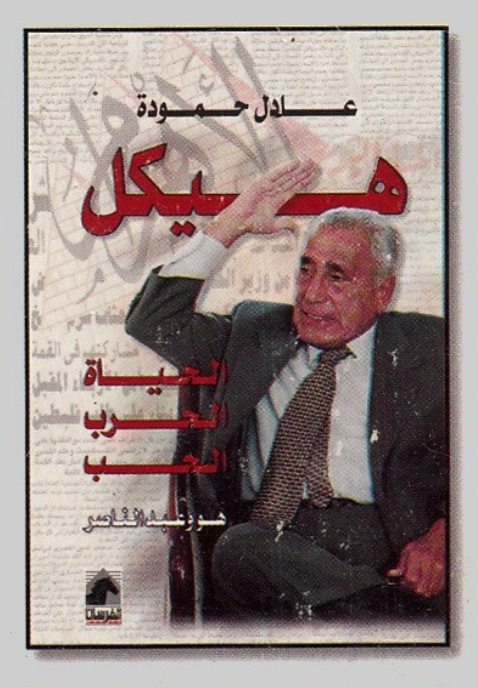
وهذه الطبعة الجديدة من هذا الكتاب الشهير لمؤلفه الكاتب السياسى المعروف عادل حمودة تؤكد ذلك من خلال كتابة قصة المتعة والسلطة فى حياة جمال عبد الناصر وأنور السادات والمشير محمد عبد الحليم أبو غزالة و المشير عبد الحكيم عامر وماوتسى تونج و المهاتما غاندى و أخطر رجال المخابرات فى العالم من بيريا فى الأتحاد السوفيتى إلى صلاح نصر فى مصر.

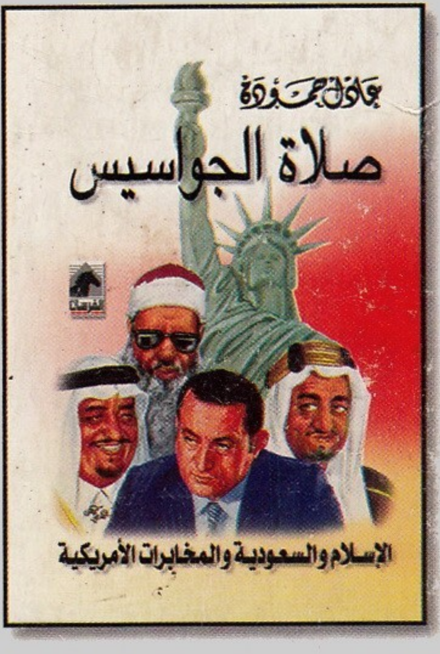
إنه كتاب يجمع بين الجاذبية و الجدية .. بين عطر القرنفلة وصخب القنبلة .. وبقدر الفائدة تكون المتعة.



الناشر









الفرسان للنشر


GREAT IS OUR GOD
حصريات مجلة الابتسامة
WWW.IBTESAMA.COM
مجلة الابتسامة